



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى
عليه
وآله
وسلم

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir



کتاب

فِی الْأَخْلَاقِ وَالْعِرْفَانِ

لِإِعْتِدَادِ الْحَقَائِقِ

مِنْ أَعْلَامِ الشَّيْخَةِ الْإِمَامِيَّةِ

وَمِنْ طَبِيقِ أَوْلِيَاءِهَا

تَمْتِيزِ

مَنْشُورِ الْأَعْلِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في الاخلاق والعرفان : لاحد الحفاظ من اعلام الشيعة الاماميه في القرن الخامس او السادس

كاتب:

رضا استادي

نشرت في الطباعة:

بنیاد پژوهشهای اسلامی آستان قدس رضوی

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
9	... في الاخلاق والعرفان : لاحد الحفاظ من اعلام الشيعة الاماميه في القرن الخامس او السادس
9	اشارة
9	اشارة
11	مقدمة المحقق
18	مقدمة الأستاذ واعظ زاده الخراساني حفظه الله
25	ذكر حسن الخلق
26	ذكر حسن الجوار
29	ذكر الأخوة
36	ذكر التصوف
40	ذكر معاملات فاضلة تجري بين العباد لابد من حفظها والوقوف عليها
44	ذكر الحسب و النسب
47	ذكر السخاء
53	ذكر المروءة و الفتوة
56	في ذكر الإسلام
59	ذكر الإحسان
64	ذكر الإقرار
67	في ذكر الشهادة
70	ذكر التصديق
72	ذكر الصدق
75	ذكر الدين و معناه
80	ذكر الملة
83	ذكر الفطرة

85	ذكر الطاعة
91	ذكر العبادة
96	ذكر البرّ
100	ذكر التّوحيد
104	ذكر معاني سنّة
107	ذكر العلم
110	ذكر بيان العلم
112	في ذكر أنواع العلم
117	ذكر الأدب
119	ذكر العقل
124	ذكر الحكمة
128	في ذكر المعرفة
135	في ذكر اليقين
138	ذكر الهدى
142	في ذكر الإلهام
145	في ذكر الحجّة
149	ذكر اللطف والتّوفيق والحرمان والعصمة والخذلان والتأييد والتّسديد والتّقريب والتّبعيد
152	وأما الغضب والسّخط والبغض والرّحمة والرّضا والحبّ والأسف والضّحك والصّبر والحياء والملاحة من اللّه
155	ذكر أوصاف نطق به القرآن في صفة القديم مثل النّفس والذّات والعين والوجه واليد والجنب والسّاق والسّعة والقوّة والمجّيء والإتيان والجدّ
164	ذكر القضاء والقدر
168	ذكر العرش والكرسيّ
174	ذكر اللوح والقلم
176	ذكر الأفلاك والكواكب
183	ذكر العالم
189	ذكر النّفس الأمّارة واللّوامة والمطمئنّة

190	ذكر النفس و الروح و القلب
194	ذكر الطب و طبائع الإنسان
206	ذكر الأمراض و أجر المريض
209	ذكر الخزائن
215	ذكر الغيب
218	ذكر دعوة الحق
220	ذكر الكتب المنزلة
226	في ذكر الرحمة و الرأفة
228	ذكر نعم الله
230	ذكر التواضع و الكبر
235	ذكر إرادات شريفة لا بدّ للعبد من حفظها و اجتناب أضرارها
243	ذكر أقسام الذكر و أنواعه
246	ذكر الفقر و الغناء
250	ذكر منازل المؤمنين
259	في ذكر النعمة
261	ذكر فضل الله
266	ذكر العفو
269	ذكر الفضل و العدل
273	ذكر السعادة و الشقاوة
277	ذكر الحقّ و معناه
282	ذكر الأولياء و الأعداء
286	ذكر دار المحنة
290	ذكر المحنة
297	ذكر الدولة
300	ذكر الرزق و سببه

305	ذكر التوكّل والتفويض والتسليم
309	ذكر الإخلاص
317	ذكر الزهد والرغبة وصفة الزاهد والراغب
321	ذكر الرضا والسخط
325	ذكر الشكر والكفران
330	ذكر القناعة
334	ذكر الصبر ومعناه
338	ذكر الاستقامة
341	ذكر التوبة وشرائطها
346	ذكر الورع والتقوى
348	ذكر العبرة والتفكير
351	حقّ الأولاد
354	ذكر الدنيا
357	فهرس مصادر التحقيق والتخريج
365	فهرست مطالب
373	تعريف مركز

... في الاخلاق والعرفان : لاحد الحفاظ من اعلام الشيعة الاماميه في القرن الخامس او السادس

اشارة

عنوان و نام پديدآور : ... في الاخلاق والعرفان/ لاحد الحفاظ من اعلام الشيعة الاماميه في القرن الخامس او السادس؛ تحقيق رضا الاستادي.

مشخصات نشر : مشهد : بنياد پژوهشهاي اسلامي ، 1426 ق.= 1384.

مشخصات ظاهري : 388 ص.: نمونه.

شابك : 25000 ريال: 7-817-444-964

يادداشت : عربي.

يادداشت : كتابنامه: ص. 345

موضوع : عرفان -- متون قديمي تا قرن 14

موضوع : اخلاق اسلامي -- متون قديمي تا قرن 14

موضوع : اخلاق عرفاني

موضوع : احاديث اخلاقي

شناسه افزوده : استادي، رضا، 1316 -، مصحح

شناسه افزوده : بنياد پژوهش هاي اسلامي

رده بندي كنگره : BP282/61384 /ف 9

رده بندي ديويي : 297/82

شماره كتابشناسي ملي : م 84-9411

ص: 1

اشارة

كتاب في الأخلاق والعرفان

لأحد الحفّاظ

من أعلام الشيعة الإمامية

في القرن الخامس أو السادس

إعداد و تحقيق

رضا الأستادي

ص: 1

بسم الله الرحمن الرحيم

جلب إلي «قم» قبل سنوات عدد من المخطوطات من آذربيجان، و من مدينة «مرند» عي الأظهر وعرضت في إحدي المكتبات للبيع، وانتقي أمين تلك المكتبة عضها ودفع ثمنها، و حاز ما فضل منها - باعتبارها ليست من نفائس المخطوطات - أحد أصدقائي، و هو سماحة حجة الإسلام علي أكبر زماني نژاد، فعرضها عليّ من باب الاحتياط؛ إذ لعلّ من بينها كتابا نفيسا، فأعيته له. وكان فيها كتاب سقطت من بدايته و نهايته أوراق، و كتب في الصفحة الأولى منه هذه العبارة: «كتاب في الأخلاقيات والمواعظ»، و كان بيد و عليه أنه كتاب قديم، فاسترعي انتباهي، واستعرتة منه.

و استنتجب بعد تصفّحه و مطالعة بعض محتوياته أنه من المصنّفات النفيسة لعالم من علماء الشيعة، ولعله من أعلام القرن الخامس، و استغلت و تنقيحه وإعداده للطبع في فترات متباعدة خلال هذه السنوات، و فرغت منه في صيف هذا العام - 1383 هـ . ش - بعد تصرّم فترة طويلة، ولكن ممّا يؤسف له أنه لازال الكتاب و مصنّفه و تاريخ تصنيفه مجهولاً، رغم أنّي بذلت قصاري جهدي في الاستقصاء والتأمل، فاضطرت إلي أن أطبع الكتاب بكونه نسخة من أثر مجهول.

تعريف الكتاب و وصفه

ص: 2

يضمّ مخطوط الكتاب 292 صفحة بحجم أصغر من الوزيريّ.

سقطت من أوّله و آخره و وسطه أوراق لايعلم عددها؛ لأنّها غير مرّقة.

لم يرد في أيّ موضع منه تاريخ تصنيفه أو استنساخه، غير أنّي أحسبه قد حرّر في القرن الثامن والتّاسع، و لم يكتب بخطّ مؤلّفه، وليس فيه ما يدلّ علي أنّه قد قوبل أو نّقح.

نسخت بعض كلماته بصورة بتعدّر قراءتها في بعض الموارد، رغم أنّ النسخ - كما يبدو - من العلماء كما يتعدّر في موارد آخري - وهي قليلة - أصلحها قياسا بنظائرها.

كان لمصنّفه إمام تامّ بآيات القرآن الكريم، وازدانت صفحات الكتاب بحوالي 450 آية.

يمكن عدّ المصنّف من مفسّر القرآن الكريم أيضا؛ لأنّه فسّر الآيات في كثير من الموارد تفسيراً مزجياً.

لقب كاتب النسخة المصنّف بلقب «الحافظ»؛ إذ ذكر في بداية أبواب الكتاب هذا اللقب بقوله: «قال الحافظ» ثمانين مرّة تقريباً.

وقدر ورد في الرسالة القشيريّة - المؤلّف في حوالي القرن الخامس - بضعة أعلام باسم «الحافظ» استناد إلي فهرس أعلامها، وهم:

1. سمعت محمّد بن الحسين يقول: سمعت محمّد بن عليّ الحافظ يقول: سمعت أبا معاذ القزوينيّ... ص 30. أنّ هذا الحافظ الذي روي القشيريّ عن تلميذه، هو من أعلام القرنين: الرابع والخامس.

2. سمعت محمّد بن الحسين يقول: سمعت عليّ بن عمر الحافظ يقول: سمعت ابن رشيقي... ص 38. وهذا الحافظ من أعلام القرنين: الرابع والخامس أيضا

3. أخبرني محمّد بن الحسين، قال: سمعت عبدالرحيم بن عليّ الحافظ ببغداد... ص 42. وهذا كالعلمين السابقين من القرنين: الرابع والخامس أيضا.

4. سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلميّ يقول: سمعت أبا أحمد الحافظ... ص 64. و هذا كسابقه الثلاثة أيضا

5. سمعت محمّد بن الحسين رحمهم الله يقول: سمعت عليّ بن عمر الحافظ يقول: سمعت أباسهل بن زياد... ص 38. هذا هو الحفظ الثاني من هذه القائمة.

6. أخبرنا حمزة بن يوسف السهميّ رحمهم الله، قال: حدّثنا عبدالله بن عديّ الحافظ... ص 374. وهذا كسائر الأعلام من القرنين: الرابع و الخامس أيضا.

7. سمعت حمزة بن يوسف السهميّ الجرجانيّ يقول: سمعت أبا أحمد بن عليّ الحافظ... ص 522. وهذا هو الرابع من هذه القائمة.

إنّ هؤلاء الحفاظ الخمسة كلّهم من العرفاء و من مشايخ القشيريّ المتوفّي عام 465هـ، بواسطة واحدة، وهم من أعلام القرنين: الرابع والخامس، الوارد ذكر هم في الرسالة القشيريّة.

أفلا يكون مصنّف هذا الكتاب واحدا منهم؟ أو ليس تشيّعُه ينفي هذا الاحتمال؟ لأنّ عرفاء هؤلاء ومشايخهم من العادة غالبا.

ولعلّه كان من حفاظ الحديث، فقد نقل في هذا الكتاب مئات الأحاديث والآثار عن رسول الله صلي الله عليه وآله عن أمير المؤمنين عليه السلام، ونقل في مواضع أخرى من الكتاب أيضا أحاديث عن الإمام الحسن، والإمام الباقر، والإمام الصادق، والإمام الرضا عليه السلام ولم تكن كثيرة، وكانّ مصادر أحاديث الشيعة ما كانت منتشرة في كلّ مكان حين تأليف هذا الكتاب، أو ما كانت في متناول يد مصنّفه؛ لأنّ هناك قرائن تدلّ عليّ أنّه روي كثيرا عن كتب العامّة، كما ذيل كلّ عنوان بمطالب عرفانية مع أسماء أصحابها أو بلفظ «قيل» فضلا عن الآيات والروايات.

وذكر كتابا باسم «الميزان» في موضعين؛ قال في موضوع «الورع»: قال صاحب الميزان: الورع: ستر بين العبد والشبهات، والتقوي: ستر بين العبد و بين الحرام...

وقال في موضوع «ذكر الأولياء والأعداء»: وذكر صاحب الميزان: إنّ الفقر

للأولياء كرامتهم، وطاعة الله حلاوتهم، وحبّ الله لذّتهم، وإلي الله حاجتهم...

ولم أستطع للأسف أن ألمّ بهذا الكتاب و بمصنّفه.

وقال في موضوع «اللوحة والقلم»: ذكر صاحب كتاب الاعتقاد: أنّ اللوح والقلم هما ملكان. وجاء في اعتقادات الصدوق ص 44: باب الاعتقاد في اللوح والقلم، قال الشيخ أبو جعفر رضي الله عنه: اعتقادنا في اللوح والقلم أنّهما ملكان.

ونقل في موضعين مطلباً عن تفسير في ذيل آية، قال في موضوع «الدين ومعناه»: ومن معاني الدين الجزاء؛ قال الله تعالى: «ملك يوم الدين» قال صاحب التفسير: يوم يدان الناس بأعمالهم.

وقال في موضوع «الملة»: وقد ذكر الله تعالى إبراهيم بالوفاء، فقال: «إبراهيم الذي وقّي» قال صاحب التفسير: قام لربّه باستكمال الطاعة.

وقال في موضوع «الأخوة»: قرأت في «المفتخر» تصنيف أبي محمّد الحسن بن حمزة العلويّ رضي الله عنه، روي عن رجاله، عن رسول الله صلي الله عليه وآله.

ورد في رجال النجاشي أنّه من القرن الرابع.

وقد ذكر أسماء الأئمّة الاثني عشر، وذكر مصائب أهل البيت بصوره جملة، وروي فقرة من الخطبة الفدكيّة لفاطمة الزهراء كشاهد لظلم أبي بكر، ومع ذلك فقد لقب أبابكر بلقب «الصدّيق» في موضعين، وكأّنه عمل بالتقيّه إلي حدّ ما(1)، ولكن لا يشكّ في تشييعه رغم ذلك.

وقال في موضع من الكتاب: وجري بين بعض أهل ناحيتنا و شيخ يقال له: ماجد بن محمد مناظرة في باب التوحيد، فكتب ماجد إلي شيخ الحجازيين، وهو أبوسهل محمّد بن سليمان الحنفيّ... فورد الجواب...

عرف أبوسهل محمّد بن سليمان الحنفيّ في كتب التراجم أنّه من القرن الخامس، إلّا أنّه كان في نيسابور.

ص: 5

1- ولعلّه من إضافة الناسخ.

وإن كان هو شيخ الحجازيين، اتضح أن زمان تأليف الكتاب في القرن الخامس تقريبا.

وقال في موضع أراد فيه أن يمثل للنسبة إلي مكان: كقولهم: عراقي أو حجاري أو شامي أو مغربي أو يمني أو شباهها.

ويستشف من هذه العبارة نفي كونه إيرايتيا أو ساكنا في ايران.

وذكر أسماء هؤلاء الأشخاص ونقل عنهم مطالب:

1 - أبو محمد الحسن بن حمزة العلوي، مؤلف كتاب «المفتخر».

2 - الشبلي المتوفي عام 334.

3 - أبو موسى الدنبلي أو الديبلي الذي ورد اسمه في الرسالة القشرية.

4 - الجنيد بن محمد المتوفي عام 297.

5 - أبو يزيد البسطامي المتوفي عام 261 أو 234.

6 - الصقار عن سعيد بن عطاء الشيباني، عن أبي العباس بن عطاء؛ إذ توفي الثالث عام 309.

7 - حسين بن منصور الحلّا المتوفي عام 309.

8 - عبيدالله بن حسين الكرخي المتوفي عام 340.

9 - ذوالنون ابن إبراهيم المصري المتوفي عام 245.

10 - سري السقطي تلميذ معروف الكرخي المتوفي عام 257.

11 - أبو عبدالله المحاسبي أو الجاسبي المتوفي عام 243.

12 - الجبائيان: الأب والابن عاشا في القرن الرابع.

13 - محمد بن حسن الشيباني المتوفي 189.

14 - أبو العباس ثعلب المتوفي عام 291.

15 - صاحب الاعتقاد، وهو الشيخ الصدوق المتوفي عام 381.

16 - القتيبي المعاصر للفضل بن شاذان حسب الظاهر من القرن الثالث.

17 - يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام 258 في نيسابور.

18 - ابن جريح المتوفى عام 150.

19 - حمزة بن حمزة العلوي المعاصر ليحيى بن معاذ من القرن الثالث.

20 - طلق بن حبيب المذكور في الرسالة القشيرية.

وأغلب هؤلاء الأعلام من العرفاء، كما ذكرت أسماء أخرى لبعض الأعلام أيضا، ليسوا من متأخري القرن الرابع أو الخامس.

ونقل تسعة أدعية منسوبة أمير المؤمنين علي عليه السلام وكلها تضاهي أدعيه الصحيفة السجادية بتلخيص واختلاف في الكلمات والجملات وفي التقديم والتأخير، وهذا الأمر يسترعي الانتباه ويحتاج إلى دراسة وتحقيق. (1)

وما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام يختلف عما جاء في نهج البلاغة، وهذا يدل على

أنّ المج لّف نقل عن كتاب غير نهج البلاغة.

وليس للروايات والأخبار سلسلة سند، سوى مورد أو موردين، وكثيرا ما وردت مواضع في روايات الخاصة والعامة بلفظ «قيل».

وأشار أحيانا إلى بعض المسائل الكلامية، وبحثها وفق مبادئ الشيعة، كما أشار إلى المسائل الأدبية، واستشهد بشعر لم يرد في الكتب اللغوية كلسان العرب.

وجاءت مطالب في موضوع «الإفلاك والكواكب» وفي «الطبّ واطبائع الإنسان» وفي «أنواع العلم»، تشهد بوسعة علوم المؤلف وتعدّد فنونه.

وكتب المؤلف بقلمه عبارات ذات صبغة أدبية وعرفانية، فقد جاء في موضع من كتابه مثلاً: «ولقد قلت في بعض كلامي: رؤية العاقل تقيد الحكمة، ورؤية الجاهل تبيد الخطرة. صحبة العاقل طرب، وصحبة الجاهل كرب. موت الجاهل حيرة، وموت العاقل حسرة. خاتمه لعاقل السعادة، وعاقبة الجاهل الشقاوة».

ص: 7

1- أورد ابن أبي الحديد في شرحه علي نهج البلاغة دعواتا من الصحيفة لسجادية ونسبها إلى أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه.

وأنشأ في موضع آخر: «ولذ قلت في بعض كلامي: علامة العارفين عشرة أشياء...».

ويستفاد من هذه العبارات أن له مؤلفات آثار أخرى أيضا.

ويحوي الكتاب ثمانية وسبعين موضوعا أصليًا، وعددا من المواضيع الفرعية.

وقد طلبت من الأستاذ الكبير سماحة الشيخ واعظ زاده الخراساني أن يلاحظ الكتاب ويبدي رأيه فيه، ويكون ذلك مقدّمة الكتاب، فوافق علي طلبي، و تفضّل بكتابة مقدّمة تلي هذه السطور. وأري من الواجب أن أقوم بشكره و أذيع فضله.

شكر و تذكّار

هنا، أري لزاما عليّ أن أتقدّم بالشكر الجزيل لصديقي الأعزّ حجة الإسلام والمسلمين محسن الأحمدي حيث أزرني في تصحيح المتن، و حجة الإسلام الشيخ محمد باقریان لتحمله عناء تخريج أكثر المرويّات من المصادر، والشيخ عبداللّه الغفراني للمراجعة وإصلاحات النهائية.

ولا يخفي أنّه كلّما وردت في الهوامش كلمة «راجع» فالمراد أنّ الحديث بعينه لم يوجد في المصادر، بل وجد بعضه أو مثله أو قريب منه في المفاد.

رضا الأستادي

قمّ المقدّسة / 1383 ش

ص: 8

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد طالعت جميع صفحات هذا الكتاب النفيس تلبية لرغبة آية الله الأستاذي، ودوّنت خلال ذلك ملاحظات كثيرة، أوجزتها علي النحو التالي:

إنّ هذا الكتاب أثر لبعض علماء الشيعة الإمامية في القرن الخامس أو السادس، وقد قضى عمره ملازماً للتصوّف والعرفان، و حليفاً للقرآن والحديث، و مولعاً بكثير من العلوم، نحو: الهيئة والنجوم والرياضيات والطّب. وناهيك من أنّه كان من شيوخ المتصوّفة وعلماء الحديث، واشتهر بلقب «الحافظ».

ولكن ممّا يؤسف له أنّ اسمه و مكان نشأته و سابقته الدينية والعلمية مجولة بدون شكّ و ريب، وإنّ وفّقنا لإدراك هذه المواصفات بالحدس والظنّ وفق بعض القرائن. وقد حصلنا علي الملاحظات التالية من ثنايا الكتاب:

1. نقل عن كتاب «المفتخر» لأبي محمّد حسن بن حمزة العلويّ (358) المعاصر للشيخ الصدوق (381) (1)، إلاّ أنّه كان معاصراً للسيد المرتضى علم الهدى (436) والشيخ الطوسيّ (460) علي الظاهر.

2. لم ينقل من كتب الشيعة الإمامية، عدا كتاب «اعتقادات الصدوق» الذي ذكره

ص: 9

بلفظ «قال صاحب الاعتقاد»⁽¹⁾، واقتبس روايات الأئمة وخطب الإمام عليّ عليه السلام من مصادر أخرى.

3. هناك شواهد تدلّ عليّ أنّه استقي بعض هذه الآثار من كتب الإسماعيلية، مثل: «دعائم الإسلام» للقاضي نعمان (363) إذ ينبغي مقابلتها مع الروايات الأولى لهذا الكتاب.

وهذه الشواهد في

أ. قال في موضع، نحو «دعائم الإسلام» الذي كانت رواياته مرسلّة: «رؤينا»، وهو يقول أيضاً: «خبرنا».

ب. كان يثني عليّ الإمام الصادق بقوله: «سلام الله عليّ ذكره»⁽²⁾ بدلاً من عليه السلام حسب طريقة الإسماعيلية كما هو مرسوم بينهم حالياً.

ج. نقل عن كتاب «الميزان»⁽³⁾ مرارا وتكرارا، ويحتمل أن يكون «ميزان العقل»⁽⁴⁾ للقاضي نعمان.

4. إن كان هذا الرأي صئبا، تحتم القول بأنّه كان إسماعيلياً ثمّ تشييع، وقد ذكر أسماء الأئمة والإمام الحجّة المهديّ عليه السلام، و عقائد الشيعة، عصب الخلافة، و منع الزهراء عليها السلام إرثها، والعترة عدّة مرّات.⁽⁵⁾

5. ومع ذلك فهو صوفيّ بحت، بل كان من مشايخ الصوفية. وذكر في «فل ذكر التصوف» أقوالاً في تعريف التصوف، وقال: «والتصوف عندي يرجع إليّ سبعة معانٍ...»⁽⁶⁾. وقال في مواضع أخرى: «من أقسام العلم علم التصوف، وهو بحر

ص: 10

1- الصفحة 144.

2- الصفحة 279.

3- الصفحة 268 و 327.

4- انظر مقدّمه «دعائم الإسلام» طبعة مصر.

5- الصفحات: 247 و 26 و 281 و 283 و 305 و 139 و 152 و 158.

6- الصفحة 28 و 30.

عميق»(1)، و «معني المعرفة علي لسان التصوّف»(2)، و «معني العرش عند أهل التصوّف والتحقيق القلب»(3)، قال بعض المحقّقين وأهل التصوّف: «المراد باللوح المحفوظ القلب»(4)، و «قال أهل التصوّف: العالم اثنان: الكبير والصغير»(5).

كما ذكر «العارفين» مرّات عديدة أيضا؛ قال: «قلت: علامة العارفين عشرة أشياء(6)، و كذا الحكمة والحقيقة؛ قال: «والحكمة عندي - والله أعلم - عبارة عن الوجدانية(7)»، «والقد قلت في بعض كلامي: ر؟ية الحافل حكمة»(8)، «تريد الجواب بلسان الشرع أم بلسان الحقيقة أم بلسان الحق». و استعمل لفظ «المريدين» مرّات أيضا.(9)

6. وفي مضممار التصوّف ذكر أسماء شيوخ التصوّف مرارا منهم: أبو يزيد البسطاميّ، وذوالنون المصريّ، والشبليّ و شقيق البلخيّ، وإبراهيم بن الأدهم، والجُنيد، والحسن البصريّ، وذوالنون المصريّ، والشبليّ و شقيق البلخيّ، وإبراهيم بن الأدهم، والجُنيد، والحسن البصريّ أيضا بقيد رحمهم الله وغيرهم.(10)

7. وذكر الصحابة والإمام والسلطان العادل - الذي يعني به الحاكم الإسلاميّ(11) -

معر عليّ و أهل البيت عليه السلام؛ قال: «ومنها حقّ الصحابة من أهل الهجرة والنصرة، و هو ذكّر محاسنهم، ونشر فضائلهم، وإقالة عثرتهم، وستر عوارتهم، و تعظيم أحوالهم... و

ص: 11

1- الصفحة 106.

2- الصفحة 122.

3- الصفحة 167.

4- الصفحة 165.

5- الصفحة 174.

6- الصفحة 125.

7- الصفحة 117.

8- الصفحة 115.

9- اصفحات: 29 و 80 و 93 و 201 و 251 و 298.

10- الصفحات 75 و 80 و 120 و 121 و 281 و 293 و 310 و 323 و 335.

11- الصفحات: 266 و 267 و 281.

حفظ اللسان عمّا يشينهم». وروي أحاديث في الأنصار، وعن أبي بكر، وأنس بن مالك، وابن مسعود، وابن عمر، وأبي هريرة، وعن فقهاء العامة كالشافعي، ومحمد

بن الحسن الشيباني، وعن آخرين، وقيد أسماءهم بذكر رحمهم الله. (1)

8. يختص المؤلف بمسلك خاص، ويربط التشيع بالتصوّف بنهج خاص، يقول: «فينبغي للعبد أن يصل ولايته بولاية وليّ الأمر الذي هو الوسطة بين الرسول ولأئمة، والمفزع في الأحكام والشريعة، وولاية وليّ الأمر. بولاية الرسول الذّي هو صاحب الشريعة...» (2)، وقال في الشيخ حسين منصور الحلاج: «كان صوفيًا بالحقيقة، مقتديًا بالأئمة» (3)، رغم أنّه مردود عند الشيعة الإمامية.

9. يحتمل أنّه كان من محدّثي بلخ وحفاظها ومتصوّفيها؛ إذ قال: «يحيى بن معاذ الرازي، دخل علي حمزة بن حمزة العلويّ ببلخ، فقال له: ما تقول فينا أهل البيت؟ قال: ما أقول في طينة عجنّت بماء الوحي...» (4) ولعلّه عني بلخ بقوله: «وجري بين بعض أهل ناحيتنا وشيخ يقال له: ماجد بن محمد مشاجرة، فكتب ماجد إلي شيخ الحجازيين، وهو أبو سهل محمد بن سليمان الحنفيّ» المتوفّي عام 369، ورغم ورود عدّة محدّثين في كتاب «مشايخ بلخ» للدكتور محمد المحروس (ط. العراق ج 1، ص 72)، ما استطعت أن أوفق بين أحوالهم وحال المؤلف.

وكان مذهب أهالي بلخ الحنفية حتّى القرن الرابع، وغلب عليهم التصوّف أيضًا. إلا أنّ ناصر خسرو العلويّ القباديانيّ (394 - 481) ه. ق، قد نشر المذهب الإسماعيليّ في تلك الناحية وفي نفس الفترة، ولعلّ لمؤلّف كان منتميا إلي هذه الفرقة، ثمّ التقى بالشيعة الإمامية وصار شيعيًا. ولكن ما كان لديه من كتب الشيعة -

ص: 12

1- الصفحات: 26 و 37 و 107 و 121 و 163 و 172 و 277 و 170.

2- الصفحة 270.

3- الصفحة 332.

4- الصفحة 252.

ككتب الإسماعيلية - غير كتاب «عقائد الصدوق» لأنّ الصدوق قد سكن هذا الصقع بضع سنوات(1)، كما جاء في مقدّمة «كتاب من لا يحضره الفقيه»، وأنّه أجاز الشريف الدّين السيّد نعمة في «إيلاق» من نواحي بلخ، وكانت كتبه هناك أيضا.

وعلي هذا، فإنّنا نحتمل أنّ المؤلّف انتمي إلي مذهب الإمامية بعد عدوله عن الفرقة الإسماعيلية، بيد أنّه بقيت آثار ورواسب من عهد عقيدته الإسماعيلية، تظهر في مواضع من الكتاب، ولا تزال الطريقة الإسماعيلية باقية في منطقة «بدخشان» أيضا.

10. يبدو أنّ ناسخ الكتاب قد تصرّف فيه، فتارة استعمل في «الحافظ» مؤلّف الكتاب لفظ رحمهم الله وتارة «حفظه الله». (2).

فهذا الكتاب مجمع للأدب والأخلاق والعرفان، ويرجع علي كتاب «إحياء العلوم» للغزاليّ، رغم وجاهته، ويمكنك في هذا المجال مقايسة باب «الصبر» في كلا الكتابين.

محمّد واعظ زاده الخراساني

خراسان - مشهد المقدّسة

في 28/8/1383

ص: 13

1- راجع مقدّمنا لكتابي «المقنع» و «الهداية».

2- الصفحة 52 و 120.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الحمد لله الذي توحد بالوحدانية، وتقرّد بالإلهية، وفطر العباد علي معرفته، وكلّ الألسن عن صفته، الذي علا عن صفات المخلوقين، و
جلّ عن معاني المحدودين، فلا مثل له في الخلائق أجمعين، ولا إله غيره لجميع العالمين.

وصلاته و سلامه علي خير خلقه محمّد سيّد الصّفوة و المنتجبين، و علي آله قرناء القرآن المبين.

اللّهم اجعل لنا نورا يرينا الخير و الشرّ بصورتيهما، و يعرفنا الحقّ و الباطل بحقيقتيهما، حتّي نكون من المتّبعين للحقّ و العاملين بالخير، و
المجتنبين عن الشرّ و الباطل، و لا نكون من الضّالّين المضلّين.

و بعد: فهذا الكتاب يشتمل علي شرح عدّة من العناوين الواردة في القرآن و كلمات المعصومين عليهم السلام بنحو بديع، فخذه و كن من
الشّاكرين. و الحمد لله ربّ العالمين].

ص: 15

قال الحافظ:

صَفُو العيش مع المداراة، و كَدَّر العيش مع الممارسة. (1)

وقيل: الدَّهر يفيد من داري و يبید من ماري. اتَّسعت دار من يداري و ضاقت أبصار (2) من يماري.

و ذكر عن المأمون قال: من حسن خلقه ساءت آداب خدمه.

وقيل: لا يحسن خلق المرء إلا بالنظر في آداب الملوك و سِير الحكماء و سنن الأنبياء و أخلاق الأوصياء، و رياضة النفوس و حملها علي العادات الجميلة و مقاساة المحن الشديدة، و الغيبة عن الأوطان في الأيام الطويلة.

و في حسن الخلق راحة النفس و سعة الدار و طيب العيش و أمن الخدم و حبّ الأحرار و ربح مائدة المحتسبين و سلامة الأواني من الكسر و الثياب من الخرق و الصبيان من الضرب و الدوابّ من التضييع.

و فيه عمارة البيت و كنس الدار و نظافة الثياب و مراعاة الأسباب و فتح الأبواب.

و هو القربة و النجاة من الفرقة و الداعي إلي الوصلة، و هو من سنن المرسلين و آثار النبيين و أوصاف الصّديقين و دلالة ربّ العالمين.

ص: 16

1- الممارسة: التّزاع و اللجاج.

2- كذا. ولعلّ الصحيح: أنصار.

قال الحافظ:

إنَّ اللهَ تعالى عَظَّمَ حَقَّ الجوارِ وقرَنَه بَيرَ الأقربين، فقال عَزَّ ذَكَرُه: «واعبدوا اللهَ و لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى و اليتامى و المساكين و الجار ذى القربى و الجار الجنب و الصَّاحِب بالجنب» و هو الرِّفِيقُ في السَّفر، و قيل: المرأةُ في البيت «و ابن السَّييل» و هو الصَّيْف النَّازل «و ما ملكت أيمانكم» (1) مثل العبيد

و الإماء و غيرهم ممَّن و جبت رعايتهم.

فهذه حقوق مؤكَّدة لا يسع تضييع واحدة منها.

ابتدأ بحقه و هو أعظم الحقوق لأنَّه التَّوحيد المعلوم بالعقل السَّليم و الخبر الصَّحيح و به يقبل الأعمال، ثمَّ برَّ الوالدين و هو أوكد الحقوق بعد التَّوحيد لحقَّ التربية، ثمَّ حقَّ القرابة و هو ألزمها بعد حقوق الوالدين للوصلة الواقعة، ثمَّ حقَّ الجار

القريب و له حقَّان: حقَّ القرابة و حقَّ الجوار، ثمَّ حقَّ الجار الجنب و له حقَّ واحد و هو حقَّ الجوار.

فعلي العبد أن يحافظ علي هذه الحقوق، فقد نطق بتأكيدھا الكتاب و وردت فيه السَّنة و اتَّقت عليه الأُمَّة (2) العادلة.

ص: 17

1- النَّسا: 36.

2- في الأصل: الإمامة.

وفي المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: حرمة الجار كحرمة الأم. (1)

وقيل: من أعظم الذنب أن تزني بحليلة جارك.

وقيل: النظر في الدور والحجرات من تضييع الأمانات.

وقيل: حسن الجوار عمارة الدار.

وذكروا أن أباحنيفة دخل علي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: ما ترك العرب شيئاً من المثل.

فقال الصادق عليه السلام: لا تقل مثل هذا يا نعمان، ولكن قل ما ترك الله شيئاً من الحكم.

قال: يابن رسول الله عليه السلام أين قول العرب في كتابه: أعط أخاك تمرة فإن أبي فجمرة؟ قال: ذلك قوله عزّ ذكره: «ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين». (2)

قال: أين قول العرب في كتابه: من آذى جاره ورّثه الله داره؟

قال: ذلك قوله عزّ ذكره: «لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم». (3)

قال: فتعجب نعمان وخرج. (4)

وقرأت في حكمة لقمان أنه قال لابنه: يا بني، الجار ثم الدار، الرفيق ثم الطريق،

السلام ثم الكلام. (5)

وحقّ الجار مؤكّد في الشريعة بدلالة قول المصطفى عليه السلام: الجار أحقّ بصقبه. (6)

ص: 18

1- راجع البحار 73/154 وفي مكارم الاخلاق: عن النبي صلى الله عليه وآله: حرمة الجار علي الإنسان كحرمة أمّه.

2- الزخرف: 36.

3- إبراهيم: 14.

4- لا توجد هذه الرواية في تفسير البرهان ولا في الاحتجاج للطبرسي فراجع.

5- في الاختصاص في مواظ لقمان لابنه: يا بني الجار ثم الدار، يا بني الرفيق ثم الطريق. وفي الدعوات للراوندي عن النبي صلى الله عليه وآله: السلام قبل الكلام. راجع البحار 13/428 و 90/313 و 73/12.

6- أي الجار أحقّ بما يليه ويقرب منه. والحديث أورده السيوطي في الجامع الصغير 1/247 نقلاً عن البخاري وأبي داود والنسائي.

وعن عائشة قالت: يا رسول الله، إن لي جارين؛ إلي أيهما أهدي؟ قال: إلي أقربهما

منك بابا. (1)

وحسن الجوار حفظ (2) الأسرار ونشر الآثار وتوقير الشيخ وتقريب الشّابّ وتنبية الغافل وتعظيم العاقل وزور (3) الأئب و تشييع الغائب ومراعاة الشاهد وتفقد الأحيّة ولزوم الجماعة والتّعزية عند المصيبة والتّهنئة عند النّعمة وعبادة المريض واتباع الجنائز والدّعاء للميت و الثّناء علي الحيّ و ملاطفة الصّبيان و محافظة النّسوان.

و من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر الجيران: اللهم تولّني في جيرانني بإقامة

سنتك و الأخذ بمحاسن أدبك في إرفاق ضعيفهم و سدّ خلّتهم و تعهد قادمهم و مناصحة مستشيرهم و هداية مسترشدهم و كتمان أسرارهم و ستر عوراتهم و حسن مواساتهم بالماعون و العود عليهم بالجدّة، و الإفضال عليهم بالتّوال و إعطاء ما يجب لهم قبل السّؤال. أغضّ طرفي منهم عفة، و ألين جانبي لهم تواضعا، و أرقّ علي أهل البلاء منهم رحمة، و أسرّ لهم بالغيب مودة، و أحبّ بقاء النّعمة عندهم نصحا، و أوجب لهم ما أوجب لحامتي و أرعي لهم ما رعيت لخاصّتي.

اللّهم و ارزقني مثل ذلك منهم، و اجعل لي أفضل الحظوظ فيما عندهم حتّي يسعدوا بي و أسعد بهم يا إله العالمين. (4)

ص: 19

1- جامع الأصول 6/640 نقلاً عن صحيح البخاري 10/374 و سنن أبي داود رقم 5155.

2- في الاصل: «و حفظ» و ظاهر أنّ الواو زائدة

3- الزور: الزيارة.

4- هذا الدّعاء هو الدّعاء 26 من الصّحيفة السّجّادية مع تفاوت بالتّقص و الزّيادة فراجع. ولم يورد في كتاب الدّعاء في نهج السّعادة للشيخ المحمودي.

قال الحافظ:

الأخوة علي أربعة أوجه:

أخوة الدين؛ وهي أوكدها وأشرفها، قال الله تعالى: «أما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله» في ترك حقوق الإخوان - «لعلكم ترحمون». (1)

وقال الصادق عليه السلام: المؤمن أخ المؤمن لأب وأم، أبوه نور وأمّه رحمة. (2)

[ثم] أخوة النسب؛ وهي ثلاثة أوجه: أخوة من قبل الأب دون الأم، وأخوة من قبل الأم دون الأب، وأخوة لأب وأم، قال الله تعالى في ذكر المواريث: «إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها» إن كان أخوها لأب، أو لأب وأم «إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان ممّا ترك وإن كانوا إخوة» لأب وأم، أو لأب «رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم» أمر المواريث «أن تضلّوا» (3) كي لا تتحيروا في القسمة ولا تعدلوا عن الصواب.

وقال: «وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت» من الأمّ دون الأب (فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) (4) لا يزداد علي

ص: 20

1- الحجرات: 10.

2- في نور الثقلين 5/88 عن بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام في ذيل حديث: فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمّه، أبوه التور وأمّه الرحمة، وإتما ينظر بذلك التور.

3- النساء: 176.

4- النساء: 12.

الثَّلاث و لا ينقص من السُّدس .

ثمَّ أُخُوَّة الرِّضَاع؛ و هي مثل النسب في الحرمة إلَّا في الموارِيث.

فقد صحَّت الرواية عن رسول الله صلي الله عليه و آله أنه قال: يحرم من الرضاع ما يحرم من النَّسب. (1)

و علي هذا إجماع الأمة العادلة.

ثمَّ أُخُوَّة المُواخَاة مثل ما و اخي رسول الله صلي الله عليه و آله بين أبي بكر و عمر، و عثمان بن عفَّان و عبد الرَّحمن بن عوف، و طلحة و الزُّبير، و و اخي سيِّد الأوصياء مع نفسه إذ لم يكن له كفو في الصَّحابة و لا نظير [له] في العترة الطَّاهرة، أظهر بها شرفه قبل أن أبان له الولاية و عقد البيعة، و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا عبد الله و أخو رسوله، و أنا الصِّديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلَّا كاذب مفتر. (2)

و أُخُوَّة المُواخَاة أوكد من أُخُوَّة الأنساب؛ لأنَّ في الأنساب شبهها لا يعلمها إلَّا الله

و أهل الأنساب.... (3)

فلو لم يتحقَّق عنده بالوحي المنزل و الامتحان الصَّادق نزاهة الوصيِّ عن عيوب البشر، لما قدَّمه علي النَّجوم الرُّواهر و الكواكب المسعوده من أهل الهجرة و النَّصرة بمُواخاته.

و ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في أصحاب صفَّين: إخواننا بغوا علينا (4) أراد به أُخُوَّة النَّسبة التي كانت بينه و بين قريش و سائر العرب من قبل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، و الكفر لا يزيل النسب فكيف البغي. و ما جري بين سيِّد الأوصياء

ص: 21

1- الكافي 5/437 عن الصَّادق عليه السلام و أيضا 5/446 عن رسول الله صلي الله عليه و آله و الجامع الصَّغير 2/369 نقلاً عن مسند أحمد و سنن النَّسائي و أبي داود و ابن ماجة و صحيح مسلم و البخاري.

2- نقله البحراني في غاية المرام 647 عن الكشف و البيان للثعلبي.

3- هنا سقط من الأصل سطران.

4- رواه الحميري في قرب الإسناد و العياشي في تفسيره و الطبرسي في الاحتجاج. راجع البحار 32/324 و 344 و 345. وللشيخ المفيد كلام في هذا الخبر؛ انظر الرسالة الكافية.

و أهل البغي من قريش لم يكن بأعظم ممّا كان بين هود و عاد، و صالح و ثمود، و شعيب و مدين. قال الله تعالى: «وإلي عاد أخاهم هود(1)» «وإلي ثمود أخاهم

صالحا». (2) «وإلي مدين أخاهم شعيبا» (3)

فكفر هؤلاء الماضين بالمرسلين لم يبطل نسبتهم مع المرسلين، كذلك بغي الأمويين و ظلم الهاشميين لا يبطل أخوة النسب بينهم و بين الأئمة الطاهرين عليهم سلام رب العالمين.

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: يكون في آخر الزمان أقوام إخوان العلانية أعداء السريرة. قيل: يا رسول الله و لم ذلك؟ قال: لرغبة بعضهم إلي بعض و رهبة بعضهم من بعض (4)

وإن الرحمة الغريزية تتحرك عند ذكر الأُخوة؛ يدلّ عليه قول يوسف لابن يامين عليهما السلام «إني أنا أخوك فلا- تبتئس بما كانوا يعملون.» (5)

و للأخوة من الطرفين حقّ ليس لها من الطرف المفرد؛ يدلّ عليه قول الله تعالى حيث قال: «و لَمَّا دخلوا علي يوسف آوي إليه أخاه». (6)

و قول يوسف: «أنا يوسف و هذا أخي قد منّ الله علينا» (7) بالجمع بيننا بعد الغيبة الطويلة.

و علي المؤمن أن يعامل أخاه في الدّين و النّسب معاملة الصّدّيق مع إخوته حيث تمكّن منهم و اعترفوا له بالفضل؛ قال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو

ص: 22

1- الأعراف: 65.

2- الأعراف: 73 و هود: 61.

3- الأعراف: 85 و هود: 84 و العنكبوت: 36.

4- راجع مسند أحمد 5/235.

5- يوسف: 69.

6- يوسف: 69.

7- يوسف: 90.

ثم أمرهم بإحضار أهاليهم حتى يشركوه في الملك لعظيم و المجد الرفيع، فلما عادوا أدخلهم مصره آمنين و أنزلهم مكرمين و أنسهم بنفسه مقرّبين، فلما ذكر ممة ربه لم يذكر الحب الذي ألقوه فيه إزالة للوحشة و تعظيما للمنة (2) و قال: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن و جاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان» (3) يعني أفسد الشيطان «بيني و بين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم.» (4)

و خبرت أن زيد بن موسي عليه السلام (5) بعد ما فعل؛ بأهل البصرة ما فعل حضر باب المأمون [فقام المأمون] من مجلسه توقيرا لزيد، و سلم زيد علي الرضا عليه السلام و مدّ يده إليه ليصافحه، فلم يردّ عليه السلام ولم يمدّ إليه يده، فقال: لا تردّ سلامي و أنا أخوك من أهلك؟! فقال: أنت أخي ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا إخاء بيني و بينك. لعلك

غرك سفلة أهل الكوفة حيث رووا عن رسول الله صلي الله عليه و آله: أن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها علي النار. هذا للحسن و الحسين و لمن عمل بمثل أعمالهما. (6)

و قرأت في المفتخر (7) تصنيف أبي محمد الحسن بن حمزة العلوي رضي الله عنه (8) روي عن رجاله، عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: إذا ولد جعفر بن محمد فسّموه الصادق لأنه يولد منه

ص: 23

1- يوسف: 92.

2- في الأصل: «للنقمة» و التصحيح من عندنا.

3- يوسف: 100.

4- ملخصه في المناقب لابن شهر آشوب 4/361 كما في البحار 49/221 و أيضا ذيله و مثله في البحار ج 43 و 46 و 49 و 75 و 93 و الخبر بكامله في مقاتل الطالبين للأصفهاني و كتاب المجلس الصالح الكافي للجريري.

5- هو زيد المعروف بزيد النار.

6- روي ملخصه في المناقب 4/361 كما في البحار 49/221 و روي ذيله و مثله في البحار ج 43 و 46 و 49 و 75 و 93 فراجع.

7- ذكره النجاشي في الرجال 64.

8- مات سنة 358. راجع رجال النجاشي: 64.

ولد يقال له: جعفر الكذاب، ويل له من جرأته علي الله وبغيه علي [ابن] أخيه صاحب الحقّ إمام زمانه ومهديّ أهل بيته. (1)

فأخوة النسب لا تنفع إلاّ مع أخوة الدين، وأخوة الدين تنفع بغير النسب، وعليه أئمة الهدى من آل المصطفى عليهم السلام.

ذكر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: والله ما بيننا وبين الله قرابة، ولا لله مع أحد هوادة، من أطاع الله فهو لنا وليّ ومن عصي الله فهو لنا عدوّ، والله ما يتقرّب إلي الله إلاّ بالطاعة. (2)

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: رَحِمَ اللهُ أَخِي لوطاً؛ كان يأوي إلي ركنٍ شديد. (3)

وقال: رحم الله أخي يوسف لو دعيت إلي ما دعي إليه لأجبت الداعي. (4)

وقال: لا تفضّلوني علي أخي يونس بن مَتَّى. (5)

وسمّي جميع المرسلين إخوانه حيث قالوا له: لو تبّلغت من الدّنيا بقدر ما يكفّ عنك الجوع. فقال: إنّ إخواني من أوليالعزم صبروا علي ما هو أشدّ من ذلك حتّي قدموا علي ربّهم فأكرم مشواهم. (6)

ص: 24

1- توجد مثله في الخرائج للزّاوندي ص 195 كما في البحار ج 47 ص 9. ولا يوجد كتاب المفتخر في المكتبات.

2- مثله في الكافي 2/74 و 75. [وانظر مشكاة الأنوار للطبرسي 121 ونهج البلاغة 1/396 كوالبحار 14/466 وفيهما: «و ما بين الله و بين أحد من خلقه هوادة» والهوادة: الرخصة والميل واللين].

3- تفسير جامع البيان للطّبري 12/53.

4- راجع جامع البيان 12/139 وفيه: لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثمّ جاءني الدّاعي لأجبتّه إذ جاءه الرّسول فقال: ارجع إلي ربّك... أقول: لوصحّ هذا الحديث وأمثاله لدلّ علي حسن تواضع نبيّنا و ثنائه علي يوسف.

5- وذيله كما في الكتب: بأن كان عروجه من بطن الحوت وعروجي كان في السّماء علي العرش. أقول: صحّة هذا الخبر غير أيضا معلومة.

6- إحياء العلوم 3/347 مع تفاوت يسير.

فأسس إلقاء بالنصح وأثن عليه بالشَّفقة وأمرها بالحفاظ، فإنَّ حقَّ الأخوةِ الدِّينيةِ إظهار المحاسن وستر القبايح وترك الحقد عند الأذى وإظهار العذر عند العطاء. وحقُّ أخوةِ النَّسب حفظ شرائط الشَّرْع معه ورفع أسباب الحشمة عنه وبذل آثار الفضل له وإظهار معاني الشَّفقة عليه.

وقيل: إذا صحَّ الإخاء سقط التَّجَمُّل.

وقيل: الإخاء بلا نصيح كالطَّعام بلا ملح.

وذكر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: السُّرور سبعة: سرور ساعة، و سرور يوم، و سرور جمعة، و سرور شهر، و سرور سنة، و سرور دهر، و سرور الابد. (1) أمَّا سرور ساعة

فالجماع، وأمَّا سرور يوم فدخل الحَمَّام، وأمَّا سرور الجمعة فلبس الغسيل، وأمَّا سرور الشَّهر فالغربة، وأمَّا سرور السنة فالترؤج، وأمَّا سرور الدَّهر فلقاء الإخوان،

وأمَّا سرور الأبد فنعيم الجنَّة.

قال الله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلِيٍّ سِرْرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يُمَسِّهِمْ فِيهَا نَصَبٌ وَهُوَ تَعْبُ الْمَعِيشَةِ وَفِرَاقُ الْأَحِبَّةِ وَزَوَالُ النِّعْمَةِ» (و ما هم منها بمخرجين). (2)

ومدح الله المستغفرين لإخوانهم الماضين السابقين إلي الدين؛ فقال مثنيا عليهم وهم الأنصار: «والَّذين جاؤو من بعدهم يقولون ربِّنا اغفر لنا ولإخواننا الَّذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للَّذين آمنوا ربِّنا إنَّك رؤوف رحيم». (3)

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: الأنصار أحبَّائي، وفي الدين إخواني، و علي الأعداء أعواني. (4)

ص: 25

1- في الأصل: لا يبيد، والمثبت أظهر.

2- الحجر: 45.

3- الحشر: 10.

4- راجع كنز العمال: 14/12 ح 33746، ميزان الاعتدال 480/1، لسان الميزان 189/2.

وكان سلمان رضي الله عنه إذا نظر إلي أصحابه قال: أنتم الإخوان في الدين، والجيران في الدار، والأنصار علي الأعداء.

فاحفظ الأخوة، ولا تقسدها بذكر المنن وتضييع الحقوق ونسيان الأيادي وهدم الصنيعة؛ ينفعك الأخ المؤمن في الدنيا ويشفع لك في القيامة ويرافقك في الجنة، وقر من إخوانك من يرشدك في الدين ويدلك علي الخير ويخبرك بعثرتك ويعينك علي إصلاح أمورك و يشركك في المكاره ويسد خللك ويراعي أحوالك ولا ينسك في المهمات ولا يخذلك في الثنابات، و اغتم صحبتته وأنخ رحلك عنده و لا تعدل عن رأيه و لا تستبدل به، فإنه أخوك في الدنيا و شفيحك في العقبى و أنيسك في دار البقاء مع النبي المصطفى و الوصي المرتضي و أئمة الهدى عليهم سلام الملك الأعلي.

ص: 26

قال الحافظ:

التصوّف إطاعة المحبوب واجتناب المكروه وتعظيم الأمر وسخاوة النفس وسلامة الصّدر والشفقة علي الخلق وترك الإنكار ومعرفة الأصول وحسن القبول واتباع الرّسول ورؤية المنن وشكر النعم ورفض الدّعوي ونسيان الدّنيا. وأصله الفناء عن الخلق والبقاء مع الحقّ.

وسئل الشّبلي (1) عن التصوّف، قال: ترويح القلوب بمراوح الصّفا، وتجليل (2) الخواطر بأردية الوفاء، والتخلّق بالسّخاء، والبشر في اللقاء، ثمّ أنشأ يقول:

القرب منك تباعد

والبعد قربي نحوكا

أنت الذي أفينيتني

قلبي فصرت به لكا

وقال جنيد بن محمّد (3): حقيقة التصوّف أن لاتنظر إلي أحد بعين الإنكار، فإنّ الإنكار ثمرة الدّعوي وهو الوحشة عن الحقّ.

وعن أبي موسى الدّنبلي (4) قال: سألت أبا يزيد طيفور بن عيسي البسطامي (5) عن

التصوّف ماهو؟ فقال: يا أبا موسى، تريد الجواب بلسان الشّرع أم بلسان الحقيقة أم

ص: 27

1- كان شيخ الصوفية وقته وهو مالكي المذهب، عاش سبعا وثمانين سنة و مات سنة 334 وقبره ببغداد.

2- جلّله: غطّاه.

3- سيّد هذه الطائفة، وهو فقيه، شافعي مات سنة 297.

4- أو الدّيبلي أو الدّيبلي، راجع الرّسالة القشيريّة ص 262 واللباب لابن الأثير؛ في حرف الدّال.

5- كان قطب الصوفية في زمانه، مات 261 أو 234.

بلسان الحقّ؟ قلت: عن الثلاثة سألت.

قال: أمّا بلسان الشّرع، فتصفية القلوب عن الأكدار، واستعمال الخلق الحسن مع الخليقة، واتباع الرسول في الشريعة.

وأمّا بلسان الحقيقة فعدم الحدّاث(1) والخروج من أحكام الصفات، والاكتفاء بخالق السّماوات.

وأمّا بلسان الحقّ؛ فالأصل أنّ الحقّ اصطفاهم بصفاته عن صفاتهم وصفاهم، فسمّوا صوفيّة.

و سئل بعضهم(2) عن التّصوّف فقال: تصفية القلب عن موافقة البريّة، و مفارقة الأخلاق الطّبيعيّة، وإخماد الصفات البشريّة، و مجانبة الدّعاوي التّفسائيّة، و مناولة

الصفّات الرّوحانيّة، والتعلّق بالعلوم الحقيقيّة، و استعمال ما هو أولي علي السّرمديّة،

والنّصح للأمة الحنيفيّة والوفاء بالعهود واتباع الرّسول في الرّكوع والسّجود.

و سئل بعضهم عن الصّوفيّ،: من لا ينقض الله عهدا ولا يخلف له و عدا، سكوته فكرة و نظره اعتبار، و التّصوّف ترك التكلّف.

و سئل آخر متي يكون الرّجل صوفيّا؟: إذا لبس الصّوف علي الصّفاء، و أذاق نفسه طعم الجفاء، و تمسّك بحبل الوفاء، و جعل الدّنيا خلف القفّاء، و سلك طريق المصطفي عليه السلام.

و روي الصّفّار عن سعيد بن عطاء الشّيباني عن أبي العباس بن عطاء(3) أنّه قال: مذهب التّصوّف مبني علي عشر دعائم؛ و هي السّخا والرّضا والخوف والصّبر والإشارة والغربة والرّياضة والسّياحة والفقر والشّجاعة. و لهم في كلّ واحدة في هذه

الخصال العشر إمام؛ فالسّخا لإبراهيم عليه السلام، والرّضا لإسماعيل، والخوف لداود،

ص: 28

1- كذا في الأصل.

2- راجع العوارف للسّهروردي المطبوع بهامش إحياء العلوم 1/328.

3- هو أحمد بن محمّد بن سهل بن عطاء من كبار مشايخ الصّوفيّة مات سنة 309.

والصبر لأثوب، والإشارة(1) لذكرتيا، والغربة والوحدة ليحيي، ورياضة النفس ولبس الصوف وغيره لموسي، والسّياحة لعيسي، فإنّه لم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب، والفقير لمحمّد صلي الله عليه وآله فإنّه اختار ذلك بعد أن عرضت عليه خزائن الأرض، والشّجاعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام.

و عن جنيد قال: اصلنا اصلنا(2)... ثلاثة: لا تأكل إلا عن فاقة(3)، ولا تتكلم إلا عن ضرورة، ولا تنام إلا عن علة.

والتصوّف عندي - والله أعلم - يرجع إلي سبعة معان:

وصفاء الأشباح عن كدورة الشهوات.

وصفاء الأرواح عن موافقة الهوي.

وصفاء القلوب عن الخواطر الرديّة.

وصفاء الألسن عن الدعاوي الكاذبة.

وصفاء الأعمال عن آفة العجب والكبر والرّياء.

وصفاء الأحوال عن التّظنر إلي الخلق.

وصفاء الآمال عن التعلّق بالأسباب.

فمتي ماصفا العبد بالكلية عن الكلّ،

و لبس الصّوف علي صفاء الهمة دون التصنّع للبريّة،

و اغتذي بلطائف الحكمة،

و شرب بكأس المحبّة خمر المودّة،

و قطع مفاوز الصّبر،

و رتع في رياض المنّة،

ص: 29

1- كذا. وفي القرآن: فأوحى - أي زكريّا إليهم... أي أشار إليهم.

2- كذا. ولعلّ الصحيح: أصلنا أصلنا علي ثلاثة.

3- الفاقة: الحاجة.

و أبصر حقائق البرّ،

و نطق بلسان الحقّ، - وهذا منزل الشيخ الحسين بن منصور (1) و أهل التّصوّف

الحقيقيّة لارسميّة) - كان صوفيّاً علي الحقيقة مقتدياً بالأئمّة، متمسّكاً بالشّريعة.

و من خالف هذا الوصف، بقي في ظلمة الدّعوي و كدورة الأحوال، و غرق في بحر الأمانى، و تاه في أودية الشّبّهات، قد تمكّن منه وساوس الشّيطان، ليس معه نور العلم فيستضيء به، ولا سراج المعرفة فيهتدي أمامه. تراه مجرّداً في الدّعوي، عارياً عن المعنى، بعيداً عن الحقّ، متصنّعاً للخلق، همّته بطنه و فرجه.

فنعوذ بالله من أحوال ليس لها حقيقة، و أعمال ليس فيها إخلاص، و آثار ليس معها بصائر. و نسأله التّظّر فيما هو أولي بنا و أعوذ علينا، و أهدي لنا إلي السّبيل

الأقوم والطّريق الأعظم، و إنّه الهادي لمن استهداه، والكافي لمن توكّل عليه و ناجاه، والمجيب لمن أناب إليه و دعاه، وهو وليّ العبد و مولاه.

ص: 30

1- هو الحلاج، المقتول سنة 309.

ذكر معاملات فاضلة تجري بين العباد لابد من حفظها و الوقوف عليها

[قال الحافظ:]

... (1) والحلم والحياء والوفاء والحرية والسياسة والرئاسة والسؤدد.

قال الحافظ: أما الألفة؛ فهي نتيجة التأليف، والتأليف علي وجوه:

منها تأليف الأجسام، وهي جمع الأجزاء المتشعبة من الكائنات واللطائف

ومنها تأليف الأعراض، مثل ضم الكلام بعضه إلي بعض.

ومنها تأليف القلوب في المحبة والعقائد

و ثمرة الألفة: اتفاق القلوب واجتماع الأبدان ومطابقة الألسن والمشاركة في الشدة والمساعدة في النعمة وترك الأحقاد القديمة والضغائن المكنونة

ولا يظهر الألفة إلا بعد ملاقة الأرواح قبل الأشباح؛ يدل عليه قول المصطفى صلي الله عليه وآله قال: كانت الأرواح جنودا مجتدة؛ فما تعارف هنا ائتلف، وما تناكر هنا اختلف. (2)

وأما القرابة؛ فهي المودة الصادقة والنسبة السابقة، ولا تصلح القرابة إلا بحسن العشرة ولزوم الحرمة وأداء الحقوق، والقرابة تحتاج إلي المودة، والمودة تستغني

ص: 31

1- هنا سقط من الأصل بقدر سطر كما هو ظاهر مما يأتي.

2- راجع البحار ج 58 باب خلق الأرواح قبل الأجساد، وفيه روايات كثيرة منها ما رواه الصدوق رحمه الله في العلل: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الأرواح جنود مجتدة؛ فما تعارف منها في الميثاق ائتلف ها هنا، وما تناكر منها في الميثاق اختلف ها هنا، الخ.

عنها.

وذكر عن زين العابدين عليه السلام قال: معرفة ساعة موّدة، و ثلاثة أيّام قرابة.

وأشرف القربات من أوجب الله موّدتها وفرض محبّتها، وتدلّ علي طيب الولادة وإخلاص التّوحيد، وهي قرابة الرّسول صلي الله عليه وآله. قال الله تعالى: «قل لا أسألكم

عليه أجرا إلاّ المودّة في القربي» (1) وإذا قامت القيامة بطلت الأنساب وزالت الأحساب وتقطّعت الأسباب إلاّ نسب سيّد الأنبياء صلوات الله عليه وآله ونسب... (2) وأمّا الرّئاسة... المستحقّ اسم الرّئاسة، والكياني كتسليط الذكران علي الأناث، والاعتيادي كتسليط العلماء علي أتباعهم، والجنسي (3) كتمليك الملوك غيرهم، والقسريّ كتسليط الدُّعّار (4) واللصوص علي من يظفر بهم.

وأما السّياسة؛ فهي النّظر في الدّقائق ومعرفة الحقائق، وهيبة الخاصّة مع صدق المحبّة، واقتياد قلوب العامّة مع إظهار الشّفقة والعدل في الرّعيّة والقسمة بالسّويّة،

وإكرام الأعداء وترك التّغافل مع بذل الفضل، وتقريب أهل الحقّ وتبعاد أهل الباطل وسوء الظنّ بالمتّهم والوقف عند الشّبهة.

وأصل السّياسة حفظ المملكة والرّعاية لأسبابها بحسن التّقدير و لطف التّدبير.

وهي عند الفلاسفة ثلاثة أقسام: مملكيّة وعاميّة وإهيّة.

أمّا المملكيّة؛ فهي التي يحفظ فيها صورة العدل علي ما شرّعته السّياسة الإلهيّة وتتقبّل في جميع أفعالها وأحوالها ما أتت به تلك الشّريعة.

وأمّا العاميّة؛ فهي التي بها يحفظ المعاملات والمشاركات والمعاشرات بين الكلّ

ص: 32

1- الشوري: 23.

2- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

3- كذا. ولعلّ الصّحيح: الحسيني.

4- الدّاعر: الخبيث المفس.

[وَأَمَّا الْإِلَهِيَّةُ] فهي التي تحفظ صورة العدل و صورة شكر المنعم في جميع أجزاء العالم في سائر الأوقات و في جميع أحوالهم و حركاتهم و متصرفاتهم.

وَأَمَّا السُّودْدُ؛ فهو العصمة من الذنوب، و الطَّهارة من العيوب، و شرف النسبة و كمال الخلقة، و صيانة العرض و عفاف الطَّعم (1)، و سدَّ الخلل و التَّجاوز عن الزَّلل، و علوُّ الهمة و حسن التِّيَّة، و النَّظر في العواقب و الصَّبْر علي النوائب أداء المفروضات و حفظ الواجبات، و سخاوة النَّفس و شجاعة القلب، و كظم [الغِظ] و كفَّ الأذي و بذل التَّدي، و العدل في الأحكام و الرأْي عند التَّجارب، و السَّبق إلي المكرمات و الرَّغبة في الخيرات، و حسن الإشارة و لطف العبارة، و شرح المعضلات و إيضاح المشكلات و كشف الشَّبهات.

و من أراد شرائط السُّودد فليتأمل آثار الأنبياء و سِير الأوصياء، فإنَّهم السَّادة الكرام

عليهم أفضل التَّحيَّة و السلام.

قال الله يصف العبد المعصوم يحيي عليه السلام: «و سَيِّدا و حصورا و نبيا من الصالحين». (2)

وصحَّت الرواية عن رسول الله صلي الله عليه و آله أنَّه قال: أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة و لافخر، و أنا أوَّل من تنشق عنه الأرض، و أوَّل شافع و أوَّل مشفَّع. (3)

و قال صلي الله عليه و آله: الحسن و الحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة، و أبوهما خير منهما. (4)

فأهل الجنَّة سادة لأنَّهم المؤمنون، و الحسن و الحسين سيِّدا السَّادات، و الوصيَّ سيِّدهما و أفضل منهما، فهو في الدَّرجة البالغة من السُّودد.

وفيما أوحى الله إلي داود: يا داود، أنا الله لا إله إلا أنا، و محمَّد رسولي إلي العرب

ص: 33

1- كذا.

2- آل عمران: 29.

3- رواه الشَّيخ الطُّوسي في أماليه: 170، و عنه البحار 16/326. وانظر الأمالي للصدوق 254، مسند أحمد 1/284، سنن الترمذي 4/370.

4- رواه الحميري في قرب الإسناد: 53، و عنه البحار 39/91.

فيقهر العجم ويفتح مشارق الأرض [و(1)] مغاربها. هو آخر الأنبياء وسيدهم، وأفضل الخلق وأكرمهم عليّ. فطوبى لمن آمن به، و طوبى لمن أتبعه، و طوبى لمن هاجر معه، و طوبى لمن اقتدي به.

فرسول الله صلي الله عليه وآله سيد الأنبياء، و وصيه سيد الأوصياء، و ابنته سيّدة النساء، و سبطاه سيّدا شباب أهل الجنان و عترته سادات الأئمة، و أمته سادة الأمم.

له النبوة و الرسالة و الإمامة و الخلافة و السيادة و الشّهادة، و لوصيه الوصاية و التقابله و الإمارة و الإمامة و الخلافة و السياسة و الحكومة و القضية. (2) و هو الظلّ

الممدود و السبب المقصود، و الباب و الحجاب و عنده علم الكتاب و فصل الخطاب. له فصاحة اللسان و حلاوة المنطق و سعة الصدر و نور السرّ و غزارة العلم و فضيلة الحلم و قوّة الحفظ و نفاذ (3) الفهم و صفاء الذّهن و كمال العقل و ردّ الجهل، و رؤية (4) العواقب و الصّبر علي التّوابع و نصرة المصطفى و الزّهد في الدّنيا و الرّغبة في العقبي و الأّنس بالمولي و صدق الدّعوي و حصول المعني و هو المرتضي، في الآخرة و الأوّلي عند النّبّي المصطفى و أئمة الهدى عليه و ذريّته صلوات الملك الأعلي.

ص: 34

1- في الأصل: إلي.

2- أي القضاء.

3- في الأصل: نفاذ.

4- رؤية.

ذکر الحسب و النسب

قال الحافظ:

النسبة علي وجوه:

نسبة الأصول كالعناصر الأربعة وهي الحرارة و البرودة و الرطوبة و اليبوسة،

و نسبة الولادة كقولهم: ابن فلان و فلانة،

و نسبة التربية كقولهم: ربيب فلان و فلانة،

و نسبة التعليم و التأديب كقولهم: تلميذ فلان و خريجه،

و نسبة الزمان كقولهم: ولد في سنة كذا في شهر كذا في يوم كذا في ساعة كذا،

و نسبة المكان كقولهم: عراقي أو حجازي أو شامي أو مغربي أو يمني أو شباهاها،

و نسبة البلاد كقولهم: بصري و كوفي و مكّي و مدني و أشكالها،

و نسبة الأفعال كقولهم: ضرب فلان أو نقشه أو بناه أو غرسه،

و نسبة العمر كقولهم: ابن عشرين و ابن ثلاثين و ابن أربعين و نحوها،

و نسبة الشرف كقولهم: عربي أو قرشي أو هاشمي أو علوي و أمثالها،

و نسبة الملك كقولهم: ملك فلان أو عبده أو داره و نظيرها،

و نسبة قرابة كقولهم: أخو فلان أو أخته أو عمه أو خاله،

و نسبة نكاح كقولهم: امرأة فلان أو عياله و أهله،

و نسبة أحوال كقولهم: صحّة فلان أو سقمه و فقره أو غناه.

ص: 35

و علي هذا ينصرف (1) وجوه الانساب.

و التّسبة و الإضافة قريبتان في المعني؛ لأنّ النسبة إضافة الشّيء إلي الشّيء، و الإضافة في اللغة: الإمالة، و منه الصّيف لميله إلي من يختصّ به قرابة أو مودّة أو

معرفة.

و ذكروا أنّ رجلاً من أصحاب الشّافعيّ رحمة الله عليه (2) دخل علي الشّرخ

أيالحسن الكرخي (3) رحمه الله، فقال: أتيتك بمعضلة فاثبت لها قال: و ما هي؟ قال: قول رسول الله صلي الله عليه وآله: من باع عبدا وله مال؛ فماله للبائع إلا أن يشترط المبتاع. (4) فقد أثبت النبيّ صلي الله عليه وآله المال لِعَبْد!

فقال الشّرخ: أقول فيها قولاً مقنعاً عند ذوي التّحصيل و التّمييز: إنّ الإضافات تنحو أربعة أنحاء و تشعب أربع شعب:

منها إضافة الشّيء إلي نفسه كقولك: نفس اليمين و عين اليقين.

و منها إضافة البعض إلي الكلّ كقولك: عرصة الدّار و رأس الجدار.

و منها إضافة علم و تشهير كقولك: ثمر التّحفة و لجام البغلة.

و منها إضافة تملك و تسليط كقولك: دار زيد و مال هند.

فلمّا جاز انتزاع المال من يد العبد من غير رضاه و بيعه من [غير] هواه (5) علم أنّه إضافة علم و تشهير لا إضافة تملك و تسليط.

فهذه وجوه الإضافات لا غير.

و أفضل الأنساب نسبة العرب لنزول أفضل الكتب بلغتهم و بعثة أفضل الرّسل

ص: 36

1- في الأصل: يتصرّف.

2- كذا.

3- عبيدالله بن الحسين الكرخي أبو الحسن، فقيه، انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق، مات سنة 340. انظر الأعلام للزركلي 4/193.

4- رواه الصّدوق في الفقيه 3/138 والشّرخ الطّوسي في أماليه 1/397. وراجع الوسائل 18/353.

5- في الأصل: هوي.

في جملتهم و وضع أفضل الشرائع بألفاظهم و كون أشرف القبائل (1) فيما بينهم، ثم نسبة قريش لأنها أصل (2) الهاشميين، وإليهم أشار الرسول بالإمامة بقوله عليه السلام: الأئمة من قريش ما بقي منهم اثنان، خيارهم تبع لخيارهم وفجارهم تبع لفجارهم (3)، ثم نسبة الهاشميين لقربها من سيد الأنبياء صلوات الله عليه و سيد الأوصياء سلام الله

عليه، ثم نسبة الرسول صلي الله عليه و آله (4)

ص: 37

1- فيالأصل: أشرف القبل.

2- في الأصل: أصول.

3- راجع غايه لمرام 191. وفي صحيح البخاري: قال رسول الله صلي الله عليه و آله: لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان. وفي صحيح مسلم: ما بقي من الناس اثنان. البحار 24/157 وفي بصائر الدرجات عن علي عليه السلام: الائمة من قريش، أبرارها، أئمة أبرارها وفجارها أئمة فجارها، الخ.

4- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

السَّخَاءُ عَلِيٌّ وَجَاهِلِيٌّ: ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ. أَمَّا الظَّاهِرُ، فَالْبَذْلُ وَالْإِعْطَاءُ، وَأَمَّا الْبَاطِنُ؛ فَطَيِّبَةُ النَّفْسِ عِنْدَ الْبَذْلِ وَسَعَةُ الصَّدْرِ مَعَ الْعَطَاءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَرْضُ سَخَاءٍ (1): إِذَا كَانَتْ لَيْتِنَةً طَيِّبَةً. وَقَوْلُهُمْ: سَخَوْتُ نَفْسِي وَسَخَيْتُ بِنَفْسِي، أَيِ طَيَّبْتُهَا.

وَضَدُّهُ الْبَخْلُ، وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ مَنَعَ الشَّيْءِ عَنِ الْمَسْتَحَقِّ، وَشَكَلَهُ التَّبَذِيرُ وَهُوَ الْبَذْلُ لِغَيْرِ الْمَسْتَحَقِّ، وَفِي الْبَاطِنِ ضَيْقُ الْقَلْبِ عِنْدَ الْبَذْلِ وَكَرَهُ النَّفْسُ مَعَ الْإِعْطَاءِ.

وَشَكْلُ السَّخَاءِ الْجُودُ، وَهُوَ الْإِفْضَالُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ عَلَيَّ الْمَسْتَحَقِّ وَغَيْرِ الْمَسْتَحَقِّ، وَهُوَ غَايَةُ السَّخَاءِ، وَضَدُّهُ الشُّحُّ وَهُوَ الْكَرْهُ عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنَعُ عَنْهُ، وَهُوَ أَشَدُّ الْبَخْلِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَشْحَى عَلَيْكُمْ» (2) يَعْنِي أَشَدَّةً.

وَالسَّخِيُّ الَّذِي يُعْطِي، وَالْبَخِيلُ الَّذِي يَمْنَعُ، وَالْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِي وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَالشَّحِيحُ الَّذِي يَمْسُكُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ وَاللَّهُ تَعَالَى مُوصُوفٌ بِالْجُودِ وَمَعْرُوفٌ بِالْكَرَمِ، وَفِي أَسْمَائِهِ الْجَوَادُ، وَهُوَ الَّذِي أُعْطِيَ الْبِرَّ وَالْفَاجِرُ وَأَمْرُ بِهِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْوَاسِعُ، وَهُوَ الْغَنِيُّ وَسَعَتُهُ جُودُهُ وَجُودُهُ مِنْ غِنَاهُ.

وَبَلَّغْنَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَجُودِي وَكَرَمِي وَارْتِفَاعِي فَوْقَ خَلْقِي، لِأَقْطَعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤْمَلِّ غَيْرِي بِالْأَيَّاسِ وَلَأَكْسُوَنَّهُ ثُوبَ الْمَذَلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ

1- ولعلَّ الصحيح: سخواء. كما في بعض كتب اللغة.

2- الأحزاب: 19.

و لَأَنْحِيَنَّهُ مِنْ قَرِيبِي وَ لِأَبْعَدَنَّهُ مِنْ وَصْلِي. (1) أَيْؤَمِّلُ فِي الشَّدَائِدِ غَيْرِي؟ وَ الشَّدَائِدُ بِيَدِي وَ أَنَا أَنْجِي، وَ يَرْجُو غَيْرِي وَ يَطُوفُ (2) بِالْفِكْرِ بَابِ غَيْرِي؟ وَ بِيَدِي مِفَاتِيحَ الْأَبْوَابِ وَ هِيَ مَغْلَقَةٌ وَ بَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي. مَنْ الَّذِي أَمْلَنِي لِنَوَائِبِهِ وَ قَطَعْتَ رَجَاءَهُ دُونِي؟ وَ مَنْ الَّذِي قَرَعَ بَابِي فَلَمْ أَفْتَحْ لَهُ؟ أَلَمْ يَعْلَمْ مِنْ طَرَقْتَهُ نَائِبَةٌ مِنْ نَوَائِبِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ كَشْفَهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِي؟ فَمَا لِي أَرَاهُ بِأَمَالِهِ مَعْرُضًا عَنِّي وَ مَا لِي أَرَاهُ

لَا هِيََا عَنِّي؟ أَجُودُ بِفَضْلِي عَلَيَّ مِنْ تَوَلَّيْتُ عَنِّي، فَكَيْفَ لَا أَجُودُ عَلَيَّ مِنْ تَوَلَّيْتُ؟ أَوْ لَيْسَتْ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ لِي؟ أَوْ لَيْسَتْ الرَّحْمَةُ وَ الْفَضْلُ بِيَدِي؟ أَوْ لَيْسَ الْجُودُ وَ الْكَرَمُ كُلُّهُ مِنِّي؟ لَوْ أُعْطِيتُ جَمِيعَ أَمَالِ أَهْلِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ مَا انْتَقَصَ مِنْ مَلِكِي ذَرَّةٌ وَ كَيْفَ يَنْقُصُ مَلِكٌ أَنَا خَازِنُهُ؟ فَيَا بؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي، وَ يَا سَوَاتًا لِمَنْ عَصَانِي وَ لَمْ يَرَاقِبْنِي وَ لَمْ يَسْأَلْنِي. (3)

وَ كَانَ ذُو النُّونِ بِنُ إِبرَاهِيمَ الْمِصْرِي (4) يَقُولُ: عَرَفَ الْمُطِيعُونَ عَظَمَتَكَ فَخَضَعُوا لَكَ، وَ سَمِعَ الْمَذْنُوبُونَ كَرَمَكَ فَطَمَعُوا فِيكَ، وَ رَأَى الْعَارِفُونَ بَرِّكَ [فَتَوَكَّلُوا] عَلَيْكَ. جُودُكَ بَسَطَ أَمْلِي، وَ لَكَرَمَكَ قَلَّ عَمَلِي، وَ ثَوَابُكَ أَمْلِي، فَلِكِ الْحَمْدُ يَا إِلَهِي.

وَ قَالَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ دَلَالَةً عَلَيَّ جُودِهِ وَ دَعْوَةً إِلَيَّ كَرَمِهِ: «وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ». (5)

وَ ذَمَّ الْبِخْلَاءَ، فَقَالَ: «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِخْلِ وَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. (6)

وَ قَالَ: «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا» عَنِ الْبَذْلِ وَ الْإِنْفَاقِ

ص: 39

1- فِي الْكَافِي: مِنْ فَضْلِي.

2- فِي الْكَافِي: يَقْرَعُ بِالْفِكْرِ.

3- الْكَافِي 2/66 مَعَ تَفَاوُتِ يَسِيرٍ.

4- تَوَفِّيَ سَنَةَ 245 وَاسْمُهُ ثَوْبَانُ، وَقِيلَ: الْفَيْضُ.

5- النِّسَاءُ: 32.

6- النِّسَاءُ: 37.

«يستبدل قوماً غيركم» أطوع منكم وأسخي نفساً «ثم لا يكونوا أمثالكم» في السخاء والبخل.

وقال الله يمدح أنصار المصطفى: «و يؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون». (1)

قيل: من أدّى الزكاة و قري الصّيف و أعطي في التّائبة، فقد وقى شح نفسه.

و دلّ عباده علي السّخاء بأحسن الدّلالات، فقال: «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» يعني صادقاً محتسباً مخلصاً «فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» و هي ما لا غاية له «و الله يقبض و يبسط» يعني يوسّع و يضيق «و إليه ترجعون». (2)

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: السخاء جمال المؤمن. (3)

و من استقصي في هذا الباب لم يزد علي سيّد الرّسل صلي الله عليه و آله في إبانته عن فضل السخاء و الكرم و ذمّ البخل و اللؤم؛ يقول: السّخيّ قريب من الله قريب من النّاس قريب من الجنّة بعيد من النّار، و البخيل بعيد من الله بعيد من النّاس بعيد من الجنّة

قريب من النّار. (4)

و استغرق تحت هذا الكلام ما قاله الفيلسوف في مدح السخاء حين سئل عنه، فقال: هو أفضل درجات القبول و أشرف المنازل في النّفس، و الدّعاء له مبذول في المحافل، و النّفوس له وامقة، و الألسن بحسن الذّكر له عامرة.

و من قول سيّد الأنبياء صلوات الله عليه و آله: طعام الشّحيح داء، و طعام السّخيّ دواء. (5)

و السّخاء علي وجوه:

ص: 40

1- الحشر: 9.

2- البقرة: 245.

3- في مستدرك الوسائل 258/15 نقلاً عن لبّ اللّباب للراوندي: السّخاء كمال المؤمن.

4- إحياء العلوم 3/240.

5- الجامع الصّغير 2/88 نقلاً عن الخطيب في كتاب البخلاء. إحياء العلوم 3/239 وفيه: طعام الجواد.

أفضلها سخاوة المؤمن بما وجب عليه من أداء فرائض الله وإقامة حدوده، وضدّها بخل الكافر بما يلزمه من الإيمان بالله و بما جاء من عنده.

ثمّ سخاوة الإمام العادل بتنفيذ أحكام الله في القريب و البعيد بلا ميل و لا محاباة، و ضدّها بخل الإمام الجائر بإقامة حدود الله و أخذ الرّشا و السّحت عليه،

و الحكم بغير ما أنزل الله طمعا في الدّنيا و إثارا لها علي العقبى.

ثمّ سخاوة العلماء بما علّمهم الله من أحكام الدّين و الشّريعة، و ضدّها بخلهم بما عندهم من العلوم و بيعها بالعاجل فعل اليهود فيما كتّموا من نعت المصطفى و صفاته.

وقد قيل: من بخل بعلمه ابتلي باحدي ثلاث: إمّا أن ينسيه، و إمّا أن يتّبع سلطانا جائرا، و إمّا أن يموت فلا ينتفع بعلمه.

ثمّ سخاوة الرّهّاد بما عندهم من الدّنيا و رفضها إلي أربابها، و ضدّها بخل الرّاغبين بأدني شيء من الدّنيا و الحرص عليها مع طلابها.

ثمّ سخاوة الأوصياء الصّدّيقين بقوتهم و قوت عيالهم فعل الوصي المرتضى و الزهراء و ابنيهما سبطي المصطفى عليهم السلام في إطعام المسكين و اليتيم و الأسير كلّ يوم صاعا من الشعير، و ضدّها بخل من ناصبهم بما منحهم الرّسول حتّي تأذي ذلك إلي و حشة (1) البتول صلوات الله عليها و علي أبيها و بعلمها و بنيتها.

ثمّ سخاوة الرّسل عليهم السلام بالأنفس الشريفة في بذل النصيحة للأولياء و الأعداء و تبليغ الرّسالة إلي الفقراء و الأغنياء، و الإفضال علي الأقرب و الأبعد في الشّدّة

و الرخاء.

و عن جابر قال: ما سئل رسول الله صلي الله عليه و آله شيئا قطّ فقال لا. (2)

و ضدّها بخل من تجبّر علي الحقّ و تكبّر علي الرّسل، و مال إلي الدنيا و اختار

ص: 41

1- كذا. و الظّاهر أنّها تصحيف كلمة أخرى.

2- إحياء العلوم 2/379.

المقام فيها، وأُخلد إلي شهواتها واتبَع الأهواء المرديّة من الملوك و المتنبّئين بإعطاء حقّ الرّسل و الانقياد لهم بعد الأدلّة الواضحة و تسليم الأمر إليهم بعد البراهين السّاطعة، قال الله تعالى: «و من أظلم ممّن افترى علي الله كذباً أو قال أوحى إليّ و لم يوح إليه شيءٌ» مثل مسيلمة لعنه الله «و من قال سأنزل مثل ما أنزل الله» (1) يعني [عبدالله] بن سعد بن أبي سرح عليه غضب الله. (2)

ثمّ سخاوة السّدّهاء بما استحفظوا من الكتاب و الأمانات من نُعوت المصطفى و أخباره، مثل ابن سلام و أصحابه، و ضدّها بخل من كتم التّعوت و حرّف الكلم و بدّل الأحكام أخذاً للعرض الأذني و تمّيّاً للمغفرة بعد نبذ الكتاب و نقض العهود، قال الله تعالى: «و من أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله». (3) و قال: «لا تكتموا الشهادة

و من يكتمها فأنّاه اثم قلبه و الله بما تعملون عليم». (4)

و قال عزّ ذكره: «إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات و الهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون إنّ الذين تابوا» يعني من الكتمان «و أصلحوا» يعني و أوضحو ما شبّهوا و أفسدوه بمزخرفات الأقاويل و تمويهات الأباطيل «و بيّنوا» يقول: و أظهرها المكتوم من نُعوت سيّد الأنبياء «فأولئك أتوب عليهم» يقول: أتجاوز عنهم ما كتموا إذا ما ندموا علي ما صنعوا «و أنا التّواب الرّحيم». (5)

و كمال السّخاء إيصال كلّ ذي حقّ إلي حقّه، فمن أتى بهذه الشّرائط فقد بلغ أعلي درجات الأسخياء، و من ضيّع مفروضاً عليه أو أهمل حقّاً يلزمه أو خفر أمانة في عنقه أو كتم علماً عنده استحقّق سائله الجواب عنه، فقد رضي بخسّة البخلاء

ص: 42

1- الأنعام: 93.

2- راجع جوامع الجامع 1/395.

3- البقرة: 140.

4- البقرة: 283.

5- البقرة: 159.

و خرج عن حكم الأولياء.

فهذه مراتب السخاء والجود ومنازل البخل والشح عليه، بيّنا ما يروي في هذا الباب عن الرسول صلي الله عليه وآله والأئمة سلام الله عليهم وعلماء الأمة وما نطق [به] الكتاب.

وسئل بعضهم عن الجود، قال: التبرّع بالمعروف والإعطاء قبل المسألة.

وذكر عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: إن لله وجوها في خلقه خلقها لقضاء حوائج عباده، يرون الجود مجدا والإفضال مغنما، والله يحب مكارم الأخلاق. (1)

وذكر عن العباس عبدالمطلب رضي الله عنه قال: أفضل المال ما أفاد ذخرا، وأورث ذكرا، وأوجب أجرا.

وفي الحديث: الجنة دار الأسخياء، والنار دار البخلاء. (2)

وقيل: أفضل البر أربعة: الحلم في الغضب، والجود في القلّة، والورع في الخلوة، واستقبال العدو في الهزيمة.

وأفضل أخلاق الأحرار: السخاء والحياء والصّفاء والوفاء.

والسخاء من أخلاق الخليل، واعتقاد (3) الدّيبح، وسيرة الصّدّيق، وشريعة الكلّيم، ومذهب المسيح، وسنة الحبيب صلوات الله عليهم أجمعين.

والسخاء من الكرم، والكرم من العقل، والعقل دليل الإيمان، والإيمان في الجنة، والبخل من اللؤم، واللؤم من الجهل، والجهل ركن الكفر، والكفر في النار.

وبالسخاء يكسب العبد جميل الذّكر وجزيل الدّخر ويبلغ أعلي الدّرجات وأفضل الكرامات، وهو في زمرة المقربين في مقام الأمن مع أشرف المتّقين والأوصياء الصّدّيقين والأنبياء المرسلين من الأوّلين والآخريين.

ص: 43

1- الأماي للطّوسي 1/308 مع تفاوت، فراجع البحار 68/391 و 71/286.

2- الجملة الأولى منه في الإحياء 3/240.

3- لعلّ الصّحيح: اعتياد.

قال الحافظ:

اتفق علماء الدين علي أن جِماع المروءة وكمال الفتوة في قول الله تعالى عزّ ذكره:

«إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذيقربى» و العدل هو الإنصاف، و الإحسان هو التفضّل، و إيتاء ذى القربى إعطاء القربى فى الدّين أو التّسب حقه، فهذا غاية المروءة «و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغى يعظكم لعلكم تذكرون»⁽¹⁾ و الانتهاء عن الفواحش الظاهرة و الباطنة، و هى ما قبح فى أول العقل من المحظورات و ما أنكره السّمع و ورد التّنهى عنه، و هو ما قبح فى العقل استدلالاً، و البغى و هو طلب ما ليس

لك من المنازل و المراتب و الخروج على أئمة العدل، و الاتّعاظ بمواعظ الله فهذه غاية الفتوة.

و المروءة اثنان: مروءة دين و مروءة دنيا.

أمّا الدّينيّة؛ فتقوى الله فى الظاهر و الباطن و الصّبر فى البلاء...

[و أمّا الدّنيويّة] فكفّ الأذى عن القربى و البعيد، و بذل الدّدى فى العسر و اليسر، و إنجاز الوعد للولىّ و العدو، و كتمان السّرّ للبرّ و الفاجر، و حسن المعاشرة

فى السّفرة و الحضر، و طلاقة الوجه فى الشّرف و الضّعة، و طيب الكلام فى الصّحّة و المرض، و الدّبّ عن الجار فى القرب و البعد، و مراعاة الصّديق فى السّرّ و الجهر.

وقيل: المروءة الحلم عند الغضب، و العفو عند القدرة.

ص: 44

وقيل: المروّة مروّتان: مروّة سفر، و مروّة حضر.

أما مروّة السّفْر؛ فبذل الرّاد وقلة الخلاف علي الأصحاب، وكثرة المزاح في غير سخط الرّب، ودوام الذّكر في كلّ مصعد و مهبط و قيام و قعود.

وأما مروّة الحضر؛ فالإدمان إلي المسجد، وقراءة القرآن، و محادثة الإخوان، و مجالسة العلماء، و التّظر في الفقه، و المحافظة علي الصّلاة في الجماعة.

و سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الفتوّة، فقال: الصفاء و السخاء و ترك الجفاء.(1)

و كمال الفتوّة صيانة العرض و موافقة الحقّ و مخالفة الباطل، و الوفاء بالعهد و العفو عند القدرة، و الشّجاعة عند الحرب، و حفظ اللسان و غضّ البصر، و السّخاوة في بذل المال، و صدق المعاملة مع الله، و صفاء الهمة و احتمال المكاره

مع اعتقاد المنة، و صحبة الأبرار و مفارقة الفجّار، و مجالسة العلماء و منادمة الأدباء... .

[و] قوام الفتوّة بهذه الخصال الحميدة و هي سيرة وصيّ الكلّيم، قال الله تعالى: «و إذ قال موسى لفتيه لا- أبرح حتّي أبلغ مجمع البحرين».(2) فكان أنيس الكلّيم في الحضر و رفيقه في السّفْر، و حامل زاده و طالب مقصوده و الأمين علي أمره. و هذه الأفعال من أركان الفتوّة، و هي من أخلاق سيّد الأوصياء و هو سيّد الفتيان بدلالة الصوت المسموع من السّماء:

لآ فتي إلّا عليّ، لا سيف إلّا ذو الفقار(3)

وقد جمع عليه السلام أفضل أخلاق الفتيان من نصر الحقّ و قمع الباطل و قري الضيف و الصوم في الصّيف و الضّرب بين يدي المصطفي بالسّيف و إنجاز مواعده و قضاء

ص: 45

1- راجع البحار ج 311/ 73، باب في معني الفتوّة والمروّة.

2- الكهف: 60.

3- تفسير فرات: 24، كما في البحار، 20/104. وفي أكثر المصادر: لاسيف إلّا- ذو الفقار ولا- فتي إلّا- عليّ. وانظر كتاب خير البريّة والألطف الإلهيّة.

ديونه و الخلفة له في هجرته و المحافظة علي حرمه و الرعاية لأسبابه(1) في حرمه(2) و حفظ راية الهدي في خيبره و إظهار دعوته و ذكر براءته من أعدائه في أجّل المشاهد و أعظم المواقف، فهو صاحب المروّة و المقدمّ في الفتوة، شبّهه الرسول بأبي البشر علما و فهما، و بالرسول المعمّر شكرا و استقامة، و بالخليل جودا و سخاءً، و بالكليم صلابة و شوقا، و بهارون فصاحة و بلاغة، و بسليمان علما و فهما و بالمسيح زهدا و عبادة.(3)

ص: 46

1- كذا في الأصل.

2- والعلها: في حرمه.

3- راجع البحار 39/35 باب أن في عليّ عليه السلام خصال الأنبياء، وأيضا راجع الجزء التاسع عشر من كتاب نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار فإنه بتمامه حول حديث التشبيه.

... (1) قال تعالى: «قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا و ما أنزل إلي إبراهيم و إسماعيل و إسحق و يعقوب و الأسباط و ما أوتي موسى و عيسى و ما أوتي التّيبّون من ربّهم لا

نفرّق بين أحد منهم و نحن له مسلمون». (2)

و قال تعالى: «فإن حاجّوك فقل أسلمت و جهي لله و من اتّبعن و قل للذين أوتوا الكتاب و الأُمّيين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولّوا» يعني أعرضوا عن قبول الإسلام «فإنّما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد». (3)

و قال تعالى يذكر منّي علي المؤمنين: «و جاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتبيكم

و ما جعل عليكم في الدّين من حرج مذلّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل» يعني من قبل هذا الكتاب و هذا النّبّي «و في هذا» (4) يعني في هذا الكتاب المنزل علي النّبّي المرسل.

و قال تعالى: «شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم إنّ الدّين عند الله الإسلام». (5)

ص: 47

1- هُنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

2- البقرة: 136.

3- آل عمران: 20.

4- الحجّ: 78.

5- آل عمران: 19.

وقال تعالى: «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون».(1)

وقال تعالى: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه»(2)

وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون».(3)

وقال عزّ من قائل دلالة لحبيبه: «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».(4)

وقال تعالى: «قل إني أمرت أن أعبدهم مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين».(5)

والإسلام هو دين الله ودين ملائكته ودين النبيين والمرسلين، وإليه دعي الخلق أجمعين.

والإيمان والإسلام واحد، لأن الإيمان اسم لجميع الطاعات المفروضة علي العباد.

وأول الإسلام الشهادة لله بالوحدانية، وهي أفضل الطاعات.

وكلّ مؤمن مسلم، وليس كلّ مسلم مؤمن.

قال الله تعالى: «فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين».(6)

ص: 48

1- آل عمران: 83.

2- آل عمران: 85.

3- آل عمران: 102.

4- الانعام: 162.

5- الزمر: 11.

6- الذاريات: 35.

وقال تعالى: «إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون».(1)

وقال تعالى يصف الصالحات من النساء: «مسلمات مؤمنات»(2) يعني مقرّات

بالألسن، مصدّقات بالقلب.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.(3)

فدخل تحت هذه الكلمة جميع ما يلزم العبد من أداء مفروض واجتناب محظور؛ لأن إقامة الأمور به ممّا يعني العبد، وارتكاب المنهي عنه ممّا لا يعنيه.

وقال صلي الله عليه وآله: المسلمون تتكافأ دماؤهم، يعقد أولهم علي آخرهم، يسعي بدمّتهم أدناهم، وهم يد علي من سواهم، ودعوتهم تحيط بما وراءهم.(4)

وليس شيء أولي بالعبد من التمسك بدين الله والاعتصام بحبله، ولا يغترّ بالأقاويل المزخرفة من شُبه الملحدين وتمويهات المضلّين، فإنّ الزّمان زمان سوء لا يزال يتحيرّ العاقل في دولة الباطل ومحق(5) الحقّ.

والحقّ منصور والباطل مقهور، والعاقبة للتّقوي، والآخرة خير من الأولى، ودين الله أحقّ وأولي، وما عند الله أقرب وأدني.

ص: 49

1- الرّوم: 53.

2- التّحرّيم: 5

3- رواه الحميري في قرب الإسناد: 45. راجع البحار 68/277 و 290.

4- رواه العامّة والخاصة بالفاظ متقاربة؛ ومنها ما رواه الصّدوق في الخصال 1/72 علي ما في البحار 67/242 وأيضا راجع البحار 2/148.

5- في الأصل: و محن.

قال الحافظ رحمه الله:

الإحسان فعل محمود يحسنه العقل و الشرع، و هو زارع المودّة و عامر المحبّة و واصل (1) العداوة و ناشر الذّكر.

يدلّ عليه قول المصطفى صلي الله عليه و آله: جبلت القلوب علي حبّ من أحسن إليها و بغض من أساء إليها. (2)

و ذكر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ما أحسنت إلي أحد و لا أسأت إليه؛ لأنّ الله تعالى يقول: «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتهم فلها». (3)

و أفضل إحسان العبد توحيد الله عزّ و جلّ و اجتناب الشرك، و نشر آلائه و نعمائه، و ذكر أياديه و إحسانه، و إثبات فضله و عدله، و موالاة أوليائه و معاداة أعدائه و إظهار حججه و إيضاح دلائله، و تصديق رسله و كتبه.

ثمّ معرفة حقوق المصطفى صلي الله عليه و آله و اتّباع سننه، و التّأديب بأدبه، و إظهار فضائله و إثبات محاسنه، و تقديم عترته و تفضيل أولاده، و حبّ أصحابه و الشّفقة علي أمّته، و اعتقاد فضله علي الرّسل الأكرمين و الأملاك المقربين، و الصّلاة عليه سرّاً

ص: 50

1- كذا في الأصل.

2- رواه السيوطي في الجامع الصغير 1/246 نقلاً عن حلية الأولياء لأبي نعيم الإصبهاني ومثله في الكافي 8/152 و من لا يحضره الفقيه 4/381 و تحف العقول 37 و تاريخ بغداد 5/32.

3- الإسراء: 7، والرّواية رواها الرّمخشري في الكشّاف 3/650 والطبرسي في جوامع الجامع 2/361، و ابن أبي الحديد في شرح النهج 6/236 وعزاه إلي وكيع!

و جهرا.

ثم بيعة ولاية الأمر والدلالة علي أحوالهم وتحقيق إمامتهم، والبراءة من أعدائهم وتحبيهم إلي الأمة، فقد قال الصادق عليه السلام: حَبَّبْنَا إِلَى أُمَّةٍ جَدَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَعْنُ اللَّهِ مِنْ بَغْضَانَا إِلَى أُمَّةٍ جَدَّنَا. (1)

ثم برّ الوالدين وتوقيرهما علي ضعفهما وكبر سنّهما، والتّحرّي لمسرّتهما وطلب مرضاتهما، والتدللّ بين يديهما، فإنّ الله سبحانه قرن الإحسان إليهما بعبادته

وترك الإشراك به، قال الله تعالى: «و اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا» (2) وقال: «أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير». (3)

ثم رياضة النفس وتأديبها بالأخلاق الجميلة، وصونها عمّا يشينها، وحملها علي ما يزينها، واتباع ما ينجيها واجتناب ما يؤذيها، وقهرها عند الشّهوات، وإتباعها في العبادات، ومنعها عن الشّبّهات.

ثم معرفة حقوق الإخوان من المؤمنين ببذل النفوس والأموال لهم، وكفّ الأذي عنهم وتفقد أحوالهم وإرادة الخير بهم والنّصيحة لهم، قولاً وعقداً وفعلاً، والاستغفار لذنوبهم ليلاً ونهاراً، وذكرهم بالجميل غيباً وشهادةً، وإقالة عثرتهم

سهواً ونسياناً. ومن أحسن إلي أحد فبنفسه بنبي (4) لأنّ إحسان المحسن إلي غيره زاده إلي الجنّة، ومن أساء إلي أحد فعلي نفسه جني، لأنّ إساءة المسيء إلي نفسه وغيره زاده إلي النار، إلاّ أن يتوب ويعتذر.

وليس شيء أولي بالعبد من الإحسان؛ لأنّه سبب النّشر والذكر والأجر والدّخر، والله يحبّه لأنّ أوّل الإحسان منه، وهو المحسن علي الإطلاق، وبالإحسان

ص: 51

1- روي الصدوق رحمه الله في كتاب صفات الشيعة ص 177 عن الصادق عليه السلام: حَبَّبْنَا إِلَى النَّاسِ وَلَا تَبْغُضُونَا إِلَيْهِمْ. وانظر البحار 71/163 و 75/348 و 52/347 و 72/421.

2- النّساء: 36.

3- لقمان: 14.

4- بني الرجل: أحسن إليه.

أمر وعليه دلّ وإليه دعا. قال: «وأحسنوا وإنّ الله يحبّ المحسنين».(1)

ومدح المحسنين في كتابه، فقال: «بلي من أسلم وجهه لله وهو محسن» يعني من أخلص عمله لله وهو موحد «فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».(2)

وقال: «و من أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن و اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً».(3)

وقال تعالى: «للّذين أحسنوا الحسني وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة» يعني لا تغشاهم كآبة(4) ولا كسوف «أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون»

[وقال تعالى:] «و من أحسن قولاً ممّن دعا إليّ الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين».(5)

وقال عزّ وجلّ: «ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أسأؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسني».(6)

ثمّ أجمل اللفظ، فقال: «هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان».(7) قيل في معناه: هل

جزاء من أنعمنا عليه بالتّوحيد إلاّ الجنّة؟

و من أسماء الله الحسني: المحسن والقريب والقادر والكريم. و من صفات العبد: الحبّ والحياء والخوف والرّجاء. فإذا علمت أنّه محسن استحبيت، وإذا علمت أنّه قريب استحبيت، وإذا علمت أنّه قادر خفت، وإذا علمت أنّه كريم رجوت.

ص: 52

1- البقرة: 195.

2- البقرة: 112.

3- النساء: 125.

4- في الأصل: الكتابة، والآية في سورة يونس: 26.

5- فصلت: 33.

6- النجم: 31.

7- الرّحمان: 60.

وقيل: النَّظَرُ إِلَى الْعِبَادَةِ يورث الامتنان و النَّظَرُ إِلَى التَّوْفِيقِ يورث زيادة الإحسان لله.

و معني الإحسان الإخلاص له بالعبودية، و تصفية الضمائر، و تصحيح الإرادات.

فقد سأل الأمين جبرائيل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (1)

دلّ علي مقام الهيبة و ذكر الجلال و العظمة ليحصل العمل علي اليقين و الصّفة.

و من علامات المحسن كفّ الأذي و بذل التّدي و حفظ الوفاء.

و عاقبة المحسن حسن الثّناء و كثرة الدّعاء، و عاقبة المسيء الجفاء و كثرة البلاء.

و المحسن يجزي بإحسانه، و المسيء سيكفيه مساويه.

و من أحسن فله الحسن، و من أساء فله السّوأي. قال الله تعالى: «ثمّ كان عاقبة

الَّذِينَ أسَاءُوا السُّوَأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». (2)

وقيل: من عمّ إحسانه أمن أعداءه، و من حسنت لله خدمته تواترت من الله نصرته.

فالعاقل من اغتمت أيامه و أحسن إلي نفسه و إلي إخوانه، و تزوّد من يومه لغده و لم يركن إلي حسن حاله و لم يطمئنّ به.

و ذكر عن الصادق عليه السلام قال: كفّارة عمل السّلطان الإحسان إلي الإخوان. (3)

و الجاهل من اغتمت أيامه و نسي حظّ نفسه، و تاه في غفلته و أعجب برأيه، فضلّ سعيه و هو يحسب أنه يحسن صنعا حتّي إذا انقضت أيامه و

انقطعت أعوامه لا يذكر

ص: 53

1- في مجمع البيان: 3/116: روي عن النبي صلي الله عليه و آله وسلم أنّه سئل عن الإحسان فقال: أن تعبد، الخ وانظر مسند أحمد 1/27 و صحيح البخاري 1/18 و زبدة البيان للأردبيلي 322.

2- الرّوم: 10.

3- رواه الحراني في تحف العقول: 410. وانظر البحار 75/321 و 206 و 10/247 وفي من لا يحضره الفقيه 3/176: كفّارة عمل السلطان قضاء حوائج الإخوان. و في مشكاة الأنوار للطبرسي 183 نقلاً عن الإمام العسكري عليه السلام في عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي 1/314 مثله عن الصادق عليه السلام.

بخير ولا ينسب إلي برّ، تعب في حياته و شقي عند وفاته و نسي في لحدّه، لم تبك عليه عين و لم يرقّ له قلب.

قال الله تعالى فيمن ساءت سيرته و عظمت بليّته، و استخدم عباد الله و خرّب بلاده و ذاق وبال أمره و ندم علي كسب يده: «كم تركوا من جنّات و عيون و زروع و مقام كريم و نعمة كانوا فيها فاكهين كذلك و أورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السّماء و الأرض و ما كانوا منظرين».(1)

جعلنا الله و إيّاكم من المحسنين، و وقّنا لما فيه النّجاة يوم الدّين.

ص: 54

1- الدّخان: 25.

قال الحافظ رحمه الله:

الإقرار إثبات حقّ علي نفسك، وضدّه الجحود و الإنكار لما لزمك إثباته، فمن أقرّ بما وجب الإقرار به استحقّق الكرامة و الزّلفة من الله تعالى. ألا تري أنّ آدم صلّي الله عليه لمّا زلّ بأكل الشجرة أقرّ و اعترف بالذنب فاجتباه الله و اصطفاه و هداه، و إبليس لمّا عصي [و]أصرّ و جحد، طرده الله و أذله و أخزاه.

و قد قيل: ذنب و جحود(1) إثمان عظيمان، و قد مدح الله المعترفين بزلاتهم، فقال: «و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً - الآية». (2)

و من أقرّ بما عليه قبل خروجه من دار المحنة و سقوط التكليف عنه، نفعه إقراره كقوم يونس عليه السلام لمّا عاينوا العذاب أقرّوا و أخلصوا، فكشف العذاب عنهم و متّعوا إلي حين. قال الله تعالى: «فلولا كانت قرية آمنت» يعني فلم تكن قرية آمنت عند نزول العذاب «فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا و متّعناهم إلي حين»(3) و إنّما نفعهم ذلك لأنّه لم يكن ذلك عذاب إهلاك، و إنّما كان ذلك تنبيها لهم.

و من أقرّ بعد معاينة الحقّ و زوال الشبهة و لزوم الحجّة، لا ينفعه إقراره. قال الله عزّ

ص: 55

1- [كذا، ولعلّ الصحيح: الذنب والجحود].

2- التّوبة: 102.

3- يونس: 98.

اسمه: «فلما رأوا بأسنا» قيل: هو ملك الموت عليه السلام حين ينزل لقبض أرواحهم «قالوا آمنا بالله و كفرننا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» (1) كفرعون لما أدركه الغرق قال: «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» (2) فكان إيمانه هناك إقراراً لم يقرنه عقد ولم يحصل عمل، وقال جبرائيل عليه السلام مزاجراً له: «الآن وقد عصيت قبل» يعني وقد جحدت قبل هذا الوقت «كنت من المفسدين» (3) يعني من المصيرين علي جحودك.

و الإقرار علي أربعة أوجه:

منها ما ينفع في الدنيا و لا- ينفع في الآخرة، كإقرار المنافقين ينفعهم ذلك بإسقاط الجزية ورفع السيف عنهم، وإدخالهم في أحكام الإسلام، وغير ذلك مما انتفعوا به.

و منها ما ينفع في الدنيا و الآخرة، و هو إقرار الموحدين المخلصين الذين ولدوا في الإسلام، لهم الشرف و الرفعة في دار الفناء، و النجاة و المثوبة في دار البقاء.

و منها ما ينفع في الآخرة و لا ينفع في الدنيا، و هو إقرار من قرب أجله و حان حينه، فأقرّ مخلصاً نادماً قبل معاينة الحقّ و سقوط التكليف و زوال الأمر.

في الحديث: من تاب قبل أن يغرغ (4) تاب الله عليه. (5)

و روي معاذ عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، و جبت له الجنة. (6)

و فيما يؤثر عنه عليه السلام قال: لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته

ص: 56

1- غافر: 84.

2- يونس: 90.

3- يونس: 91.

4- الغرغرة: تردّد الروح في الحلق وقت النزاع.

5- الجامع الصّغير 2/288 نقلاً عن مستدرك الحاكم. وفيه: قبل الله منه. وانظر مستدرك الوسائل 12/145.

6- لدعوات للراوندي 250، تذكرة الفقهاء 1/338 الجامع الصّغير 2/313 نقلاً عن مسند أحمد و أبي سنن داود و مستدرك الحاكم.

وجبت له الجنة. قيل: يا رسول الله، فمن قالها في حياته؟ قال: تلك أوجب وأوجب. (1)

وإنما أراد عليه السلام بقوله: «عند موته» يعني بقرب موته، ولم يقل مع موته.

وقوله: «لئنوا موتاكم» فالعقول دالة [علي] أن الميت لا يلقن، وهو كلام التّكريب كقول القائل للقاصد إلي بيت الحرام: فلان حاج، ولم يحصل حجّه بعد، وكقولهم لمن خيف عليه بأمر فادح: فلان هالك، أي سيهلك.

ومنها ما لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، وهو إقرار من عاين الحقّ وفارق المحنة.

قال الله تعالى: «ولست التوبة للذين يعملون السيئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا-الذين يموتون وهم كفّار.» (2)

وقال: «قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم» (3) لأنّ الإقرار إقرار الغيب وبه النجاة، واليقين يقين الغيب وبه الولاية.

وقد قيل: الاعتراف يهدم الاقتراف، والتوبة تغسل الحوبة. قال الله تعالى ذكره: «إليه يصعد الكلم الطيب» يعني الإقرار الصادق بالله وبما جاء من عنده «والعمل الصالح يرفعه» (4) يعني الإخلاص في الباطن.

فعلي العبد أن يقرب بما عليه إقراره قبل يوم التّدم وزوال النّعم وحلول النّقم، فإنّ الخطر عظيم، والأمر قريب، والمنقلب إلي ملك دائم، أو هلك دائم والله خير مسؤول وأفضل مأمول.

ص: 57

1- مثله في الوسائل 2/454 نقلاً عن ثواب الأعمال. وانظر مجمع الزوائد 2/323.

2- النساء: 18.

3- السّجدة: 29.

4- فاطر: 10.

في ذكر الشهادة

قال الحافظ:

معني الشَّهادة و حقيقتها تصديق المدعي فيما ادَّعاه. قال الله عزَّ من قائل: «شهد الله أنه لا إله إلا هو»⁽¹⁾ يعني صدق أنبياءه و أوليائه فيما ادَّعوا من وحدانيته بما أبدع من عجائب قدرته و دلائل وحدته، و هي الشَّهادة الكبرى.

و الشَّهادة علي وجوه:

منها شهادة العبد لله بالوحدانية، و للرسل بالرسالة، و للملائكة بالعبودية و الطَّهارة، و لمحمد صلي الله عليه و آله بالشرف و الفضيلة و الختم و الوسيلة، و لخلفائه بالتقديم و الإمامة، و لصاحب كلِّ حقِّ بحقه، شهادة واجبة في عنق العبد، إن كتمها بجحود أو زيادة معني فيها أو نقصان شرط منها، فهو آثم مستحق للعقوبة. قال الله عزَّ ذكره: (ولا تكتموا الشَّهادة و من يكتمها فإنه آثم قلبه).⁽²⁾ و معني الكتمان ما ذكرنا.

و من شهد بما لا يعلم، استوجب اللعنة و العقوبة من الله تعالى. قال الله تعالى فيما أوحى إلي موسى عليه السلام: لا تشهد بما لا يعيه قلبك و لم يحط به علمك، فإنِّي أوقف أهل الشَّهادة يوم القيامة علي شهاداتهم، فيغشيهم العذاب من فوقهم و من تحت أرجلهم حتَّى يأتوا بتصديق ما قالوا.⁽³⁾

ص: 58

1- آل عمران: 18.

2- البقرة: 283.

3- راجع البحار 13/363 ذيل الصَّفحة.

وفيما يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: شاهد الزور لا يرفع قدمه عن موضعه حتى يلعنه الرب عز وجل فوق سبع سماوات. (1)

وقال صلى الله عليه وآله: من كتم علما سئل عنه، أجم بلجام من النار. (2)

ومعني العلم هاهنا الشهادة؛ لأن العقول حضرت بعض العلوم علي أكثر الناس لقصورهم دونها و اتقت الأمة عليه و نطق القرآن به، و قد قال النبي عليه الصلاة والسلام: أمرت أن أكلم الناس علي قدر عقولهم. (3)

وقال عيسي بن مريم عليه السلام: لا تضع الحكمة في غير أهلها فتظلمها، و لا تمنعها عن أهلها فتظلمهم. (4)

و أجل الشهادة شهادة الله تعالى لنفسه بالوحدانية، و هي الأدلة الواضحة التي دل

عباده بها عليه و لأنبيائه و رسله بالصدق و الرسالة، و هي ما أيدهم بها من المعجزات و الآيات. قال الله عز ذكره: «قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني و بينكم». (5)

وقال: «قل كفي بالله شهيدا بيني و بينكم». (6)

و أفضل شهادات العباد شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده و رسوله؛ لأنها كلمة التقوي و النعمة العظمي، و بها المنة الكبرى و النجاة من

البلاء و الفوز بدار البقاء، و هي الشجرة الطيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين.

فطوبي لمن شهد بالحق و نطق بالصدق. قال الله تعالى: «و لا يملك الذين يدعون

ص: 59

1- راجع الوسائل ج 27/324 باب تحريم شهادة الزور.

2- رواه السيوطي في الجامع الصغير 2/314 مع تفاوت يسير.

3- الكافي 1/23 وفيه إنا معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم، الخ.

4- راجع البحار 2/66 و 78.

5- الأنعام: 19.

6- الرعد: 43.

من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحقّ وهم يعلمون».(1)

وويل لمن كتم شهادته و خان أمانته.قال الله تعالى: «و من أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله».(2)

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه وآله: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة.

ولابدّ لهذه الشهادة من شرائط... (3)

أربعة: تصديق و تعظيم و حرمة و حلاوة، فليس للمنافق تصديق، ولا للمبتدع تعظيم، ولا للفاسق حرمة، ولا للمرائي حلاوة.

فعليك أن تتمسك بها و تسأل الله الثبات عليها، فإنها ثمن الجنة و مفتاحها، و نور القيامة و مصباحها، و هي دعوة المرسلين و ولاية المؤمنين و دلالة ربّ العالمين.

ص: 60

1- الزخرف: 86.

2- البقرة: 140.

3- هنا يحتمل السقط في الأصل بمقدار الصفحتين أو أكثر.

ذکر التصديق

قال الحافظ رحمه الله:

التصديق علي ثلاثة أوجه:

أحدها: تصديق اللسان، وهو قول القائل لمن خاطبه: صدقت.

و الثاني: تصديق القلب، وهو القبول مع الاعتقاد عليه.

و الثالث: تصديق العمل، وهو التوفير و الإتمام.

وقيل: الناس شرع في التصديق، متفاوت في التحقيق.

و أصل الإيمان التصديق، قال الله تعالي يحكي قول إخوة يوسف حيث خاطبوا أباهم: «و ما أنت بمؤمن لنا»⁽¹⁾ يعنون عليهم السلام و ما أنت بمصدق لنا.

وقال: «فامن له لوط»⁽²⁾ يعني فصدق.

وقال: «و لم تؤمن قلوبهم»⁽³⁾ يعني و لم تصدق. و نظيرها في القرآن كثير. فمن صدق الله و رسوله فقد آمن حقيقة الإيمان.

و ضد التصديق التكذيب، و التكذيب إنكار اللسان و جحد القلب و تقصير العمل، يدل عليه قولهم:

ص: 61

1- يوسف: 17.

2- العنكبوت: 26.

3- المائدة: 41.

وليث بَعَثَ يَصْطَادُ اللَّيْثُ إِذَا

ما الليث كَذَبَ عن أقرانه صَدَقًا(1)

و مدح الله تعالي قوما بالتصديق، وقال: «و الذي جاء بالصّدق و صدّق به أولئك هم الممتّون لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين».(2)

وروي أبوذرّ عن رسول الله صلي الله عليه و آله أنّه قال: إنّ عليّاً أوّل من آمن بي و صدّقني، و أوّل من يصفحني يوم القيامة، و هو الصّدّيق الأكبر، و هو الفاروق الذي يفرق بين الحقّ و الباطل، و هو يعسوب المؤمنين، و المال يعسوب الظّلمة.(3)

وقال الله عزّ من قائل «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه» يعني أجله، و يقال: وفي بنذره «و منهم من ينتظر» ليقضي «و ما بدّلوا

تبديلاً».(4)

و ذمّ أقواما بالتكذيب، قال: «فمن أظلم ممّن كذب علي الله و كذب بالصّدق إذ جاءه» يعني التّوحيد، و قيل: المراد بالصّدق هو المصطفى صلي الله عليه و آله إذ جاءه «أليس في جهنّم مثوي للكافرين».(5)

فكما أنّ التّصديق أصل الإيمان، فالتكذيب أصل الكفر.

و كذب نفسك عند مواعيدها الكاذبة و أماتيتها الباطلة، و صدّق ربّك فيما وعد و أوعد في وعده الصادق و وعيده الحقّ.

فبالتصديق يستقيم العبد علي الطّاعة و يستوجب الجنّة، و بالتكذيب يقع في المعصية و يزّل عن الدّين و يستوجب النّار و يخلّد في الجحيم. فنسأل الله الثّبات

علي التّصديق و الاستقامة عليه، و نعوذ بالله من التّكذيب و الميل إليه.

ص: 62

1- لسان العرب 12/54 وفيه: يصطاد الرجال.

2- الزّمر: 32.

3- انظر غاية المرام: 502 وفي بعض الأخبار: و المال يعسوب المنافقين.

4- الأحزاب: 23.

5- الزّمر: 31.

قال الحافظ رحمه الله:

ليس شيء أجَلّ من الصّدق وأعلى رتبة من الصّادق، وهو أنفع الأشياء في العاقبة، وأصله وصف ما يجوز وصفه في تلك اللغة، وعند بعضهم إخبار الشيء علي ما هو به مع الاعتقاد. (1)

وضدّه الكذب، ومعناه وصف ما لا يجوز وصفه في لغته تلك.

و الصّدق علي سبعة أوجه:

أوله صدق التّوحيد، وهو لعامة العارفين.

والثاني: صدق الطّاعة، وهو للمستقيمين المخلصين.

والثالث: صدق المعرفة، وهو للواصلين المحقّقين.

والرابع: صدق الإرادة، وهو للزّاهدين المتوكّلين.

والخامس: صدق الدعوي، وهو لجميع من ادّعي فأقام البيّنة، وقال فصّح المقالة.

والسادس: صدق الوعد، وهو لمن وعد فأنجز، قال الله تعالى يمدح الذّبيح عليه السلام: «و اذكر في الكتاب إسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا» (2) فبدأ من فضائله

ص: 63

1- [ولعلّ صحيحها: الإخبار عن الشيء علي ما هو عليه مع الاعتقاد به].

2- مريم: 54.

بذكر صدقه لأنه أعلي المنازل وأجلّ المراتب، والصّادق لا يأمن (1) علي صدقه ولو

مشي في الهواء أو علي الماء.

و السّابع: صدق الصّدّيقين و مقاعدهم عند الملك المقتدر و صحبتهم مع التّبيين، و هذا كمال درجات الصّدق أن ينتفي في الله. (2)

وقيل: ليس بصادق في حبّه من لم يصبر علي ضربه. فأجابه آخر: بل ليس بصادق في حبّه من لم يتلذذ بضربه.

وقيل: ليس بصادق في زهده من لم يؤثر التفكّر علي كلام الخلق، و الخلوة علي لقاء الخلق، و العبادة علي خدمة الخلق.

و روي الحسن بن عليّ عليهما السلام عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: الصدق طمأنينة، و الكذب ريبة. (3)

و فيما يؤثر عنه عليه السلام قال: عليكم بالصدق، فإنّ الصّدق يهدي إلي البرّ، و البرّ يهدي إلي الجنّة. و إيّاكم و الكذب، فإنّ الكذب يهدي إلي الفجور، و الفجور يهدي إلي التّار. (4)

و العرب تسمّي البرّ صدقا و الباطل صدوقا، و الكذب فجورا و الكذاب فاجرا.

و الصدق ربيع القلوب و شعاع الضّمير، و زين الأبرار و شرف الأحرار.

وقيل: الصّدق قوّة و الكذب عجز، و الصّدق زين و الكذب شين.

وقيل: من صدق لسانه و صفا عمله و عقل بقلبه عن الله تعالى، فهو عاقل مخلص صادق.

و لن يبلغ العبد منازل الصّدّيقين حتّي يري الدّنيا بعين الفناء، و الآخرة بعين

ص: 64

1- كذا.

2- كذا.

3- جامع الأصول 6/444 نقلاً عن سنن الترمذي.

4- جامع الأصول 6/442 نقلاً عن صحيح البخاري.

البقاء، ويؤثر طاعة المولي علي صحبة الخلق، ولزم الخلوة واستأنس بالذكر، ورفض العلائق(1) بينه وبين خالقه، وسكن بقلبه معه، و أقام علي بساط الصفاء، وتضرع إلي الله و افتقر إليه و توكل عليه و أيقن بوعدده، و لا يبالي بالدنيا في يد من كانت، فهناك يبلغ مراتب الصدق و يدعي صديقاً في القيامة.

و أصدق الصادقين الله رب العالمين، ثم الرسل السادة الأكرمون، ثم الأوصياء الشّهداء المعصومون، ثم الأمثل فالأمثل من المتقين. قال الله تعالى: «و من أصدق من الله قيلاً».(2)

و قال عزّ و جلّ: «و من أصدق من الله حديثاً».(3)

و يقول الله تعالى يصف القيامة إذا اعتذر المسيح عليه السلام من جرم قومه و استسلم بحكم خالقه: «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم و رضوا عنه ذلك الفوز العظيم».(4)

فليلزم العبد الصدق فإن عاقبته الجنة، و ليجتنب الكذب فإن عاقبته النار.

ص: 65

1- كذا ولعلّ الصحيح: ورفض العلائق التي حالت بينه.

2- النساء: 122.

3- النساء: 87.

4- المائدة: 119.

ذکر الدین و معناه

قال الحافظ رحمه الله:

معني الدّين ما يخضع به العبد للمقصود المعبود اعتقاداً و تذللاً. يدلّ عليه قول الدّاعي: يا من دانت له السّماوات و الأرض. يعني خضعت.

و من ثناء الصّادقين عليهم السلام: سبحان من دانت لعظمته رقاب العظماء.

و الدّين اسم لمعان شتّى:

منها الطّاعة، قال الله تعالى: «و له الدّين واصباً» (1) يعني الطّاعة الدّائمة.

و منه قول الشاعر:

و أيّام لنا غرّ طوال

عصينا المَلِك فيها ان ندينا (2)

يعني ان نطبع.

و منها العادة، يقال: العرب هذا دينه ودأبه، يعني عاداته و سيرته.

و منه قول الشّاعر يصف ناقه له:

تقول إذا درأت لها و ضبني

أهدا دينه أبدا و ديني. (3)

يعني عاداته.

و منها القضاء، قال الله عزّ و جلّ في قصّة يوسف و أخيه: «ما كان ليأخذ أخاه في

ص: 66

1- التّحل: 52.

2- لسان العرب: 4/460.

3- لسان العرب: 4/460.

دين الملك»(1) يعني في قضائه و حكمه.

و منها الحساب، قال الله تعالى: «ذلك الدين القيم»(2) يعني الحساب المستقيم.

و منها الجزاء، قال الله تعالى: «ملك يوم الدين».(3)

قال صاحب التفسير(4): يوم يدان الناس بأعمالهم.

و قول الواعظين: كما تدين تدان، أي كما تعمل تجزي.

و منه قول الشاعر:

كما يدين الفتى يوما يدان به

من يزرع الثوم لا يقلعه ريحانا(5)

و منها العيد، قال الله عزّ و جلّ: «و ذرّ الآذنين اتّخذوا دينهم لعبا و لهوا»(6) يعني عيدهم. و سمّي العيد ديننا لأنّ في عيد كلّ قوم ظهور دينهم، و لأنّهم يدينون بحفظ تلك الأيام.

و إنّ الله ذكر الأديان في القرآن فقال: «إنّ الآذنين آمنوا» و هم من اتّبع الملة الحنيفيّة و تمسّك بالإسلام «و الذين هادوا» و هم من مال عن طريق موسى بن عمران عليه السلام بعد وفاته و اختاروا اليهوديّة الجابرة «و الصّابئين» و هم عبدة النجوم،

و قيل: هم قوم اختاروا من كلّ دين شيئا «و التّصاري» و هم من تنصّر بعد عيسى عليه السلام و ترك دينه و اختار التّصانيّة الضّالّة «و المجوس» و هم عبدة التّيران «و الذين أشركوا» و هم الثنويّة [و عبدة الأصنام. ثمّ قال: «إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة» يعني يميّز بالحكم و الجزاء.

و هذه الأديان كلّها باطلة إلّا الإسلام، فإنّه دين الله الذي أمر به عباده و دعا إليه

ص: 67

1- يوسف: 76.

2- التّوبة: 36.

3- الفاتحة.

4- لم يعلم مراده من صاحب التفسير انظر: جامع البيان للطبري 26/243 و القائل: قتادة.

5- انظر البيت في كتاب التوحيد للصدوق 216.

6- الأنعام: 70.

خلقه، و دلّ عليه أوليائه و بعث به رسله و أنبياءه، قال الله عزّ و جلّ: «شرع لكم من الدين ما وصّي به نوحا و الذي أوحينا إليك و ما وصّينا به إبراهيم و موسى و عيسى أن

أقيموا الدين و لا تتفرّقوا فيه».(1)

و قال عزّ من قائل: «و ما أمروا إلاّ ليعبدوا الله» يعني ليوحّدوا الله «مخلصين له الدين» يعني مفردين معتقدين له الدين «حنفاء» يعني خلصاء و قيل: مائلين عن الأديان كلّها إلاّ الدين الصّحيح «و يقيموا الصّلاة» يعني يديمون أداءها و يصحّحون اعتقادها «و يؤتوا الزكاة» يعني يقرّون بها [و] يؤدّونها إليّ أربابها، ثمّ قال: «و ذلك» أشار إليّ الدين «دين القيّمة»(2) - يعني دين الملائكة المقرّبين و الرّسل الأكرمين القائمين بالدين.

و قال الله تعالى لنبيّه صلي الله عليه و آله: «فأقم وجهك للدين حنيفاً»(3) يعني مائلاً عن سائر الأديان الباطلة.

و قال عزّ و جلّ: «فأقم وجهك للدين القيم» يعني الثابت الواصب الدائم اللازم «من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له»(4)

و قال عزّ من قائل: «و من أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله» يعني فمّن أصوب ديناً [مّمّن] صحّ عقيدته و أصفى نيّته و أخلص عمله لله عزّ و جلّ «و هو محسن» يعني مصدّق بالقلب «و اتّبع ملة إبراهيم حنيفاً»(5) يعني مستقيماً عليّ الملة المرضيّة.

و قال الله عزّ و جلّ «و من يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من

ص: 68

1- الشّوري: 13.

2- البيّنة: 5.

3- الروم: 30.

4- الروم: 43.

5- النّساء: 125

الخاسرين»(1) بعدم الثواب و حلول العقاب.

واعلم أن صاحب الدين يحتاج الي شرائط كثيرة حتّي يكون متديّنًا مرضيّا في دينه:

منها الإقرار بوحدانيّة الله تعالي مع التصديق، وإثبات ربوبيّته مع التّعظيم، وأداء

أوامره مع الإخلاص، واجتناب نواهيه مع الحرمة، والورع في السرّ والعلانية، والذكر في السرّاء والضّراء، والتّصيحة للأولياء والأعداء، و الشّفقة علي الأقرباء

والأبعداء، والمساعدة والمواساة في الشّدّة والرّخاء.

وأصل الدّين التّوحيد، وهو معرفة الواحد القديم، نافيا عنه ما لا يليق به في الصّفات والأفعال، منزّها له عن الأشباه والأمثال.

ومن كمال الدّين حسن القبول، واتباع الرّسول، والتمسك بالأصول.

وأصول الدّين ثمانية: التّوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، وإثبات النّبوة والرّسالة، والقول بالإمامة مع تفضيل الصّحابة من أهل

الهجرة والنّصرة، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والتولّي لأولياء الله والتبرّي من أعدائه. فمن تمسك بهذه الأصول واستقام عليها فقد بلغ من الدّين أعلا سنامه وفاز بالحظّ الوافر.

وفيما يؤثر عن السّلف: لن يكمل عبد حتّي يؤثر دينه علي شهوته، ولن يهلك حتّي يؤثر شهوته علي دينه.

وخطب رسول الله صلي الله عليه وآله فقال في خطبته: ألا إنّ الدّين التّصيحة لله ولرسوله ولأنّمة المسلمين عامّة(2)

وأصل الدّين التّوحيد، وثباته السّنّة، وميدانه الطّاعة، ودليله العلم، وقرينه الحلم، وأميره الحق، ووزيره الصدق، وحارسه الصّبر، وسيرته الوفاء، وسيرته

ص: 69

1- آل عمران: 85

2- جامع الأصول: 11/557 نقلاً عن صحيح مسلم وغيره.

الصِّمَاء، ولباسه التقوي، وزينته الورع، وسريره الزَّهد، وتاجه التوكُّل، و رداؤه التَّقويض، وسراجُه المعرفة وشمعه اليقين، وبيته الحكمة، و داره الخلوَّة، وبستانه الفكرة، وريحانه العبرة، وطعامه الذِّكر، و شرابه الشُّكر، و مائدته الرِّضا بالقضاء، و ثوابه الفردوس الأعلي، و أنصاره الأبرار، و أعداؤه الفجَّار، و حافظه الجبَّار.

فطوبى لمن هداه الله الدِّين الحنيفي وويل لمن حرم ذلك، و ليس كلُّ من طلب وجد، و لا كلُّ من وجد سلم؛ لأنَّ الدُّنيا تدعو إلي الفتنة، و الشَّيطان يدعو إلي الخطيئة، و أمواج البلاء تضرب (1) ليغرق العبد المتمسِّك بالدِّين، فإن عصمه الله كان من الفائزين، و إن خذله كان من الهالكين، و صلواته علي نبيِّه محمَّد و آله الطَّاهرين.

ص: 70

1- لعل الصحيح: يقترب.

قال الحافظ رحمه الله:

الملة اسم لجميع الأديان الحقّ والباطل؛ يدلّك عليه: قول العبد الأمين شعيب عليه السلام حيث قال: «قد افترينا علي الله كذبا إن عدنا في ملتكم». (1)

وقول الفتية الهادية أصحاب الكهف: «إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم». (2)

وقد أمر الله تعالى باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، فقال عزّ من قائل: «قل صدق الله فاتّبعوا ملة إبراهيم حنيفا». (3)

ولست الملة اختصّ بها الخليل دون سائر الرسل عليهم السلام؛ يدلّ عليه قول الصديق يوسف المسجون عليه السلام حيث قال: «إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله» يعني برئت منها لأنّه لم يتلبس بكفر قطّ حتّي تركها «وهم بالآخرة هم كافرون». ثمّ قال: «وأتبعت ملة

أبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب» (4) فأضاف الملة إليهم جميعا.

ومعني الملة هي الآثار المتبعة من المقتدي به. ومعني ملة إبراهيم آثاره وسننه وهي الكلمات التي أمره الله تعالى بها فاتّمها في الاستدلال علي الصانع القديم

ص: 71

1- الأعراف: 89.

2- الكهف: 20.

3- آل عمران: 95.

4- يوسف: 37.

حيث أبصر الشَّمس ورأى القمر ونظر إلي الكواكب، و ما ابتلي به من محاجّات قومه و مناظرة اللعين نمرود، و ذبح الولد الرضيّ إسماعيل، و الدعوة إلي الله تعالى

و تسليم النَّفس إليه حيث ألقى في النار، و التوجّه إليه بالإخلاص، و سائر ما أصابه

من المحن، فوفّي الله تعالى فيها قولاً و عقداً و فعلاً. فهذه الأشياء و سائرها من

شرائعه و آثاره التي امر الله تعالى باتّباعها.

و الحكمة في تخصيص الدعوة إليه أنّ العرب كانوا منتسبين إليه مفتخرين به دون سائر الرّسل، و البيت من بنائه و الرّمزم من آثار ولده، و هو الذي دعا للحرم بالأمن و للبيت بالطهارة و لذريّته بالعصمة و لسكّان مكّة بالبركة [و] لأنّ سيّد الرّسل

كان دعوته حيث قال: «ربّنا و ابعث فيهم رسولا منهم»⁽¹⁾ و لأنّ اليهود و النّصارى كانوا من نسله، و العجم كانوا متولّين له؛ لأنّ ملوك العجم كان من أولاد يهودا بن يعقوب عليه السلام لأنّ الله تبارك و تعالى جعل في ذريّته النّبوة و الكتاب، و لأنّ الله دعا الله تعالى بإبقاء ذكره و اسمه فاعطاه الله ذلك و جعل كلمته باقية في عقبه، و لأنّ الرّسل

كانوا أخلاء الله و أولياءه و لم يختصّ باسم الخلّة أحد سواه، و لأنّ العرب لم تجر

فيهم الرّسل و لم يتولّوا سوي الخليل و أولاده، لهذه العلل و غيرها أمر الله تعالى

باتّباع ملّته.

قال الله تعالى: «إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب»⁽²⁾ فمدحه الله تعالى بالعقل و الثّبات في الأمر و كظم الغيظ و كفّ الغضب و بسط الرضا و التّضرع إلي الله تعالى في ساعات الغفلة و الدّعاء له في السّرّ و العلانية و التّأوّه في الشّوق و التوجّع من ألم الفراق، و هو معني الأوّاه، و الرّجوع إلي الله سبحانه في جميع الأحوال و الاعتماد

عليه في حصول الآمال و الإخلاص له في مواطن الأعمال، و هو معني المنيب.

ص: 72

1- البقرة: 129.

2- هود: 75.

وقد ذكره الله تعالى بالوفاء، فقال: «وإبراهيم الذي وفى»⁽¹⁾

قال صاحب التفسير⁽²⁾: قام لربه باستكمال الطاعة.

وقد نزهه الله من جميع الأديان الباطلة، فقال: «ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»⁽³⁾.

وكان عليه السلام يكتي أبو الضيفان

وذكروا عن الحسن، قال: من لم يكرم ضيفه فليس من محمد ولا من إبراهيم.

فتمسك بملة واتبع أثره، فإنه نعم المقتدي، والمصطفى اجتبه الله وهداه واصطفاه وارتضاه، وأثنى عليه في الآخرين، وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

ص: 73

1- التّجْم: 37.

2- لم نعرفه.

3- آل عمران: 67.

قال الحافظ رحمه الله:

الفطرة و الصبغة اسمان للدين الحنيفي، قال الله تعالى: «صبغة الله» (1) يعني الزموا

دين الله إبطالاً لقول اليهود و النصارى حيث قالوا: «كونوا هودا أو نصارى تهتدوا».

وسمى الدين صبغة لأن الأصباغ أخلاط مختلفة و الدين معان شتى أصلها التصديق في القلب و الإخلاص و سائر الأفعال، و فرعها الشهادة لله تعالى بالوحدانية و الإقرار بالربوبية و الوفاء بالعبودية، و غير ذلك من شرائط العقد (2) و القول و الفعل.

و الفطرة هي الخلقة، قال الله تعالى لنبىه صلى الله عليه و آله: «فأقم وجهك للدين حنيفاً». بين ما أوجب القيام به، فقال: «فطرة الله التي فطر الناس عليها». (3)

و منه قول رسول الله صلى الله عليه و آله: «كلّ مولود يولد يولد (4) علي الفطرة». لم يعن إلا الدين الذي أمره الله تعالى به. و قيل: علي خلقة يمكن للمستدل الاستدلال بها علي الصانع. «فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه» (5) يعني يدعوانه إليها حتى يقبلها منهما تقليداً.

ص: 74

1- البقرة: 138.

2- ي الأصل: العقل.

3- الروم: 30.

4- في الأصل: ولد.

5- الجامع الصغير 2/158 نقلاً عن سنن البيهقي. وانصر الخلاف للطوسي 3/591، والأماي للسيد المرتضي 4/4، والتبيان للطوسي 8/247.

و معني قوله: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» يعني علي هيئة يمكنهم اتباعها، لأنه لو خلقهم عليها لكانوا مجبورين معذورين، ولو كانوا كذلك لبطل الزجر والتكليف والنهي والأمر والترغيب والترهيب والوعد والوعيد وهذا ما ينكره العقل ولا يحققه الشرع، فاعلمه رشيدا.

ص: 75

قال الحافظ رحمه الله:

الطّاعة علي ثلاثة أوجه: طاعة الله تعالي باعتقاد وحدته وإثبات ربوبيّته وإخلاص العبوديّة له ونشر آلائه ونعمائه وما شاكلها، وطاعة الرّسول بإثبات نبوّته

و تصديق رسالته و تحقيق شريعته و اتّباع سنّته و إثبات فضائله و اعتقاد حقوقه و ما أشبهها، وطاعة وليّ الأمر بعقد بيعته وإظهار نصرته و الموافقة معه أيام محنته و غير

ذلك ممّا يلزم من حقوقه.

قال الله تعالي: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرّسول و أولي الأمر منكم»⁽¹⁾ فمن أطاع الله تعالي استوجب الرّضا و الرّحمة، و من أطاع الرّسول استحقّ الشّفاعه و الكرامة، و من أطاع وليّ الأمر أدرك الظّفر و التّصرة، و من عصي الله استوجب اللعنة و القطيعة، و من عصي الرّسول حرم الشّفاعه و القرية، قال الله تعالي:

«و من يعص الله و رسوله و يتعدّد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها»⁽²⁾، و من عصي وليّ الأمر عمي عن الحقّ و بقي في الشّبهة و لقي الله تعالي و هو عليه غضبان، قال الله

تعالى: «و من كان في هذه أعمى» قيل: عن معرفة وليّ الأمر «فهو في الآخرة أعمى» يعني عن الثّواب «و الكرامة - و أضلّ سبيلاً»⁽³⁾ يعني عن الجنّة، كما في الدّنيا عن

ص: 76

1- النّساء: 59 .

2- النّساء: 14 .

3- الإسراء: 72 .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلامه لسويد بن غفلة (1) أطع الإمام وإن كان عبدا حبشياً مجدعا، إن ضربك فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن أمرك بأمر ينقص دينك فقل هي دون ديني، لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

وإنما أراد عليه السلام بقوله: «وإن كان عبدا حبشياً» علي التمثيل لا علي التحقيق؛ لأن الإمام لا يكون إلا قرشياً بدلالة قول المصطفى عليه السلام: الأئمة من قريش. (2)

و الطاعة علي ثلاثة أوجه: دائم وموقت وحوادث؛ فالدائم مثل التوحيد و شرائطه و الإخلاص و التوكل و الصبر و الرضا و التسليم، و الموقت مثل الصوم

و الصلاة و الحج و الزكاة، و الحوادث الواقعة مثل إطعام السغبان و كسوة العريان

و إغاثة اللهفان و ما شاكلها من فروض علي الكفاية، إن قام بها بعض الناس سقط عن الباقين، و إن ضيعوها لزمتهم العقوبة أجمعين.

وقيل: الطاعة علي وجهين: ظاهرة و باطنة، أما الظاهرة فمثل الشهادة لله و الإقرار

به و سائر الطاعات التي يلزم العبد أدائها ظاهرا، و أما الباطنة كاعتقاد هذه الشهادة

و إخلاصها و الاستقامة عليها.

و أما طاعة المرأة للزوج و الولد للوالدين و الرعية للراعي؛ فإنها داخلة في جملة

ما ذكرنا لأنه قد سبق الأمر بها من الله تعالى.

و ضد الطاعة المعصية، و هي مقسومة علي أقسام الطاعة، لا يشته علي الناظر فيها.

وقيل: من أطاع نفسه في الإباحات فقد أطمعها في الشبهات، و من أطاعها في الشبهات فقد أطمعها في الحرام، و من أطاعها في الحرام استحق العقوبة من الله تعالى إلا أن يتوب و يعتذر.

ص: 77

1- شهد صفين مع علي عليه السلام وعاش إلي أن مات بالكوفة زمن الحجاج. انظر أسد الغابة: 2/380.

2- راجع غاية المرام: 191.

وسئل بعض المريدين عن حقيقة الطّاعة، فقال: احتمال الأذي في خلاف الهوي لوجه الملك الأعلى.

وقال سريّ السّقطي(1): طاعة الرّحمان بأرخص الأثمان مع راحة الأبدان، و معصية الرّحمان بأغلي الأثمان مع تعب الأبدان.

وعن بعضهم، قال: طاعة الله شرف مبین، و الاعتصام به حصن متين.

وقيل: طاعة المتّقي جنة المجتري.

وقال أبو يزيد البسطامي(2): شيان من الله تعالى و شيان من العبد؛ فمن الله جلّ ذكره المحبوب و المكروه، و من العبد الطاعة و المعصية، و من كان في محبوب الله شاكرا كان طاعته مقبولة، و من كان في مكروهه صابرا كانت معصيته مغفورة.

وقال الجاسبي(3): أصل الطاعة الورع، و أصل الورع التّقي، و أصل التّقي محاسبة النّفس، و أصل محاسبة النّفس الخوف و الرّجاء، و أصل الخوف و الرّجاء معرفة الوعد و الوعيد، و أصل معرفة الوعد و الوعيد ذكر عظم الثّواب و شدة العقاب، و أصل ذلك العبر و الفكر.

و عن بعضهم، قال: الطّاعة مخزونة في خزائن الله، مفتاحها الدّعاء و أسنانها(4) لقمة الحلال.

وفيما أوصي به لقمان ابنه قال: يا بنيّ، اتّخذ طاعة الله تجارة يأتيك الأرباح من غير بضاعة.

قال الله تعالى في التّوراة: أنا الله لا إله إلاّ أنا، قلوب الملوك و نواصيهم بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، و من عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم

ص: 78

1- من مشاهير الصوفية كان تلميذ معروف الكرخي ومات سنة 257.

2- هو طيفور بن عيسى. مات سنة 261 أو 234.

3- لعلّ الصّحيح: المحاسبي، وهو أبو عبد الله الحارث بن أسد، بصري الأصل، مات ببغداد سنة 243.

4- كذا في الأصل.

بسبب الملوك و لكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم. (1)

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلواته وصيامه وصدقته وتلاوته القرآن، ومن عصي الله فقد نسي الله سبحانه وإن كثرت

صلواته وصيامه وصدقته وتلاوته القرآن. (2)

وفيما قال الله في التوراة: يا ابن آدم، من ذكرني بالطاعة ذكرته بالرحمة، و من ذكرني بالمعصية ذكرته باللعنة، فالزم طاعتي واحذر معصيتي. (3)

وقرأت في حكمة لقمان رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بني، عليك بالدعاء والتضرع إلي ربك، فإن كل خير مفتاح بابه الدعاء والتضرع إذا كنت مطيعاً لربك فإنه من استفتح باب ربه بغير الطاعة لم يفتح له و من استفتحه بمفتاحه - وهي الطاعة -

لم يلبث حتى يفتح له. ألا تري أن أبواب الدنيا ومغاليقها إنما تفتح بمفاتيحها؟!

كذلك خزائن الله، فإن باب خزائن الله الرحمة ومفتاح الرحمة الدعاء مع الطاعة،

فمن حفظ المفتاح فتح به الباب إذا انتهى إليه فدخل الخزائن وأصاب حاجته وما لم يخطر له علي بال، و من ضيّع المفتاح طال عناؤه حتى يقدر علي فتح الباب إن قدر.

ولا يستقيم العبد علي الطاعة ولا يسلم من المعصية إلا بملازمة الخلوة و خمول الذكر و نسيان الخلق و ذكر العواقب و التمسك بالسنة و ترك الشهوات و رفض اللذات و مخالفة الهوي و معرفة الزمان و الصبر علي محن الأيام و قصر الأمل و ذكر

الأجل و القناعة بالقسمة العادلة و الرضا بالقدر و الاستسلام للحكم الوارد من الملك

العادل و تفويض أمره إلي الله تعالي و صدق التوكل عليه و اليقين بوعدده و وعيده و ذكر آثار الرسول و مصائب العترة الطاهرة و سيير الصالحين من أشياعهم و أتباعهم.

ص: 79

1- راجع مجمع البيان 4/163 و عنه البحار 75/327، فيض القدير في شرح الجامع الصغير 5/60. و فيض القدير شرح الجامع الصغير 5/60

2- معاني الأخبار 399. البداية و النهاية 5/342. مستدرك الوسائل 5/299.

3- راجع فتح الأبواب 296 و جامع السعادات 3/262 و البحار 14/42.

ولا يبلغ هذه الرتبة إلا بترك طلب الرئاسة، فقد قيل: طلب الرئاسة رأس حب الدنيا [وحب الدنيا رأس كل خطيئة] وربما زهد العبد في المطعم والملبس وهجر المركب والمسكن ولا يزهد في الرئاسة(1)، وليس للشيطان سلاح أنفذ في العبد من حب الرئاسة والميل إليها، فإن الخلق حجاب عن الحق وما رأيت عالما رشيدا ولا عبدا منيبا ولا عاقلاً لببياً إلا وكان أكثر كلامه تزهيد إخوانه في الرئاسة؛ لأنها سبب الكبر ومحلّ البلاء، ولم يجر علي آل الرسول عليهم السلام من الظلم والتشديد والقهر والتشريد من أعدائهم إلا بحب الرئاسة، فليتدبر العاقل من نفسه وليتفكر في عاقبته

وليلزم طاعة ربه، فإنها سبب الرحمة ومفتاح الجنة، وبها بقاء النعمة والخروج من المحنة، والبشري عند الموت والتور في القبر والركوب في المحشر والنجاة من الحساب و ثقل الميزان وشفاعة المصطفى والسبق علي الصراط والنجاة من النار ودخول الجنة والرفعة في الدرجات والزيادة في الكرامات.

والمعصية سبب اللعنة ومفتاح العقوبة والوقوع في المحنة، وبها زوال النعمة وحلول التهمة وكرب الموت وحسرة الفوت وضيق القبر والعمى في المحشر وشدة الحساب وخفة الميزان وحرمان الشفاعة والحيرة في الظلمة وفوت الجنان ودخول النيران والتسفل في الدرجات والزيادة في العقوبات.

قال الله تعالى: عبدي، إن لم تفعل أمري فلا تأكل من رزقي، وإن عصيتني فاخرج

من ملكي، وإن لم ترض بقضائي فالتمس غافراً غيري.

واعلم أنه لو اجتمع أهل السماء والأرض علي الطاعة ما زادت في ملك الملك القديم ذرة واحدة ولو اجتمعوا علي معصيته ما انتقص من ملكه ذرة واحدة؛ لأنه ملك غني لا ينفعه طاعة المطيعين ولا يضره معصية العاصين.

قال الله تعالى لنبيه صلي الله عليه وآله: «قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا» يعني أعرضوا عن الطاعة «فإنما عليه ما حمل» يعني من تبليغ الرسالة «وعليكم ما حملتم» من

ص: 80

قبولها «وإن تطيعوه» في الدنيا «تهتدوا» في الآخرة إلى الجنة «ما علي الرسول إلا البلاغ المبين»⁽¹⁾ جعلنا الله وإيّاكم من المطيعين
برحمته، إنّه وليّ ذلك و القادر عليه.

ص: 81

1- التّور: 54.

ذکر العبادة

قال الحافظ رحمه الله:

العبادة اسم لما تعبد الله به عباده من أداء أمر و اجتناب نهی، وأصلها فعل يرجع عن قصد صاحبه بالربوبية لشيء. وقيل: هي الإقرار بالعبودية مع إظهار الفقر والحاجة.

[و] عن بعض الصالحين: أصل العبادة أربعة: صحّة الإرادة، وقصر الأمل و ذكر موت الفجأة، و الاستعداد للموت.

و عن بعضهم: أنّها علي ثلاث مراتب: سرّي، و علمي، و فعلي.

أمّا السرّي فعلي ثلاثة أوجه: حراسة القلب، و حفظ الإرادة، و التّفكّر في العواقب

و أمّا العلمي فعلي ثلاثة أوجه: التعلّم بالحرمة، و التّعليم بالتّصيحة، و الدّلالة علي

الحقّ.

و أمّا الفعلي فعلي ثلاثة أوجه: مراعاة الوقت، و تعظيم الفعل، و الاستقامة حتّي الموت.

و اعلم أنّ منازل العبّاد سبعة:

أولها درجة التّوحيد .

و الثّاني موافقة أحكام المصطفي صلي الله عليه و آله.

و الثّالث وفاء المأمور به مع اجتناب المنهي عنه حسب ما ورد في الشّرع.

و الرّابع حفظ الحجّة في الإباحات.

ص: 82

و الخامس استقامة الأخلاق، و هي درجة الصدق.

و السادس مرتبة النبوة.

و السابع شرف الرسالة، و هي أشرف مراتب العباد.

و عند بعضهم:

أول المراتب الانتباه عن الغفلة. ثم حياء المراقبة. ثم التوبة بعد الحوبة، و الرياضة

بعد الأوبة. ثم خوف الوعيد. ثم رجاء الوعد. ثم جهد العبادة. ثم محاربة الشيطان. ثم مخالفة الهوي. ثم الصبر علي البلاء. ثم الرضاء بالقضاء. ثم شكر العطاء. ثم القناعة

بالقسمة. ثم السخاوة في القلة و الكثرة. ثم الإيثار بالشفقة. ثم حسن التوكل. ثم التوفيق و هو ترك المخاطرة. ثم التسليم و هو النزول عند الحكم. ثم اليقين و هو

الطمأنينة بالوعد. ثم الإخلاص و هو الصفاء عن كدورة الرياء. ثم حلاوة الذكر. ثم

الأنس في الخلوة. ثم فراغة القلب. ثم رؤية المنّة. ثم الشوق و هو الحرقه. ثم الإنابة

و هي الرجوع إلي الله في جميع الأحوال. ثم نسيان الخلق. ثم سعة الصدر. ثم حسن

الظن. ثم الزهد. ثم قصر الأمل. ثم المحبّة و هي الاشتغال عن الخلق و الانفراد مع

الحق. ثم التفكير في العظمة. ثم ذكر سوابق البر. ثم يقين المشاهدة. ثم سرور الوصال.

ثم لطف المكاشفة. ثم أنس الصحبة. ثم راحة المجالسة. ثم نسيم القربة. ثم رياح

التعطف. ثم عرض الملكة. ثم موت الأشباح. ثم حياة الأرواح. ثم مقام الهيبة. ثم

خرس اللسان و انقطاع البيان. ثم فتح الأبواب مع كشف الحجاب. ثم لطف العتاب. ثم ورود الأنوار علي الأسرار. ثم مقام الفناء.

و سئل الشبلي عن معناه(1) فقال: استعجاب فنائك علي أوصافك، و اشتغال الكلّ منه بكليتك، فإذا غاب التشبيه عن الوصف صفت الجوهرة للأكف

قيل: و البقاء؟ قال: من فني الفناء عن أوهامه، أدرك البقاء بتمامه. ثم أنشأ:

غبت عني فما أحسّ بنفسي

و تلاشت صفاتي الموصوفة

1- أي معني العبادة.

فأنا اليوم غائب عن جميع

ليس إلا العبادة الملهوفة

فهذه منازل العباد في العبادة إلي أن يصلوا إلي معبودهم.

وقيل: النَّاسُ فِي الْعِبَادَةِ عَلَي ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ:

فمنهم من يعبد الله علي الخوف، وعلامتهم الهرب من الخلق والبكاء في الخلوة وكثرة التضرع ونحول الجسم وطول السهر و دوام السكوت وترك الشبهة.

و منهم من يعبد علي الرجاء، وعلامتهم جهد العبادة و دوام الخدمة و زيادة البرّ و حفظ السرّ و النصيحة للخلق.

و منهم من يعبد علي المحبة، وعلامتهم حلاوة الذكر و إثارة الطاعة و نشر الآلاء و موالاة الأولياء و معاداة الأعداء.

وذكروا أنّ عمر بن الخطّاب كان جالساً ذات يوم و حوله المهاجرون و الأنصار و في القوم عليّ بن أبيطالب عليه السلام، فسألهم عن أفضل الأعمال، فمنهم من قال قراءة القرآن، و منهم من قال طلب العلم، و منهم من قال الصلاة، و منهم من قال الصيام، و أكثروا الأجوبة و أمير المؤمنين عليه السلام ساكت، فنظر إليه مستفتياً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ من العبادة تركا لها.

قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه(1)

إذا أضرتّ النوافل بالفرائض فافرضوها(2)

اليقين معدن الرسالة.

قد تكذب الهيوف أصحابها ولا يغشّ العقل من انتصحه(3)

بينكم و بين الموعظة حجاب و الغفلة(4).

ص: 84

1- نهج البلاغة: ح 444.

2- نهج البلاغة: ح 279.

3- نهج البلاغة: ح 281 وفيه: قد تكذب العيون أهلها ولا يغشّ العقل من استنصحه. ولعلّ «الهيوف» تصحيف «العيون».

4- نهج البلاغة: ح 282 وفيه: حجاب من الغيرة أي الغفلة.

كَلَّ مَعْجَلٌ يَسْأَلُ الْإِنْتَظَارَ، وَكَلَّ مُؤَجَّلٌ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ (1)

عالمكم مسؤف وغافلکم مزداد (2)

قد قطع القرآن عذر المغترين (3)

فالزم العبادة و اختر لها العزلة، فإنه قيل: العبادة حرفة، حانوتها الخلوة و آلتها المجاعة.

وقد قال المصطفى صلي الله عليه و آله: ما أوحى إليّ: أن اجمع المال و كن من التّاجرين، و لكن أوحى إليّ: أن سبح بحمد ربك و كن من السّاجدين، و اعبد ربك حتّي يأتيك اليقين (4).

ص: 85

-
- 1- نهج البلاغة: ح 285 وفيه: كَلَّ معاجل يسأل الإنظار ...
 - 2- نهج البلاغة: ح 283 وفيه: جاهلكم مزداد.
 - 3- نهج البلاغة: ح 284 وفيه: قطع العلم عذر المتعللين.
 - 4- راجع روضة الواعظين: 454 و الأماي للطوسي: 531.

قال الحافظ رحمه الله:

البرّ اسم لما ندب الله سبحانه إليه عباده من قول وعقد وفعل، وهو إحسان عليّ الابتداء لا يشوبه منّ ولا أذى

و البرّ فاعل (1) البرّ

و المبرّ في لغة العرب الغالب و منه قول الشاعر:

إذا تعاطي الرجال مجدا

أيدهم سبقة المبرّ

و هو عليّ لسان العامة من غلب نفسه و قهر هواها و كسر شهوتها و حملها عليّ ما يقربها إليّ الله تعالى و يبعدها من سخطه.

و البرّ في القرآن عليّ ستّة معان:

أولها التّوحيد و ترك الشّرك، قال الله عزّ و جلّ: «ليس البرّ أن تولّوا و جوهكم قبل المشرق و المغرب» الآية (2) يقول: ليس البارّ من و ليّ

وجهه قبل المشرق و المغرب، ولكن البارّ من صدّق بالله و حده لا شريك له و اليوم الآخر، يعني و صدّق بيوم الجزاء

لأهل الطّاعة و المعصية و الملائكة، يعني و صدّق بالملائكة و عبوديتها و الكتاب، يعني و صدّق بالكتب المنزلة عليّ الرّسل المبعوثين إليّ

الخلق و النبيّين، يعني و صدّق برسالة النبيّين و صدقهم في دعواهم.

ص: 86

1- في الأصل: فعل البرّ.

2- البقرة: 177.

والمعنى الثاني: التقوي، قال الله تعالى: «وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى» يعني ولكن البرّ من اتقى «وأنتوا البيوت من أبوابها وأتقوا الله لعلكم تفلحون».(1)

والمعنى الثالث: فعل الطّاعة، قال الله عزّ اسمه: «وتعاونوا على البرّ والتقوي ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»(2) يقول: تعاونوا على فعل الطّاعة وترك المعصية، ولا تعاونوا على ترك الطّاعة وارتكاب المعصية.

والمعنى الرابع: اتّباع المصطفى صلي الله عليه وآله، قال الله عزّ من قائل: «أأمرّون الناس بالبرّ» يعني باتّباع محمّد صلي الله عليه وآله «وأتسون أنفسكم» يعني وتتركون حفظها «وأنتم تتلون

الكتاب أفلا تعقلون».(3)

والمعنى الخامس هو كمال الطّاعة وغايتها، قال الله عزّ وجلّ: «لن تنالوا البرّ

حتّى تنفقوا ممّا تحبّون»(4) يقول: لن تبلغوا كمال الطّاعة ولن تدركوا غايتها حتّى تبدلوا أنفس الأشياء عندكم وأحبّها إليكم.

ومنهم من جعل البرّ هاهنا الجتّة - والله أعلم - ولا يدخل العبد الجتّة إلا بإقامة

أفضل الطّاعات، وهو التّوحيد وترك الشّرك الموجب للخلود في النّار.

والمعنى السادس: برّ الوالدين والإحسان إليهما، قال الله تعالى يثني علي صفيّه المطهّر يحيي عليه السلام: «وبرّا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا»(5)

وقال يحكي قول العبد المبارك عيسي عليه السلام: «وبرّا بوالدي ولم يجعلني جبارا شقيّا»(6)

ص: 87

1- البقرة: 189.

2- المائدة: 2.

3- البقرة: 44.

4- آل عمران: 92.

5- مريم: 14.

6- مريم: 32.

و البرّ هو الصّدق عند أهل اللسان، فمن قولهم: صدقت و بررت، و كذبت و فجرت و هذا الطّائي (1) يقول:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا

إن برّ عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره

وقد أجلك من يعصيك مستترا

و من أسماء الله تعالى البرّ و البارّ، و هو اللطيف بعباده المؤمنين، المحسن إليهم، المتفضّل عليهم. قوله: «أنه هو البرّ الرّحيم» (2).

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه و آله: البرّ لا يبلي، و الذّنب لا ينسي، و الدّيان لا يفني، كما تدين تدان (3).

وقيل: ثلاثة من أخلاق الأبرار: الاستعداد للموت، و الرضا بالكفاف، و التفويض إلى الله تعالى في حالات الدنيا.

وقيل: دخل ابن السّمّاك (4) علي هارون فقال له: عظني. قال: من يزرع الشوك لا- يحصل العنب، أترجون منازل الأبرار بعمل الفجّار؟ هيهات! للجنّة قوم آخرون و لهم أعمال غير ما تعملون.

ثمّ قال: طلبت العلم سنين فتفكّرت في إبليس فاستغنيت عن العلم، و طلبت [المال] سنين فتفكّرت في قارون فاستغنيت عن المال، فما رأيت شيئا يقربني إلى الله عزّ و جلّ غير قلب ورع و لسان صادق و بدن صابر. ثمّ تلا هذه الآية: «احشروا

الذين ظلموا و أزواجهم» (5) فبكى هارون.

وفيما أوصي به لقمان عليه السلام ابنه قال: يا بنيّ، إن أردت أن تكون من الأبرار فأثر

ص: 88

1- لعلّ المراد: حاتم الطّائي المشهور، وله ديوان شعر. أو أبو تمام الطّائي المتوفّي سنه 231 و هو صاحب الكتاب المسمّي بالحماسة.

2- الطّور: 28.

3- الجامع الصّغير: 1/219 نقلاً عن الجامع لعبد الرزّاق وفيه: والدّيان لا يموت اعمل ما شئت، الخ.

4- هو محمّد بن صبيح ذكره الخطيب في تاريخ بغداد 5/368.

5- الصّافات: 22.

محبّة الله سبحانه علي هواك كفعل التّاصح المرضي لربه عزّ وجلّ، واختر البرّ علي الفجور كفعل المؤمن الزّكيّ، واختر الوفاء علي الغدر
فعل الأمين الوفيّ، ولا ترض

نفسك بالقليل من طاعة الله فعلم المهين الدّنيّ، واجتهد له في عبادته فعل الحريص

الحفيّ، واذكر ربّك في كلّ لمحّة فعل العابد التّقيّ، وجزء الليل والنّهار أجزاء فعل العاقل التّقيّ، وإيّاك واللوم فعل الواضع الدّنيّ، و
عليك بالسّماحة ما ضننت(1)

وقلبك منشرح بالخلف من الله تعالي فعل الموقن الرّضيّ، [وإيّاك و ما يعتذر منه كيما تعلقو وتهتدي.

وقيل: أفضل البرّ أربعة: الحلم في الغضب، والجود في القلّة والكثرة، والورع في الخلوة، واستقبال العدو في الهزيمة.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: إنّ من البرّ كتمان المصائب(2).

وقيل: خمسة من كنوز البرّ: كتمان الفقر، و كتمان المرض، و كتمان الصدقة، و كتمان العبادة، و كتمان السرّ.

ولن يبلغ العبد منازل الأبرار إلاّ بأداء ما فرض الله عليه واجتناب ما نهى الله سبحانه عنه مع إخلاص الصّدقات وصدق السرّاتر و تعظيم
الأمر و سخاوة النّفس و سلامة الصّدر و الشّفقة علي الخلق و مخالفة أبناء الدّنيا و موافقة طلابّ العقبيّ،

فإنّ الجنّة دار الأبرار و النّار دار الفجّار.

أعاذنا الله وإيّاكم من النّار، وأحلّنا وإيّاكم دار القرار.

ص: 89

1- في الأصل: ما أظننت.

2- راجع الدّعوات للراوندي: 167 و البحار: 81/208 و الكامل لابن عديّ 3/234.

قال الحافظ رحمه الله:

التوحيد معرفة الواحد بالأدلة الواضحة، والإقرار به والعمل له، ولا يصحّ إلا بعد انقطاع العبارة والإشارة لأنّ الإشارة إيماء، والإيماء تحصيل، والحق وراء التحصيل. وإذا تكلم المتكلم بالإشارة لا بدّ لإشارته من مشار يشير إليه، وإذا قلت

بالمشار جمعت في كلامك ألفاظا منفيّة عن صفة القديم، فأوله أنّك جعلت له مكانا فأشرت إلي مكانه والثاني جعلت له حدّا فأشرت إلي حدّه والمشار يكون مدركا محاطا به إمّا بالفهم أو الوهم والحقّ خارج عن الأفهام وعلومها والأوهام ودقائقها.

وسئل الصادق عليه السلام عن التوحيد والعدل؟ فقال: التوحيد أن لا تجوّز علي الله سبحانه ما جاز عليك، والعدل أن لا تنسب إليه ما لا ملك عليه (1) فقد جمع عليه

السلام في هاتين الكلمتين جمل (2) حقائق التوحيد.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: سبحان من جعل معرفة العارفين بعجزهم عن الشكر شكرا، كما جعل علم العالمين بأن لا يدركوه إيمانا. سبحانك ربّي ما أعظم ملكك. (3)

وسئل جنيد عن التوحيد، فقال: توحيدينا أفراد القدم عن الحدث ونفي ما علم

ص: 90

1- التوحيد للصّدوق: 96.

2- في الأصل: جمل.

3- راجع الكافي 8/394 والصّحيفة السّجّادية الجامعة للسّيّد الأبطحي: 25.

و جهل، و أن يكون مكان الجميع(1)

أراد - و الله أعلم - بقوله: و أن يكون مكان الجميع(2) أن العالم محتاج إلي حفظه و إمساكه و يبقي بإبقائه، و الخلق يفزعون إليه عند حلول النوائب و نزول المصائب؛ لأنّه الغنيّ بذاته لا يحتاج إلي معين و لا يستعين بظهير.

و سئل بعض المريدين عن حقيقة التوحيد و أقسامه، فقال: التوحيد لفظ جامع يجمع معاني الوحدانية و الأحدانية و الفردانية، ثمّ ينشعب منه إلي توحيد الأفعال

و توحيد الإقرار و توحيد الاعتقاد، ففي الأفعال توحيد الوحدانية، و في الإقرار توحيد الأحدانية، و في الاعتقاد توحيد الفردانية.

و أصل التوحيد معرفة الواحد، فكما أنّ المعروف قد أحاط بممالك الدنيا و الآخرة ألزم كلّ متحرّك و ساكن في الخلائق علي أصنافها معرفته(3)، و معرفته توحيده، و توحيده معرفته بأنّ الله خالقه، و جعل في كلّ شيء عبارة لذكره لحقيقة معرفته به و توحيده إياه، لقول الله تعالى: «تسبح له السموات السبع و الأرض و من فيهنّ و إن من شيء إلاّ يسبح بحمده»(4) و فرض علي الجوارح كلّها معرفته، و المعرفة قبل الإقرار و الإقرار، بعد المعرفة يسمي توحيدا، فمنها الأفعال و منها الإقرار و منها

الاعتقاد، فمعرفة الجوارح الظاهرة من السّكانات في قبول أمره و نهيه و إقامة حقّ طاعته مخلصا له في عبادته فهو توحيد الأفعال، و معرفة الجوارح النّاطقات و المتحرّكات مثل اللسان و السّمع و البصر في الانتفاء عن جميع ما يراه عيانا و يسمعه خبرا ينفي تشبيهه عن الله عزّ و جلّ، فلا يبقي في قلبه موهوم و لا ليعينه

ممثّل معلوم و هو توحيد الإقرار، و معرفة القلوب ستر العيوب في الثري(5) عن

ص: 91

1- الجمع.

2- الجمع.

3- هي مفعول ألزم.

4- الإسراء: 44.

5- كذا.

الخطرات إذا خطرت عرف أنّ الله خالقها وهو توحيد الاعتقاد، فما أحاطت به الأفهام كان معلوم العين وما أدركته الأوهام كان موهوم القلب والمعلوم والموهوم شيء، وقد قال الله عزّ ذكره: (ليس كمثله شيء) (1)

فإذا استكمل صاحبه معرفة التوحيد علي هذه الأصول فذاك موحد صادق وإذا انتقص له شيء من هذه الوجوه فهو موحد لمعرفة أنّ الله واحد إلاّ أنّه كاذب في دعوي الحقيقة بمقدار ما حرم من حقائق التوحيد، ويكون توحيد إقرار التجريد، ومن هذه الجهة وقع التباين والتفاضل في المنازل والدّرجات وهي علي ثلاثة مراتب: تجريد وتفيد وتوحيد. فإذا أقرّ ولم يعتقد كان مجرداً، وإذا اعتقد مع الإقرار كان مفرداً وإذا عمل بعد الإقرار والاعتقاد كان موحداً علي الحقيقة

ولن يبلغ العبد درجة التوحيد إلاّ بعد التّظر في الأدلّة المؤدّية إلي معرفة الباري

من حدث العالم وعجائب الصّنع وآثار القدرة واختلاف الأفعال من إبداع اللغات والهيئات والمناظر وانتظام التّديبير واتباق التّقدير و تركيب الطّبايع وإتقان الصّنع

ورفع السّماوات وبسط الأرضين وإجراء الأفلاك وتزيينها بالكواكب وتسخير الرّياح وتركيب السّحاب وتفجير الأنهار وتسجير البحار و تنوير الظلم وإيضاح البهم

وتحريك الموضوع وتفريق المجموع ونقض العزم وحلّ العقد وتحسين الصّور ومحو الأثر وقهر المنى وضعف الأركان وتحويل الحالات وظهور الآيات مع سائر الأدلّة علي الواحد القديم الفرد الحكيم، قال الله جلّ من قائل: «سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتّي يتبيّن لهم أنّه الحقّ» (2) وقال: «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسهم أفلا تبصرون» (3)

و جري بين بعض أهل ناحيتنا و شيخ يقال له ماجد بن محمّد مناظرة في باب

ص: 92

1- الشّوري: 11.

2- فصّلت: 53.

3- الدّاريات: 21.

التّوحيد فكتب ماجد إلي شيخ الحجازيين وهو أبوسهل محمّد بن سليمان الحنفي(1): ما قوله في رجلين تكلمّا في التّوحيد فقال أحدهما السّؤال عن التّوحيد محال لأنّه مصدر من وحد يوحّد، وقال الآخر: التّوحيد حقّ، وعلمه حقّ، و من أحال السّؤال عنه فقد أحال التّوحيد، و من أحال ففي إيمانه نظر. أيّ القولين أعدل وأصحّ؟! فليذكر فيه شيئاً فإنّ العامّة أسراء الجهال، والله وليّ الصّنع والكفاية.

فورد الجواب: التّوحيد هو أصل الدّين وأوله، والكلام فيه علي تبين سبيله و إيضاح دليله فرض من عقد فروض الملة، و تصريف مصدره و اشتقاقه من الوحدة لا يمنع حقيته و لا يدفع فرضيته(2) و قول من يمانع السّؤال عن التّوحيد درك(3) و فضل من المقال بإحالة السّؤال فيما يحقّق.

وقيل: من كان في توحّده ناظراً إلي نفسه، لم ينجه توحّده من النّار.

فكمال المعرفة التّوحيد و كمال التّوحيد الإخلاص [و كمال الاخلاص] نفي الصّفات عن الواحد الذي لم يزل واحداً علي الحقيقة لا ينقسم و لا يتجزّأ و لا يتبعّض له الوحدة الثابتة، لا يحلّه عرض و لا يزوجه شيء و لا يقارنه ضدّ و لا يساويه ندّ و لا يشاكله مثل و لا يماثله شكل، له الأزل و الأبد و القدم و البقاء.

لا إله إلاّ الله إثباتاً للربوبية و تحقيقاً للوحدانية و إقراراً بالعبودية، يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء، و هو العزيز الحكيم، العادل الرّحيم، الواحد القديم.

ص: 93

1- قال الزّر كلي في الأعلام 6/149: محمّد بن سليمان بن محمّد بن هارون الحنفي من بني حنيفة أبوسهل الصّعلوكي: فقيه شافعي... مولده بأصبهان و سكنه و وفاته بنيشابور... مات سنة 369.

2- في الأصل: «ولا يمنع حقيقته و لا يدفع فرضيته».

3- كذا.

قال الحافظ رحمه الله:

التّجريد هو تصفية العقد والقول والفعل. وقيل: هو الخروج من أثقال المؤمن.

والتفريد إثبات الفردانية للفرد الحكيم، ومعناه في صفات العبد ترك المزاجية والمشاكلة والانفراد مع الحق.

وأما التّسبيح فهو تنزيه القديم تعالي عن صفات المخلوقين ونعوت المربوبين، وهو قول العبد: «سبحان الله» وسبّحه الملائكة المحدقون بعرشه والرّسل المبعوثون إلي خلقه «وإن من شيء إلا يسبح بحمده»⁽¹⁾ ومن أسمائه «السّبّوح» وهو الذي تنزّه عمّا لا يليق من الصّفات والأفعال.

وأما التّحميد فهو كثرة الحمد لله، والحمد هو الثّناء عليه لصفاته الحسني، ومن أسمائه «المحمود» ومعناه المستحقّ للحمد.

وفي الأثر عن رسول الله صلي الله عليه وآله أنّه قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: أما إنّ ربّك يحبّ الحمد، فأكثر الحمد لله وهو ثناء الرّسل والأنبياء في عواقبهم⁽²⁾ وعند هلاك أعدائهم وثناء أهل الجنّة في الجنّة قوله: «وآخر دعويهم أن الحمد لله ربّ العالمين»⁽³⁾.

وأما التّهليل فهو قول العبد: «لا إله إلاّ الله» وهو نفي الإلهية عمّن دون الله

ص: 94

1- الإسراء: 44.

2- كذا.

3- يونس: 10.

وإثباتها، له و هو كلمة الإخلاص و دعوة الحقّ و مفتاح السّماء و الشّجرة الطّيبة؛ أصلها المعرفة، و ساقها اليقين، و أغصانها الشّهادة، و أوراقها العمل، و أثمارها الإخلاص، بها يُقبل الأعمال و تُدرك الآمال.

و أمّا التّكبير فمعناه التّقديم و التّعظيم، و هو إثبات القدم و العظمة لله، و هو قول

العبد: «الله أكبر» يقول: الله أقدم و القديم السابق علي الأشياء كلّها، و من أسمائه

«الكبير» و هو القديم.

و أمّا التمجيد فهو التّشريف، لأنّ المجد هو الشّرف، و المجد الشّريف و الماجد الذي يوجد عنده ما يطلب و هو غاية الشّرف و التمجيد قول العبد: لا حول و لا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

و في الأثر عن النّبّي صلي الله عليه و آله قال: أفضل الكلام أربعة هنّ من القرآن و ليس بالقرآن: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلاّ الله و الله أكبر(1)

و عنه صلي الله عليه و آله قال: من قال «لا حول و لا قوّة إلاّ بالله» كلّ يوم مائة مرّة، لم يفتقر أبدا(2) لأنّه تفويض من العبد أمره، إلي سيّده و مدبّر أمره و إذا فوّض الأمر إلي مدبّر الأمر

و العالم بالأحوال استغني به و لا يفتقر إلي خلقه.

و أمّا التّقدّيس فهو التّطهير، و القدّس الطّهارة، و القدّوس الطّاهر من العيوب، و المقدّس المطهّر بفتح الدّال، و المقدّس موضع القدّس علي ميزان مفعّل، و من أسمائه «القدّوس» و هو الطّاهر من سمات الحدث.

و في الأثر: كان رسول الله صلي الله عليه و آله إذا صلّي الوتر قال ثلاثا: سبحان الملك القدّوس، سبح قدّوس، ربّ الملائكة و الرّوح(3).

ص: 95

1- راجع صحيح ابن خزيمة: 2/180.

2- راجع جامع الأخبار: 144 و البحار: 86/161 و 97/47.

3- راجع صحيح مسلم: 2/51 و مسند أحمد: 6/115 و الكامل لابن عديّ 3/331.

وقالت الملائكة: «و نحن نسبح بحمدك ونقدس لك» (1) يعني ونسبك إلي الطهارة.

وقال الله تعالى لموسي عليه السلام: «فاخلع نعليك إتك بالواد المقدس طوي» (2).

و البيت المقدس لأنه بيت طهره الله سبحانه بالخليل عليه السلام وذريته

عليهم السلام.

و أمّا التّحقيق فهو إقامة السّهادة بالإخلاص، و تصحيح العقد بالثّبات، و أداء المفروض مع الاستقامة و معرفة البارئ جلّ ذكره بالأدلة، و متابعة الرّسل باليقين، وأصله إثبات حقوق الله سبحانه علي نفسه مؤدياً لها موقناً بثوابها.

و أمّا التّنزيه فهو تبعيد القديم عن صفات المحدثين، و التّزاهة البعد، و منه سمّيت الأمكنة الطّاهرة من القذاراة و النّجاسة: نزهة.

و قول العبد: «سبحان الله» يعني تنزيها لله سبحانه عمّا نسبه أهل الإلحاد إليه و وصفه أهل الشّرك به.

و قوله: «تعالى» من العلوّ و الشّرف و الرّفعة، لا من المكان و المسافة.

و قوله: «تبارك» يعني تداوم، و البركة الدّوام، و المبارك الدّائم، و يقال لله تعالى:

مستبح متعال، و لا يقال: متبارك. و قيل: معني قوله: «تبارك» يعني تبرّأ عن الأضداد و الأنداد، فاعلمه رشيداً إن شاء الله عزّ و جلّ.

ص: 96

1- البقرة: 30.

2- طه: 12.

قال الحافظ رحمه الله:

العلم اسم لأوصاف متقاربة بعضها من بعض، منها: الفهم والحفظ والفطنة والبصر والفراسة والطب والشعر والفقهاء والرأي والقياس والحكمة والمعرفة والعقل واليقين.

فالفهم فهو إصابة معاني المسموعات بنظائرها.

وقيل: الفهم وقوع القلب بنور العقل علي الصواب علي سبيل الإصابة والعزيمة.

وقيل: إدراك بواطن الأشياء علي وفاق ظواهرها.

وأما الحفظ فهو ضبط المسموعات والمرسومات بألفاظها.

وقيل: هو تعهد الأملاك علي طريق السياسة والتفقد.

وقيل: هو إمساك الأشياء علي منازلها.

وقيل: هو الرعاية لأسباب المملكة بالنظر الدقيق.

وأما الفطنة فهو إدراك المرموزات بالعلامات، والوقوف علي الإشارات بالدلالات.

وأما البصر فهو رؤية الشيء علمًا أو عيانًا.

وقيل: هو معرفة نفع الأشياء وقيمتها.

وهو في صفة العبد نور في ظاهره يدرك به الألوان، وفي باطنه نور يدرك به الحقائق.

وضدّه العمي، و هو حجاب يمنع العبد عن إدراك ما وصفنا.

وأما الفراسة فهو إدراك المغيبات بالعلامات دون الدلالات.

وقيل: إصابة مخفّيات البواطن بلطيفات الدلائل.

وأما الطبّ فهو علي وجهين: علميّ وفعليّ؛ أمّا العلميّ فهو وقوف الباحث علي مقادير الداء بما يعارضها من قويّ الدواء، وأمّا الفعليّ فهو إزالة الداء بما لطف من الدواء، و ألطف الدواء إنزال الشفاء.

وأما الشعر فهو كلام دقيق مسجّع مقدر القوافي و التّظم.

وأما الفقه فهو إصابة حدّ(1) القياس في ردّ الفروع إلي الأصول بعلمها و هو في اللغة استخراج الشّيء عن الشّيء.

وقيل: الفقه الوقوف علي حقائق الأشياء.

وأما الرأي فهو ما نحيل(2) إلي القياس المتفكّر من... (3) الأمر قبل العقد عليه.

وأما القياس فهو آلة فكريّة يصاب بها تشابه ما بين الشّيئين برهانيّا.

وقيل: إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به بالمعني الجامع بينهما.

وقيل: هو ردّ الشّيء إلي ما يشاركه في علّته.

وأما الحكمة فهو علي وجهين: علميّ وفعليّ فالعلميّ إدراك صحاحات الغرض بلا منازعة شكّ فيه، وأمّا الفعليّ فهو إحكام الفعل علي وفاق الغرض فيه و نصب الدليل عليه.

وأما المعرفة فهو الوقوف علي الشّيء بعد البيان. و اللغة لا يفرق بين العلم و المعرفة إلاّ فرقا ضعيفا.

وقيل: همّة تتبعها اكتساب.

ص: 98

1- كذا تقرأ الكلمة.

2- كذا.

3- هنا كلمة لا تقرأ.

وأما العقل فهو قوّة تكتسب بها العلوم و المعارف.

وقيل: هو المنع عن النسيان و الإدراك بعد الطلب.

وأما اليقين فهو تبين الشيء ببرهان مستبين.

و هذه الأوصاف منها ما يجوز أن يوصف بها الباري، و منها ما لا يجوز، فلينعم الناظر المستدلّ نظره في هذه المعاني حتّى يتّضح له الحقّ بإذن الله تعالى.

ص: 99

قال الحافظ رحمه الله:

إنَّ الله جعل العلم وسائل أوليائه وعِصَم المصطفين من أصفياؤه. به شرف الخلائق و درك الحقائق و حصول التَّعم و زوال التَّعم و اتِّضاح الحقِّ و كشف الشَّبهة، و هو نور ساطع و برق لامع لو استقصينا مدحه لم نزد [علي] ما رواه معاذ عن رسول الله صلي الله عليه و آله: تعلّموا العلم فإنَّ في تعلّمه لله سبحانه حسنة، و طلبه عبادة، و مدارسته تسبيح، و البحث عنه جهاد، و تعليمه من لا يعلم صدقة، و بذله لأهله قربة؛ لأنَّه معالم الحلال و الحرام، و منار سبيل الجنة، و الأُنس في الوحشة و الصَّاحب في الغربة، و الدليل علي السَّراء و الضَّراء و السَّلاح علي الأعداء، و القرب عند الغرباء و الرِّين عند الأخلَاء. يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة يقتدي بهم، و أئمة في الخير يقتص آثارهم و يرمق أعمالهم و ينتهي إلي رأيهم، ترغب الملائكة في خلّتهم و بأجنحتها تمسحهم و في صلواتها تستغفر لهم، حتّي كلّ رطب و يابس لهم مستغفر حتّي الحيتان في البحر و هوامّه و سباع البرّ و أنعامه و السَّماء و نجومها؛ لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، و مصباح الأبصار من الظُّلمة، و قوّة الأبدان من الضَّعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار و مجالس الملوك و الدَّرجات العلي في الدُّنيا و الآخرة، و الفكر فيه يعدل بالصَّيام و مدارسته، بالقيام به يعمل الخير و به يورّع و يوحد، و به يوصل الأرحام و به يعرف الحلال و الحرام، و هو امام

العمل والعمل تابعه، ويلهم السعداء ويحرم الأشقياء(1)

وأصل العلم إدراك الشيء علي ما هو به. وضده الجهل، وهو وهم الشيء علي غير ما هو به.

والعلم عند أهل الجهل جهل، كما أنّ الجهل عند أهل العلم جهل.

وعلم الخير و الشرّ شكلان و فعلهما ضدّان.

وفي العلم شرح الصّدور و نور السّرّ و حياة الأرواح و قوّة الأشباح و فتح الأبواب و رفع الحجاب و طيبة التّربة(2) و شرف التّسبة و علوّ الهمة و فضيلة الحرّيّة و النّجاة من رقّ العبوديّة و عصمة الأبرار و زين الأحرار، و هو بستان الحكماء و روضة الحلما و دعوة الأنبياء و دلالة ربّ السّماء، لا يطلبه إلاّ الهداة المرشدون و لا يتركه

إلاّ الغواة المضلّون.

ص: 101

1- رواه الشيخ الطّوسي في الأمالي مع تفاوت في بعض الألفاظ 2/102. راجع البحار 1/172 و رواه الغزالي أيضا في إحياء العلوم 1/18 مع تفاوت.

2- كذا. ولعلّ الصّحيح: التربية.

في ذكر أنواع العلم

قال الحافظ رحمه الله:

العلم أنواع شتى، وبينها تفاضل وتفاوت حسب تفاضل المعلومات.

أولها علم الحسّ، والحواسّ خمس: السّمع، والبصر، والشّم، والذّوق، واللمس، وعلم البديهة وهو أول درجة العقل. ثمّ علم الاستدلال من الشّاهد علي الغائب. ثمّ الأخبار.

وقيل: العلوم سبعة:

أولها الحواسّ السّليمة،

والتّاني علم الصّرورة،

والتّالث الأخبار المتواترة،

والتّابع القياس،

والخامس الشّواهد والدلائل،

والسادس اللّغة،

والتّابع أخبار الرّسل بعد إقامة الحجّة.

ولا سبيل إليّ درك شيء من الأشياء إلّا بالعقل الكامل واللبّ الوافر.

وقيل: العلم اثنان:

أوله: قريب طريقه، سهل طلبه، سريع وقوعه.

والتّاني: بعيد مقصده، غامض مطلبه، بطيء وقوعه.

وعند الأئمّة عليهم السلام لا يعرف الحقّ إلّا من أربعة أوجه: إمّا حجّة عليّة فاصلة، وإمّا

آية محكمة نازلة، وإما سنة متبعة من رسول الله واصلة وإما إجماع الأمة الفاضلة.

وقيل: العلم علي ستة أوجه:

علم الهوائية، و علم المائية، و علم المنية، و علم الكمية، و علم الأينية، و علم الكيفية(1)

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله : العلم ثلاثة: آية محكمة، و سنة قائمة، و فريضة عادلة، و ما سواهن فهو فضل(2)

وقيل: العلم علمان: علم الفقه لصالح الأديان، و علم الطبّ لصالح الأبدان، و ما سواهما فبلغة مجلس.

و اعلم أنّ العلوم علي وجوه، و لها أقسام:

منها علم الربوبية، و هو ما استأثر الله سبحانه به دون بريته من علم الأزل و الأبد و ما لم يطلع عليه أحد من عباده.

و علم معاجيز الأنبياء عليهم السلام، و هو ما أيدهم الله عزّ و جلّ به من الإلهام و ما أوحى إليهم و اختصّهم به دون الخلق.

و علم التوحيد، و هو معرفة الأديان و المذاهب المختلفة و سمّاه(3) المتكلمون

علم النظر و الجدل.

و علم المعاملة، و يسمّي علم السرّ.

و علم المعرفة.

و علم العبودية.

و علم رياضة النفوس.

و علم التصوّف، و هو بحر عميق.

ص: 103

1- كذا في الأصل، ولعلّ الصّحيح: الهويّة... المتنيّة... الأينية.

2- الكافي: 1/32، والجامع الصّغير: 2/115 نقلاً عن سنن أبي داود وابن ماجّة ومستدرک الحاكم.

3- في الأصل: سميت.

و علم الإشارات، و هو معرفة سعي القلب و الحركات الظاهرة و مراتب العباد و الخواطر الواردة علي القلوب

و علم الفقه، و هو علم العبادات في شرائع الرسول و سنته و معاملات الناس في البيع و الشري و غير ذلك و الحدود و الديات و الفروج و الفرائض و المقدرات.

و علم الأخبار، و هو علم الكتب المنزلة علي الرسول عليهم السلام بتأويلها و تفسيرها و الأخبار المأثورة عنهم صحيحها و سقيمها و أقاصيصهم من لدن آدم عليه السلام إلي سيد المرسلين عليهم السلام آثار الصالحين و أفاظهم في الوعظ و الترغيب و سيدير الملوك العادلة و الجائرة في رسومهم و عاداتهم، و أخبار الأمم المتقدمة و وقائع العرب و أيام العجم و ملح الظرفاء و نوادرهم و رسائل الكتاب و دواوينهم.

و علم اللغة، و هو معرفة الأسماء و التصاريف و النحو و الشعر و المشتق و الموضوع و اختلاف العرب في المعاني.

و علم الطب، و هو معرفة الأغذية و الأدوية و الطبائع السفلية.

و علم النجوم، و هو معرفة الأفلاك و النيرات و سير الكواكب المسعودة و المنحوسة و الأحكام المتعلقة بها.

و علم الرؤيا، و هو معرفة الأحلام الكاذبة و الصادقة و حديث النفس و إلهام الملك و وساوس الشيطان و غلبة الطبائع و فسادها و اعتدالها.

و علم الحساب، و هو معرفة الأصول و الأعداد.

و علم الهندسة، و [هو] تقدير الأشياء و معرفة مقاديرها.

و علم الأنساب⁽¹⁾، و هو معرفة أوائل الأشياء و أصول العالم و فروعها.

و علم الآداب، و هو معرفة الكتابة و الفروسية و الرمي و السباحة.

و علم الزجر و الفال، و هو الوقوف علي الصور و الألوان و أصوات الطيور و اختلايج العروق و غير ذلك مما جرت به مذاهب العرب و العجم.

ص: 104

1- لعلّ الصحيح: الأسباب.

وعلم الحِرَف، وهي الحيل المطلقة للعباد التي يصلون بها إلي مصالحهم.

وعلم الملاهي، وهو ما يتلذذ به الخلق فيما بينهم ممّا أباح الله ورخص فيه ليكون لهم عدّة علي أداء ما فرض عليهم واجتناب ما زجروا عنه.

وعلم المناكير، وهو علم الضرب والقمر (1) والزمر (2) وغير ذلك.

وعلم السحر والتّينج وأشكالهما ممّا لا يصل إليه العبد إلا بمعصية.

فهذه أقسام العلوم المجملة عندنا، والله أعلم.

وقيل: العلم أكثر من أن يحصي، فخذ من كلّ شيء أحسنه. (3)

وقال بعض السلف: ما جاءني ذوفنّ إلا غلبي ولا ذوفنون إلا غلبته.

وذكر لنا عن الشافعي قال: من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلّم الفقه نبّل مقداره، ومن نظر في اللغة رقّ طبعه، ومن تعلّم الحساب جزل رأيه ومن كتب الحديث قويت حجّته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وقد قيل: من اكتفي بالكلام دون الفقه والزهد ترندق، ومن اكتفي بالزهد دون الفقه والكلام تبدّع، ومن اكتفي بالفقه دون الكلام والزهد تفسّق، ومن تقنّن في

الأبواب كلّها تخلّص.

وذكروا عن محمّد بن الحسن (4) قال: لا يدرك علمنا هذا - يعني الفقه - إلا مكفّي زكيّ مشته. ثمّ قال: وأين عبد مكفّي زكيّ وليس بمشته؟!

فالعلماء سُدّج البلاد وزين العباد وأنجم الدّنيا ومصايح الدّجي وأطواد النّهي، بهم ينشرح الصّدور ويتّضح الأمور، وهم دعائم الأحكام ومنار الإسلام ومفزع الأنام. فصنّ العلم وارف قدره وأزع حقه وقرّ أهله واعتصم بحبله وامض

ص: 105

1- القمار

2- التزمر.

3- الكلام لأمير المؤمنين علي عليه السلام، كما في كنز الفوائد للكراچكي الطبعة الحجرية 194، وفي عيون الحكم والمواعظ للواسطي 54: العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيل أحسنه.

4- لعله محمّد الشيباني المتوفّي سنة 189.

علي نهجه، يهدك إلى الحق ويرشدك إلى الصّدق، والله المرشد الهادي، ولا قوّة إلاّ به.

ص: 106

قال الحافظ رحمه الله:

الأدب علي ثلاثة أوجه:

أدب اللسان، وهو صونه عن الكذب والغيبة، وتقويم اللفظ عند الوصف والعبارة.

وأدب القلب، وهو حراسته عند الخواطر الواردة عليه، وحفظه عند الشكوك العارضة والظنون الكاذبة، وربطه عند البلاء بالصبر وعند القسمة بالقناعة وعند

الحكم بالتسليم وعند المصلحة بالتوكل وعند الأمر بالإخلاص والتعظيم وعند النهي بالخشية والهيبة.

وأدب النفس في الخلوة، وهو منعها عما يشينها عند الله وعند الخلق، وحملها علي ما يزينها عندهم

والأدب أصله الدعاء إلي الألفاظ الجميلة، وهو مأخوذ من المأدبة، وهي الدعاء إلي الوليمة.

وقيل: الأدب أربعة أشياء: عرفان وقت كلامك، والإيجاز في لفظك، والإبلاغ لبغيتك، والرضا من الكلام بأقل من حظك.

وقيل: الأدب أولي بالمرء من التسبب، وهو أعدل شاهد علي الحسب.

وفي المأثور عن الرسول صلي الله عليه وآله قال: المؤمن يتأدب بأدب الله سبحانه(1).

ص: 107

1- في البحار: 74/157 نقلاً عن تحف العقول عن النبي صلي الله عليه وآله إن المؤمن يأخذ بأدب الله.

و سمعتُ بعض الأدياء قال: أوصي أبو العباس ثعلب (1) ابنه، فقال: يا بني عظمت الملوك أباك و كان أحد رعيّتها، و عبت الرعيّة ملوكها فشتان ما بين عابد و معبود، يا بني، لولا أدب أبيك لكان للملوك بمنزلة العبيد حملاً أو للإبل حملاً. ثم أنشأ يقول:

خير ما ورث الرجال بنيتهم

أدب صالح و طيب ثناء

فهو خير من الدراهم و الدينار

في يوم شدة و رخاء

تلك تقني و العلم و الأدب

الصالح لا يفنيان حتى اللقاء

إن تأدبت يا بني صغيراً

كنت يوماً

تعدّ في الرفعاء

ص: 108

1- أحمد بن يحيى، نحويّ، كان إمام الكوفيّين في بغداد في زمانه. مات سنة 291. و من آثاره المعروفة: الفصيح في اللغة.

قال الحافظ رحمه الله:

إن أبلغ ما احتج الله به علي عباده العقل، فهو الدالّ علي الله بصنعه والدّاعي إليه

بحججه، وبه يتفاضل الخلق ويحسن الخلق وتزكو الأفعال وتصفو الأقوال وتصحّ الأحوال وتحقّق الآمال.

وقال الصادق عليه السلام: ركّب الله تعالي العقل في الملائكة بغير الشهوة، وركّب الشهوة في البهائم بغير العقل، وركّبهما جميعا في بني آدم. فمن غلب عقله شهوته كان خيرا من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله كان شرا من البهائم(1) قال الله تعالي: «إنّ شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين (2) لا يعقلون».

واختلفوا في حقيقة العقل.

فهو عند اللغويين مشتق من عقال البعير، ومعناه أنّ الله به عقل الخلق، أي منعهم عمّا فيه فساد دينهم وفساد ذات بينهم.

وعند المتكلمين قوّة مميّزة، تميّز بين الحقّ والباطل.

وعند الفلاسفة الإصابة بالظنّ ومعرفة ما لم يكن بما قد كان.

وعند الأطباء صحّة الطّبائع واستقامتها.

وعند الرّهّاد هو عقد من العقود بين الحقّ والباطل وبين الكفر والإيمان، فإذا

ص: 109

1- رواه الصدوق رحمه الله في العلل 1/5 عن الصادق عن عليّ عليهم السلام. انظر البحار 57/299.

2- الأنفال: 22.

انحلّ العقد صار العبد كافراً باللّٰه.

وقيل: العقل هو عقد 1 عن الباطل لصاحبه يشرح الحقّ، له، والهوي هو عقد(1) عن الحقّ لصاحبه يترين الباطل له.

وقيل: العقل أن تتقدّم في كلّ أمر يستقبلك قبل حلوله، بك، فإن عجزت فالحذر عند وقوعه، وإن عجزت فالأقرب إلي التخلّص منه.

وفعل العاقل تأخير العقوبة في سلطان الغضب و تعديل مكافاة المحسن و الأناة(2) في كلّ محدث متشابه.

وقيل: العقل هو العلم بدقائق الأمور. قال اللّٰه تعالي: «و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلاّ العالمون»(3)

وفيما يؤثّر عن رسول اللّٰه صلي الله عليه و آله قال: رأس العقل بعد الإيمان باللّٰه مداراة النّاس و التودّد إليهم(4)

و العقل علي وجهين: عقل حجّة و عقل كرامة؛ فعقل الحجّة، الدلالة و عقل الكرامة العدّة. و الوليّ و العدو يشتركان في عقل الحجّة، و هو الذي يسمّي عقل الإنسانيّة، و يقال هو العقل الغريزيّ.

وقيل: العقل علي وجهين: مطبوع و مسموع؛ فالمطبوع ما طبع عليه الإنسان، و المسموع ما اكتسبه العبد بالاجتهاد و ما تولّد من التّجربة.

و العقل علي اثني عشر وجهها:

أوله: عقل الصّرورة، و هو ما يستدلّ به علي الصّانع و يميّز بين الصّحيح و الفاسد، و يعرف المضارّ من المنافع و الحسن من القبح.

ص: 110

1-1 و 2- لعلّ الصّحيح: عقل، أي منع و مانع.

2- الإعراض. كذا في هامش الأصل.

3- العنكبوت: 43.

4- راجع الجامع الصّغير 2/32 و 33.

والتّاني: عقل الإيمان، وهو ما يدلّ المؤمن علي صحّة الدّين وفساد الشّرك.

والتّالث: عقل يدلّ العبد علي متابعة الرّسول صلي الله عليه وآله وينهاه عن مخالفته.

والتّابع: عقل يدلّ علي موالاة أهل الحقّ و معاداة أهل الباطل.

والخامس: عقل المطيعين، وهو ما يدلّ العبد علي إيثار ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

والسادس: عقل المستقيمين، وهو يدلّ العبد علي إقامة ما أباح الله بالعذر والحجّة.

والسّابع: عقل الزّهّاد، وهو يدلّ العبد علي ترك الدّنيا و طلب العقبي.

والتّامن: عقل الصّدّيقين العارفين، وهو يدلّ العبد علي صفاء الهمة وصدق الإرادة.

والتّاسع: عقل الأوصياء، وهو يدلّهم علي قبول ما ألقى إليهم من الرّسل من العلوم والحكم و علي احتمال ما نزل بهم من المحن.

والعاشر: عقل التّبيين، وهو يدلّهم علي احتمال المحن علي الدّعوة و حفظ الشّريعة كما علّمهم الرّسل.

والحاددي: عشر عقل الرّسل، وهو يدلّهم علي احتمال العجائب وقبول الوحي ورؤية الملكوت و تبليغ الرّسالة و أداء الأمانة.

والتّاني: عشر: عقل الملائكة، وهو يدلّهم علي إيمان العبادة ورؤية المنّة و حفظ الهيبة و تبليغ الرّسالة إلي الرّسل. فعقولهم أنزه لمبائنتها عن أضدادها، لكن الرّسل

أكمل عقولاً لأنّهم أفضل البرية و لمقارنة المحن بهم و نزول البلاء عليهم، فهم كانوا

مع هذه الأوصاف يطلعون علي الغيوب و يقاسون البلاء.

ولقد حفظ رسول الله صلي الله عليه وآله آثار المرسلين و مقام الكرويين و أوصاف الرّوحانيين و أحوال المقرّبين و المبعّدين و درجات التّعيم و دركات الجحيم في ليلة واحدة.

ولقد قال صلي الله عليه وآله: إنّ الله سبحانه رفع لي الدّنيا فرأيت ما يكون في أمّتي إلي يوم ينفخ

وقال صلي الله عليه وآله: زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها(1)

وقد قال صلي الله عليه وآله: أمرت أن أكلم الناس علي قدر عقولهم(2)

و موضع القلب الدّماغ، وقيل: العقل(3) وقيل: موضعه القلب وقوّته من الدّماغ.

قال الله عزّ وجلّ: «إنّ في ذلك لذكري لمن كان له قلب» يعني عقل «أو ألقى السّمع وهو شهيد»(4)

وقال يصفّ رسول الله صلي الله عليه وآله: «ما كذب الفؤاد ما رأى»(5) وإتما رأي ما رأي بما أيده الله تعالى من زيادة العقل.

وسئل بعض الحكماء ما حرفة العارف؟ وما حرفة العاقل؟ وما حرفة العالم؟ فقال: العارف يناجي ربّه بنور المعرفة، و العاقل يدبّر أمر خدمته برأي العقل، و العالم

قائم يستدلّ بعلمه علي الصّواب.

فطوبى لمن أكرمه الله بالعقل وأسعده بصحبة العقلاء، وويل لمن حرّمه الله ذلك، فإنّ سبب النّجاة العقل، وبه ينجو العبد من العقوبات، و يصعد إلي الدّرجات، و يصل إلي الكرامات.

وقيل: العاقل عطار عطره فائح وودّه لائح.

ولقد قلتُ في بعض كلامي: رؤية العاقل تقيّد الحكمة، ورؤية الجاهل تبديد الخطرة(6) صحبة العاقل طرب، و صحبة الجاهل كرب. موت الجاهل خيرة، و موت

ص: 112

1- المناقب لابن شهر آشوب: 1/98، البحار: 18/136.

2- مشكاة الأنوار: 440.

3- في تحف العقول: 371 عن الصادق عليه السلام: و موضع العقل الدّماغ.

4- سورة ق: 37 وراجع الكافي: 1/16.

5- النّجم: 11.

6- كذا.

العقل حسرة. خاتمة العاقل السعادة، وعاقبة الجاهل الشقاوة.

وسئل مطرف بن عبدالله (1) ما الذي لا تعلم له وما الذي لا تغيير له وما الذي لا مرد له وما الذي لا حيلة له؟ قال: تعلم العقل وتغيير العنصر ودفع القدر وحيلة

الموت.

وفي العقل كلام من وجه آخر شرط بيانه غير هذه المواضع، فاعلم ذلك.

ص: 113

1- أبو عبد الله، زاهد من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة. مات سنة 87.

قال الحافظ رحمه الله:

الحكمة أعلي درجات العلماء لأنها العلم الذي لا يقرنه (1) شبهة ولا يشوبه شكّ وهو عند المتقدمين الفلسفة، وهي الحكمة الخالصة التي لا شبهة فيها، وهي علم الأنبياء عليهم السلام

قال الله تعالى: «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة» (2)

وقال في داود: «وآتينا الحكمة وفصل الخطاب» (3)

وقال: «وآناه الله الملك والحكمة» (4)

وقال في وصفه عيسى عليه السلام: «ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» (5)

وقال يثني علي سيد الأنام محمد المصطفى صلي الله عليه وآله: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة» (6)

وقال: يمدح كتابه «حكمة بالغة فما تغني التذر» (7).

ص: 114

1- في الأصل: يقربه.

2- النساء: 54.

3- ص: 20.

4- البقرة: 251.

5- آل عمران: 48.

6- الجمعة: 2.

7- القمر: 5.

وقال: يؤتي «الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا». (1)

وقد اختلف العلماء في معناها؛ فروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: رأس الحكمة

مخافة الله (2) و خير ما ألقى في القلب اليقين. (3)

وقيل: الحكمة إخراج عواقب الأمور عن الغيوب عند ابتدائها.

وقيل: الحكمة الإصابة ووضع الأشياء مواضعها.

وقيل: في الحكمة إصابة الحق و معرفة الخلق وإقامة الصدق.

وقيل: الحكمة علي ثلاثة أوجه: حكمة القول وهي تحسين الألفاظ و تقويم العبارات، و حكمة العقد وهي حفظ الإرادات و تصحيح الخطرات، و حكمة العقل (4) وهي اجتناب المحظورات وإقامة المفروضات.

وقيل: الحكمة الصبر في النوائب و النظر في العواقب.

و الحكمة عندي - و الله أعلم - عبارة عن الوجدانية و إشارة إلي الفردانية و دلالة علي الربوبية و هداية إلي العبودية، يري العبد بنورها الأحكام الإلهية، و يسلك بعدتها طرق الخصوصية. بحرهما القرآن و غواصها الإيمان إيمان، الغيب مع نفي العيب، أصلها الزهادة في الدنيا و مخالفة الهوي و الاقتداء بالمصطفى، و فرعها

الرضا بالقضاء و الأنس بالمولي و النظر إلي العقبي، و ثمرتها رؤية المنة و صدق الإرادة و جهد العبادة، و طريقها الاستدلال بالشواهد و الآيات، و الاعتبار بالحجج و العلامات و الفكر في تحويل الحالات، و التصنع إلي الله سبحانه في الخلوات.

و فيما يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها قيدها، ثم ابتغي ضالة أخرى. (5)

ص: 115

1- البقرة: 269.

2- الجامع الصغير: 2/32، ورواه القمي مع الجملة التالية في تفسيره: 266، راجع البحار: 21/211.

3- رواه الصدوق في أماليه: 292 ورواه في الاختصاص: 342 راجع البحار: 74/133.

4- لعل الصحيح: العمل أو الفعل.

5- في محاضرات الأدباء: 1/50 عن النبي صلى الله عليه وآله الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها قيدها.

وسمع ابن جريج (1) كلمة حكمة، فقال: ضالّتي وربّ الكعبة.

وذكر عن بعض السلف، قال: قالت الحكمة: إذا طلبتني فلم تجدني فانظر أحسن ما تري فاعمل به، وانظر أسوأ ما تري فاجتنبه.

وقال يحيى (2): الحكمة عرائس (3) فإذا وجدت واحدة منهنّ قيّدتها بقلبي وأدخلتها خزانتي، فأبّي لها غيور.

وقيل: راحة الحكماء في وجود الحقّ، وراحة السّفهاء في وجود الباطل.

وقيل: الحكمة سلّم إليّ الباري، من عدمها عدم القرب من باريه.

وقيل: من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

واعلم أنّ أصل الحكمة وجود الصّواب بتصديق الأثر والخبر، وسيلها الصّدق والإخلاص لله وحده لا شريك له، وعلامتها رفض الدّنيا ونسيان الخلق وطلب العقبي والإقبال إليّ الحقّ، وظاهرها ترك الدّنوب، وباطنها إصلاح العيوب، والله

تعالى لشرفها وفضلها سمّي نفسه حكيماً.

فأول درجة الحكمة موافقة العقل، وأوسطها إظهار العدل، وأقصاها بذل الفضل، وهي أجلّ من الدّرة المكنونة في الخزائن المصونة؛ لأنّها تدلّ عليّ الحقّ وتدعو إليه

وتنهي عن الباطل وتزجر عنه وتقرّب إليّ الله عزّ وجلّ في دار البقاء وتبلغ منازل

الأصفياء، وهي حياة الأرواح وقوة الأشباح، ولقاح الأبواب وفصل الخطاب فطوبي لمن أكرمه الله بالحكمة ومنّ عليه بها، بها يرجي في المهمّات ويفزع إليها في المعضلات؛ لأنّها جواهر ذات أثمان يقصر عنها الوصف والبيان، كنوز مرغوبة وذخائر مطلوبة ومعانٍ محجوبة وخزائن مقلّدة وفضائل مهملة، لا يطّلع عليها إلاّ العلماء الرّاسخون، ولا يبصرها إلاّ النّجباء المخلصون، ولا يتلذّد بها إلاّ من قاسي

ص: 116

1- عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، مات سنة 150. انظر الأعلام 4/160.

2- لعلّ المراد: يحيى بن معاذ الرازي الواعظ. مات بنيسابور سنة 258.

3- في الأصل: عرائس.

المحنة فصبر عليها، وسمّ قى بكأس المحبّة فسكر منها، فخاض بحر المودّة فغاص فيها، وصعد عقبات البلايا فهبط منها، وعبر قناطر الامتحان ورتع في رياض الإيمان وذاق لطائف الإحسان وفاز بحقائق الرضوان وعصم من وساوس الشيطان، قد قلّد سياسة العباد وصلاح به فساد البلاد، أقعد علي موائد السرّ وأمطر عليه فوائد البرّ،

فألبس لباس الوفاء وتوّج بتاج الصّفاء، هيهات لو شاهدته لرأيت أمرا عجيبا وقلبا كئيبا وعبدا منيبا، إذا وجدته وظفرت به فأنخ رحلك عنده، تجد الهدى في عبارته والشفاء في إشارته، إن شاء الله.

ص: 117

في ذكر المعرفة

قال الحافظ حفظه الله:

المعرفة نور يبصر به العبد حقيقة الإسلام و بطلان الشرك، ويدلّه علي تحقيق التّوبة و تصديق الرّسالة، و يهديه إلي الصّراط الأعظم و الطّريق الأقوم. و ضدّها النّكرة، و هي ظلمة تحجب القلب عن إدراك الحقّ، و تزيّن له الباطل، و تحثّه عليه.

و من أشكال المعرفة:

اليقين، و هو استقرار القلب علي حقيقة الإيمان. و ضدّه الشّكّ، و هو اضطراب القلب في أحكام الدّعوة.

و الدّهن⁽¹⁾ و هو نور يرد علي القلب شبه الانتباه و ليس بالانتباه. و قيل: هو جلاء القلب عن رين الغفلة. و ضدّه غشاوة تغطّي القلب شبه العمي.

و الانتباه من غفلة أهل الشرك و حيرة أهل الإلحاد و سكرة أهل الصّدّالة. و ضدّه نوم الغفلة و هو ثقل يرد علي القلب يضعف عندها عن قبول خواطر التّوحيد.

و العقل، و هو نور يدلّه علي إثبات الصّانع و وحدته و شكر المنعم و خدمته. و ضدّه الهوي، و هو صفة تثبت هناك فيشبهه عليه الحقّ.

و البصر، و هو نور يدرك به صحّة التّوحيد، و يبصر به حقائق المنة. و ضدّه العمي، و هو حجاب يحجب القلب عمّا يهدي إليه البصر.

و الفهم - و هو ناقد الإيمان - نور يميّز به العبد حجج التّوحيد من دواحض الشّرك

ص: 118

1- الدّهن جمعه أذهان: الفهم و القوّة في العقل. والدّهن جمعه أيضا أذهان: الفطنة و الذكاوة.

و يدرك به معاني التوحيد. و ضدّه الوهم، و هو ظنّ يخيّل إليه الحقّ باطلاً فيشتبه عليه ما ينقده فهم الموحّد و نيّته في حسابان الملحد.
و الفطنة، و هو نور يطلع به العبد علي إشارات الموحّدين. و ضدّه الحيرة، و هو كلال يترك القلب كالتائه الضالّ فلا يبصر إلاّ المصرّح من أحكام الدّعوة.

و الحياء، و هو خجل يرد عند ورود الشّبه عليه. و ضدّه البذاء، و هو جرأة تحمله علي قبول تلك الخواطر.

و الحياة، و هو حركة القلب عند أنوار التّوحيد و قوّته في قبول حججه. و ضدّه الموت، و هي خمود أنوار القلب و ضعفه عن قبول الحجّة.

و الخوف، و هو فزع القلب عند خواطر الشّرك و مخالفة الحقّ. و ضدّه الأمن، و هو سكون الفزع مع نسيان العقوبة.

و الرّجاء، و هو الطّمع الصّادق و الإرادة الصّحيحة لثواب أهل الإيمان. و ضدّه الإياس و هو فقدان تلك [الإرادة]. فهذه أشكال المعرفة.

و اعلم أنّ المعرفة عند بعض المتكلّمين اكتساب و هي العلم بحقيقة الشّيء، و اللّغة لا تفرق بينهما إلاّ فرقا ضعيفا.

و سئل أبو يزيد البسطامي عن حقيقة المعرفة، فقال: المعرفة، باللّهِ الحياة بذكر اللّهِ.

قيل: فما حقيقة الجهل باللّهِ؟ قال: الغفلة عن ذكر اللّهِ.

وقيل: أساس المعرفة العلم بالقدرة و العقد عليه باليقين.

و قال ذوالنون ابن إبراهيم المصريّ: المعرفة علي ثلاثة أوجه: معرفة بالوحدانيّة من طريق الخبر علي لسان الحجّة بدليل الكتاب و السنّة، و معرفة بالفردانيّة من طريق العظمة علي لسان التّوحيد بدليل الجود و الكرم، و معرفة بالقدرة من طريق الاجتهاد علي بساط الصّفاء في ميدان الإحسان و التّعمة.

وقيل: المعرفة انكشاف الشّبهة و انجلاء الظّلمة.

وقيل: المعرفة رؤية المنّة في إظهار الخلقة و تحسين الصّورة و إقامة الأدلّة.

وقيل: المعرفة انقطاع العبارة و الإشارة، و ظهور الحقائق و بطلان الدقائق.

و أما معناها علي لسان التصوف، فالمعرفة بالله هي الجهل بالله، والجهل قبل العلم كفر و بعد العلم معرفة، وأصل المعرفة النكرة [و] ليس من حقيقة المعرفة ما دلّ عليه بالعبارة أو عناه بالإشارة.(1)

حقيقة المعرفة خارجة عن الأفهام مخالفة للأوهام، لا يظهر الحقائق ما لم يبطل الدقائق.

حقيقة معرفة المعروف ليس في شيء من الحروف. اللسان و العبارة و البيان و الإشارة طريق علم المعرفة و ليست بمعرفة، فإذا خرس اللسان و وقف البيان فهناك وقع الكشف عن نور المعرفة و ليست بمعرفة، فإذا فقد نفسه في نفسه و خلا قلبه عن قلبه نودي عليه بالفناء و أنزل في مدارج البقاء، فعلي قدر تلك البصيرة كشف له عن الحقيقة

و لا يصحّ الإيمان إلا بصدق المعرفة، فإن كان الإيمان برّب مجهول فذاك كفر التعطيل، و إن كان برّب معلوم فذاك شرك التشبيه، مجهول بنفي الصفات، معلوم بوصف الصفات و الله معلوم العلم لا معلوم العيان، فصفاته للمعرفة ثابتة بلا كيف.

و مثل المعرفة و الإيمان كمثل الأرض و البنيان؛ فالبنيان يثبت في الهواء علي استواء الأصل، و الإيمان بالغيب يصحّ علي استقامة الأصل، و الأرض أصل ثابت بالقدرة بلا أسباب، و المعرفة أصل قائم بالمنة من غير اكتساب.

و سئل الشبلي: أي شيء أعجب؟ قال: قلب عرف الله ثم عصاه، و المعرفة بالله (2) و حياة القلب مع الله، و من جهل قدره هتك ستره.

وقيل: المعرفة رؤية الربّ من طريق الدلالة فقد سأل أعرابي أمير المؤمنين صلوات الله عليه و علي ذريته فقال: هل رأيت الله؟ قال: ما كنت لأعبد شيئاً لم أراه!

ص: 120

1- في الأصل: مادّ دلّت عليه العبارة أو عناه (عنته) الإشارة.

2- كذا في الأصل.

قال: وكيف رأيتَه؟ قال: لم تره الأبصار مشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجور في قضيتَه، هو الله لا إله إلا هو. قال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل الشرف. (1)

وقد قيل: المعرفة مشاهدة الحق ونسيان الخلق، وعلو الهمة في أوطان المنّة.

وقيل: العلم علم جهل والمعرفة معرفة إنكار، والتوحيد توحيد إحد، والمشاهدة مشاهدة جحود.

وقيل: المعرفة ورود الأنوار علي الأسرار فتضييق عن احتمال ما أشارت إليه من التعوت والصفات، فالتمأمل مصروف والمتفكر محجوب.

وقيل: المعرفة كشف الحجب الجسمانيّة ورفع الأستار الروحانيّة حتّي لا يبقى ستر ولا حجاب، فيظهر الحق للمحقّ وينقطع المحقّ إلي الحقّ، فزالت الوسطة بين الحقيين المتّصلين اقتارنا واقتدارا.

وقيل: المعرفة مع المؤانسة، والمؤانسة مع الوحشة، والوحشة مع الفرقة، والفرقة مع الحرقه والحرقه، مع الغربة، والغربة مع القربة، والقربة مع الوصلة، والوصلة مع الرؤية، وهي زوال الشبه عن خواطر العارف.

واعلم أنّ للمعرفة وجوها ومراتب، فأوله معرفة الله عزّ وجلّ بأن يعرفه بالوحدانيّة والعلم والقدرة والحكمة والقدمة والبقاء والعظمة والكبرياء والرأفة

والرحمة والمشية والإرادة.

ثمّ معرفة الرّسل بالصّفاء والطّهارة والقدس والرّسالة والعلم والنّبوة والآيات والمعجزة.

ثمّ معرفة الكتب المنزلة بالصدّق والحقيقة والحجّة والحكمة والنّظم والإعجاز واللفظ والإبلاغ.

ثمّ معرفة الشّرائع بالحدود والأوقات.

ص: 121

1- راجع الكافي: 1/97 و 98 والتّوحيد للصدوق رحمه الله: 108.

ثمّ معرفة ولاة الأمر بالإمامة و الخلافة و العدل في القضيّة و الحكم في البريّة و مراتب الفاضل و المفضول.

فأول ما يجب علي الإنسان معرفة نفسه بما ركّب الله عزّ و جلّ فيه من العجائب اللطيفة و الآثار الشريفة الدالة علي صانعها و مبتدعها. فقد قيل: من عرف نفسه فقد

عرف ربّه. (1)

ثمّ معرفة العالم، فإنّ فيها عجائب الصّنع و لطائف التّدبير و آثار الرّبوبيّة و أعلام

الإلهيّة من الخلق العجيب و العقل اللطيف، و هي الأنفس و الآفاق.

ثمّ معرفة الأمر و التّهيّ اللذّين يقربان العبد إلي ربّه إذا رعاهما، و يبعدان عنه إذا

ضيّعهما.

ثمّ معرفة الوعد و الوعيد اللذّين جعلوا باب الخوف و الرّجاء، و سبب الثّواب و العقاب.

ثمّ معرفة الأولياء و الأعداء فيتولّي الوليّ و يتبرأ من العدو، فإنّ الحبّ و البغض في الله فريضتان علي العباد.

ثمّ معرفة الآفات التي تدخل في أعمال العبد فتبطلها و تفسدها، فإنّ اتّقاء الشّرّ أفضل من فعل الخير. و قيل: دوام الفقر إلي الله مع التخليط أفضل من دوام الطاعة مع

العجب.

ثمّ معرفة الخلق ليعاملهم علي قدر عقولهم و مراتبهم، فلا يضع الأبرار و لا يرفع الفجّار.

ثمّ معرفة الزّمان و الأيّام حتّي يصبر علي المحن الواردة [و] علي ما يقاسي من دول الأشرار.

ثمّ معرفة الأغذية و الأدوية ليقنصر علي ما هو أقرب إليه نفعا و أبعد منه ضررا، و يصل بقوة تلك المعارف إلي ما فيه صلاح دينه و قوّة جسمه و اعتدال طبعه

ص: 122

1- انظر مصباح الشريعة 13، مطلوب كلّ طالب 5، عيون الحكم و المواعظ 430.

و استقامة أسبابه.

واعلم أن أول أحوال العارفين التحير عند المشيئة. ثم الافتقار إلى الرحمة. ثم

الاحتقار في العظمة. ثم الاعتبار بالأدلة. ثم الاصطبار على البلية. ثم الاضطرار عند القدرة. ثم التحير؛ وهي الحالة التي تورد عليه الخرس والعمي والبكم حتى كأنه

ميت انقطاعا إلى الله ولها عليه، فجفت أوصافه و نفدت أنفاسه. سروره ممزوج بحزنه، و حزنه ممزوج بسروره، له حنين التكلي وأنين المرضى.

ولقد قلت في بعض كلامي: علامة العارفين عشرة أشياء:

أولها: انبساط القربة مع هيبة الربوبية.

و الثاني: جهد العبادة مع رؤية المنة.

و الثالث: حياء المراقبة مع يقين المشاهدة.

و الرابع: صدق الإرادة مع حسن المعاملة.

و الخامس: حسن الظن مع وفاء العبودية.

و السادس: ترك الدنيا على موافقة السنة.

و السابع: خوف القطيعة مع طمع الوصلة.

و الثامن: صفاء الهمة مع استقامة الطاعة.

و التاسع: كمال الفتوة مع تمام المروءة.

و العاشر: أدب الخدمة مع أنس الصحبة.

وقيل: مثل المعرفة في القلب كمثل شجرة نابته في أرض سبخة ساقها؛ اليقين، وأغصانها التوكل، وأوراقها الشوق، و ثمرها المحبة. فالطاعة للسبخة طينها، والذكر للشجرة ماؤها، والتفكر للساق تنقيته عن نوابع (1) منابته، والعزلة للأغصان تهذيبها، والإخلاص للأوراق حرزها عن مهب رياحها. فإذا استوسقت الشجرة واعتدلت أغصانها و التفت أوراقها و طاب أرض مغرسها بطاعة دائمة - و الطاعة تطيينها،

ص: 123

و يقوت الشجرة بالماء الدافق عند أصلها، و الذكر ماؤها فيرويها- استقامت و استقرت، فإذا استقامت و استقرت كثرت الأطماع فيها، من جهتها يكاد الساق أن يخرج أغصانا و هو الشكّ يخالط اليقين، و تكاد الأغصان أن تنحني و هو المراد(1) يفسد التوكل، و تكاد الأوراق أن تنتثر لهبوب الرياح عليها و هي وساوس الشيطان يريد أن يحجب بين صاحبها و إرادة الشوق للوصول إلي ثمرة المحبة. فإذا سلمت الشجرة عن هذه العاهات، ظهر بها نضارة الرضا فيتقلب صاحبها في حسنها و يتمتع بزهرتها و نضارة بهارها(2) إلي أن يثمر المحبة فيجتنبها بيد العبودية و يقضمها بأسنان المنّة، ذلك ثمار المعرفة و شراب المحبة.

ص: 124

1- كذا ولعلّ الصّحيح: المرء.

2- أي جمالها.

في ذكر اليقين

قال الحافظ حفظه الله:

اليقين هو الطمأنينة بالشئ واستقرار القلب عليه. يقال: أيقن الماء في الحفرة: إذا استقر. وضده الشك، وهو تردد القلب بين التفي والإثبات.

وباليقين يستقيم العبد علي الطاعة، وبه يزهد في الدنيا ويتركها، ويطلب الآخرة ويرغب فيها. وبالشك يؤثر الدنيا علي الآخرة وينسي الموت ويصرّ علي المعصية.

وعذر الله عبدا كفر لسانه وأيقن جنانه خوفا علي نفسه؛ قال الله تعالى: «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان و لكن من شرح بالكفر صدرا

فعليلهم غضب من الله و لهم عذاب عظيم»(1) و لم يعذر من آمن لسانه و شك جنانه، و هم المنافقون؛ قال الله عزّ و جلّ: «و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين».(2)

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: ما أخاف علي أمّتي إلا ضعف اليقين(3)

ذكر عن الحسن(4) قال: باليقين يبلغ العبد الجنّة و باليقين يهرب من النار.

و قال الثوري(5): لو أنّ اليقين ثبت في القلب كما ينبغي، لمات الانسان ترحاً(6) أو

ص: 125

1- النحل: 106.

2- البقرة: 8.

3- الجامع الصغير: 2/240 نقلاً عن البيهقي في شعب الإيمان.

4- البصري. ظ.

5- هو سفيان بن سعيد الثوري، مات سنة 161 في البصرة.

6- الترح: الحزن والهم.

وإنَّ الخليل عليه السلام طلب مشاهدة فعل الربوبية ليطمئن قلبه، وهو الزيادة في اليقين حين قال: «ربَّ أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن؟» يعني توقن «قال بلي ولكن ليطمئن قلبي (1) عني قلب أصحابه، فإنَّ اللعين (2) قد شكَّكهم في إحياء الموتى بما التبس عليهم من قتل واحد وإبقاء آخر (3)

وقد أراه الله ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين (4)

وعرضت الملكوت بما فيها علي المصطفى الحبيب صلي الله عليه وآله وأطلع علي أسباب الغيب إلي يوم القيامة ليبلغ أعلي درجات الموقنين.

وإصطفى الله سبحانه أقواما بالإمامة ليقينهم وصبرهم؛ قال الله تعالى: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لِمَا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون». (5)

وأظهر في العالم أدلة وآيات لأهل اليقين. قال الله عزَّ وجلَّ عليهم السلام «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون». (6) واليقين علي وجوه:

يقين يقع بعد الحسِّ وهو الذي لا يشوبه شكّ.

و يقين بالأخبار الصادقة.

و يقين المستدلَّ بعد قيام الدلالة الواضحة.

و يقين العارفين بتوحيد الله.

ص: 126

1- البقرة: 260.

2- أي نمرود؛ فرعون إبراهيم الخليل.

3- إشارة إلي الآية 258 من البقرة: قال: أنا أحيي وأميت.

4- إشارة إلي الآية 75 من الأنعام.

5- السجدة: 24.

6- الذاريات: 20.

و يقين المطيعين بوعد الله و وعيده... (1)

و يقين الأنبياء و الرسل بالآيات الملكوتية و الآثار العلوية و الدلائل الربانية

و الأسرار الإلهية، و هو أشرف مراتب اليقين.

[و] عن بعض الصالحين، قال: من أيقن أنّ الله لا يشارك في التدبير استعتق من ذلّ المطامع، و من استفتح الأبواب بغير مفاتيح الأقدار و كل إلي المخلوقين.

و اعلم أنّ العبد لا يسلم من وساوس الشيطان و لا يعبر قنطرة الامتحان و لا يصبر علي مضض المكروهات و لا يستقيم علي الطاعات و لا يؤدّي الحقوق و لا يقبلها و لا يهجر أسباب الدنيا و لا يستعدّ للموت و لا يطلب حياة الأبد إلاّ بقوة اليقين؛ قال الله تعالي: «الذين آمنوا و تطمئنّ قلوبهم بذكر الله» يعني توقن قلوبهم عند ذكره «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب» (2) يعني قلوب العارفين الموحّدين؛ لأنّ العارف إذا أيقن بربّ معروفه استأنس به و اطمأنّ علي بابه، فظهرت الأيادي الشريفة منه و قبلها علي قدر نفسه، فاعلمه حميدا.

ص: 127

1- هنا سقط من الأصل بقدر سطر.

2- الرعد: 28.

ذکر الہدی

قال الحافظ حفظه الله:

الهدی علی وجهین: ظاهر و باطن

أمّا الظّاهر: فمنه الدّعوة قال الله تعالی لنبیہ صلی الله علیه و آله: «وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (1) أي لتدعو.

و منه التبيين، قوله عزّ ذكره: «وهديناه النّجدين» (2) يعني وبيّنّا له الطّريقين: طريق الخير و الشّرّ. قال: «وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمي علي الهدى» (3) يقول: فيبيّنّا

لهم الحقّ فاختروا الضّلالة علي الهدى.

و منه الإصلاح، قوله: «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» (4) يعني لا يصلح و لا يصوّب.

و منه الرّحمة، قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ» (5) يعني لا يرحمهم ما داموا علي كفرهم و كذبوا. وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (6).

ص: 128

1- الشّوري: 52.

2- البلد: 10.

3- فصّلت: 17.

4- يوسف: 52.

5- الزّمر: 3.

6- النّحل: 104.

و منه التثبيت علي سبيل اللطف، قوله جلّ جلاله: «وإنّ الله لهادئ الذين آمنوا إلي صراط مستقيم» (1) يعني يثبتهم عليه.

و منه الإثابة، قوله: «و الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم و يصلح بالهم» (2) يعني سيثيبهم؛ لأنّ هدي المقتول في سبيل الله لا يكون إلاّ إلي الثواب.

و منه النجاة، قوله عزّ و جلّ حكاية عن أهل النار: «لو هدانا الله لهدينا كم» (3).

و منه الحجّة قوله: «و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هديّ من الله» (4) يعني بغير حجّة.

و أمّا الباطن: فشرح الصّدّر بالأدلة الواضحة و إزالة الشبهة الشيطانيّة.

و أصل الهدى ما يهتدي به العبد من إقامة الدّعوة و بعثة الرّسل و إنزال الكتب و إيضاح الطّريق، قال الله تعالى: «فإمّا يأتينكم منّي هديّ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون» (5) و قال: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» يعني بالأدلة الباهرة «و من يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً» (6) يعني بالزيادة في الحرج و نصرة الحقّ و قمع الباطل.

و ضدّ الهدى الإضلال، و معني الإضلال من الله: إبطال عمل الكفّار في الدّنيا و منعهم في الآخرة عن الثّواب؛ لأنّه عادل لا يضلّ عبده عن دينه و لا يجبره علي الكفر و لا يحيره في الحقّ و لا يشبّهه عليه الأمر، ثمّ يعذّبه مخلداً في النار.

ص: 129

1- الحجّ: 54.

2- محمّد: 5.

3- إبراهيم: 21.

4- القصص: 50.

5- البقرة: 38.

6- الأنعام: 125.

فإن سأل عن قوله: «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء». (1)

فمعناه: الثواب لم يكن إلي المصطفى صلي الله عليه وآله لأنه لم يعلم ضمائر من خرج من الدنيا علي كفر كان أم علي الإسلام.

فإن قال: لِمَ أطلق الدعوة وقيد الهدى بالمشيئة قوله: «و الله يدعو إلي دار السلام ويهدي من يشاء إلي صراط مستقيم». (2)

قلنا: لأن الدعوة عامة استحقتها الكل، والهدى هو الثواب علي قبول الدعوة لا يعطي إلا من استحقه.

فإن سأل عما رواه عن رسول الله صلي الله عليه وآله: «بعثت داعياً و مبلغاً و ليس إلي من الهدى شيء، و سلط الشيطان داعياً و مزيتاً و ليس إليه من الإضلال شيء، بل الله يضل من

يشاء و يهدي من يشاء» (3) فمعني الهدى هو الثواب في الجنة علي ما قلنا، و معني الضلال العقوبة علي الإعراض عن الحق. فأبان صلي الله عليه وآله أن المثيب و المعاقب علي الحقيقة خالق الثواب و العقاب و يوصلهما إلي أهلها علي الاستحقاق؛ لأن العالم بالسرائر و الضمائر؛ لا يخفي عليه شيء، و كان يخفي علي المصطفى صلي الله عليه وآله و آلها أحوال المثاب و المعاقب.

و لا يهتدي العبد إلا بهدي الله جل ذكره؛ لأنه بعث الرسل و أنزل الكتب و اتخذ

الحجة و أعذر في النصيحة و صرح الدعوة و أزال الشبهة و ركب من الآلة ما لو تفكر

فيه العاقل و اعتبر فيه لأبصر الحق و عرف الباطل، قال الله تعالى: «من اهتدي فإنما

يهتدي لنفسه و من ضل فإنما يضل عليها». (4)

و قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنما تنشأ الفتن (5) من أهواء تتبع و آراء تبتدع تخالف فيها

ص: 130

1- البقرة: 272.

2- يونس: 25.

3- الجامع الصغير: 1/216 بتفاوت يسير نقلاً عن ابن عدي في الكامل.

4- الإسراء: 15.

5- في الكافي: أنما بدء وقوع الفتن.

كتاب الله و سنة نبيه. أما و الله لو خالص الحق لم ينكره أحد، أما و الله لو خالص الباطل لم يقبله أحد، و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان جميعا فيجاء ان(1) معا فهناك استولي الشيطان علي أوليائه و نجا الذين سبقت لهم من الله الحسني.(2) قال الله تعالى: «إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا»(3)

فليت شعري كيف يتخذ المغرور الشيطان عدواً و إنما بزعمه أضله مولاة و منعه عن الهدى و طبع علي قلبه و ختم علي سمعه و بصره، و لا ينفعه دعاء داع مع إضلال سيده إياه، و لا يضره وساوس شيطانه مع هداة إياه، بل الله أولي بالعداوة من الشيطان الضعيف بزعم هذا البأس المقلد لمن لم ينظر في حجج العقول الخالصة عن الميل و العصبية، و الآيات المحكمة النازلة و السنن الواردة الصّحيفة، فكيف يصف ربه بالعدل من نسب إليه أقبح فعل و أخبث سعي و جوز عليه ما لا يجوز عليه علي أفسق فاسق و أعتي ظالم. تعالي الله عن قول الجائرين و دعوي المبطلين علواً كبيراً.

ص: 131

-
- 1- في الأصل: فيجئان، و في الكافي: فيجللان، و في النهج: فيخرجان.
 - 2- رواه اليعقوبي في التاريخ: 2/191 و الكليني في الكافي: 8/57 و الرضي في النهج الخطبة 49 مع تفاوت في بعض الجمل و الكلمات. راجع مصادر نهج البلاغة 2/19.
 - 3- فاطر: 6.

قال الحافظ حفظه الله:

الإلهام في اللغة إيصال الشيء إلى الشيء. يقال: التهم الرجل الطعام: إذا ابتلعه. فالإلهام لازم والإلهام متعدّد، وهو علي لسان العام إيصال العلوم إلى الخواطر بلا

واسطة، أو تعريف العبد ما فيه صلاحه وفساده. قال الله عزّ اسمه: «و نفس و ما سوّاهما فألهمها فجورها و تقواها»⁽¹⁾ يقول: فعرفها طريق التقوي و الفجور. و الإلهام فعل الملهم و الملهم، هو الله تعالى. و عند بعضهم الملهم ملك مسلّط علي القلب و الإلهام قوله و دعوته.

و ضدّ الإلهام الوسوسة، و الوسوسة قول الوسواس، و الوسواس هو الشيطان، و هو يدعو إلي ضدّ ما يدعو إليه الملهم، و قد أمر الله بالاستعاذة منه، فقال: «قل أعوذ بربّ الناس، ملك الناس، إله الناس، من شرّ الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة و الناس»⁽²⁾ و قد قيل: معناها شيطان جاثم علي قلب ابن آدم، فإذا غفل وسوس، و إذا ذكر الله خنس.

و في الأثر: يقول الشيطان: كيف يفلت منّي ابن آدم؟! فإذا غضب طرت في رأسه و إذا سكن قعدت علي قلبه.⁽³⁾

ص: 132

1- السّمس: 7.

2- سورة النّاس.

3- راجع الدرّ المنثور: 5/365 لابن أبي و المصنّف لأبي شيبة: 8/231.

وروي أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لولا أن الملائكة تدب عنكم الشيطان كما تدب الزنابير عن اللحم لأكلتكم الشيطان كما تأكل الزنابير اللحم (1)

وذكر عن ابن مسعود قال: ما من أحد من ابن آدم إلا وله لمتان: لمة من الملك، و لمة من الشيطان. فلمة الملك اتعاد بالخير و تصديق بالحق و تطيب بالنفس، و لمة (2) الشيطان اتعاد بالشر و تكذيب بالحق و تخبيث بالنفس. (3)

قال الحافظ:

و الملك يدعو إلي ترك الدنيا و طلب الآخرة و مخالفة الهوي و ترك الشهوات و ذكر الموت و قصر الأمل و حراسة القلب و إخلاص العمل و ذكر المنة و شكر النعمة و حسن الظن بالله و كثرة الذكر له و أشكال ذلك.

و الشيطان يدعو إلي طلب الدنيا و نسيان الآخرة و موافقة الهوي و متابعة الشهوات و طول الأمل و الركون إلي الدنيا و الحرص عليها و الرياء عند الأعمال و الإعجاب بها و الشك في الموعود و سوء الظن بالله و الإعراض عنه و هتك السر

عند حلول المصائب و كفر النعم و السخط عند الحكم و أشباه ذلك من أضداد الخير.

و النفس طالبة الشهوات، و الهوي يزيتها و الشيطان يدعو إليها، و الروح تشتاق إلي الملكوت، و العقل يدل عليها و الملك يدعو إليها. و القلب خزائن جواهر الحق، و الشيطان يطمع في القبض عليها و الظفر و الملك يمنع و الهوي يعينه، و العقل يزجر الهوي و الروح تساعده و النفس توافق الهوي و تميل إليه، فمن أطاع النفس و اتبع الهوي و وافق الشيطان كان مثله كما قال الله تعالى يصف من أخلد إلي الأرض:

ص: 133

1- راجع كتاب المؤمن: 16 و الاختصاص: 30 والبحار: 37/165.

2- في الأصل: «امة» مكان «لمة» في جميع هذه المواضع، و الظاهر أنها تصحيف.

3- راجع الكافي 2/330 و البحار: 70/39 و 50 و النهاية لابن الأثير: 4/273.

«وَاتَّبِعْ هَوَاهُ» (1) فَأَدْرَكَتَهُ الشَّيْءَ تَمَاقُوتَهُ وَحَلَّتْ بِهِ الْعُقُوبَةُ، وَصَارَتْ عَدِيلُ الْكَلْبِ مَبْعَدًا عَنِ الْكِرَامَةِ. وَمَنْ خَالَفَ النَّفْسَ وَوَافَقَ الْعَقْلَ وَاتَّبَعَ الْمَلِكَ، أَدْرَكَتَهُ السَّعَادَةُ وَظَفَرَ بِالْكَرَامَةِ وَصَارَ فِي الْمَقْرَبِينَ الْمَرْفُوعِينَ إِلَى أَعْلَى عُلْيَى.

ص: 134

1- الأعراف: 176.

الحجّة اسم لما احتجّ الله به علي عباده من العقول المركّبة فيهم والرّسل المبعوثين إليهم و الكتب المنزلة عليهم والأدلة الموضوعة لهم و غير ذلك من الآلة (1) السّليمة التي جعلت سببا للتصّرف في أمور دينهم و دنياهم.

وأصل الحجّة إقامة الدليل علي تحقيق الحقّ و بطلان الباطل؛ قال الله تعالى: «قل فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين» (2) وقال: «رسلاً مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس علي الله حجّة بعد الرّسل» (3) وقال: «ألم تر إليّ الذي حاجّ إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي و يميت» فاستدلّ علي خالقه بأفعاله، فلبّس اللعين علي قومه فأحضر برجلين فقتل أحدهما و ترك الآخر «فقال: أنا أحيي و أميت قال إبراهيم إنّ الله يأتي بالشّمس من المشرق فأنت بها من المغرب» أراد - و الله أعلم - إنّ من قدر علي الإحياء و الإماتة هو الذي يأتي بالشّمس من مشرقها، فإن كنت قادراً عليه فأنت بها من مغربها «فبهت الذي كفر و الله لا يهدي القوم الظّالمين» (4) يعني لا يرشدهم للاحتجاج فإنّهم في دعواهم مبطلون

ص: 135

1- لعلّ الصّحيح: «الأدلة» أو «الآلات».

2- الأنعام: 149.

3- النّساء: 165.

4- البقرة: 258.

وقال يصف الخليل عليه السلام أعداءه فقال: «و حاجه قومه قال أتجاجوني في الله وقد هدان» - يقول: خاصمه قومه، فقال: أتخاصموني في دين الله وقد عرفني الاحتجاج عليكم «و لا أخاف ما تشركون به» يعني الأصنام واللعين نمرود «إلا أن يشاء ربي شيئا» يعني إلا أن يصيبني ربي مكروها، فإني أخاف عدله وأحذر عقوبته «وسع ربي كل شيء علما» يعني مالا كل شيء علما «أفلا تتذكرون».

ثم أكد الحجّة، فقال «و كيف أخاف ما أشركتم» يعني اللعين والأصنام المعبودة «و لا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا» يقول: لا تخافون

خالقكم الذي يلزمكم عبادته وقد أشركتم به، وليس لكم علي ذلك من حجّة و بيان «فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون» يقول: فأأيّ أهل دعوي أحقّ بالأمن من العقوبة؟ من له الحجّة أو من لا حجّة له؟ إن كان لكم علم بالحجج.

ثم بين لمن الأمن و الحجّة، فقال: «الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم» يعني بشرك أو نفاق أو كبيرة من الكبائر «اولئك لهم الأمن و هم مهتدون» في الدنيا إلي

الحجّة و في الآخرة إلي الجنة.

فلما ألزمهم الحجّة و عجزوا عن الجواب دبروا في إهلاكه و الإضرار به من قتل و حرق أو نفي، فدمر الله عليهم و ردّ الكيد في نحورهم و أثني عليه في الكتاب المنزل علي النبي المرسل، فقال: «و تلك حجّتنا آتيناها إبراهيم علي قومه نرفع درجات من نشاء» بالحجج الباهرة «إنّ ربك حكيم عليم» (1)

فَدَمَّ أقواما أسسوا دعاويهم علي الجدال دون الحجّة، فقال: «و الذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له» يقول: و الذين يخاصمون في دين الله أو يتكلمون في ذات الله من بعد ما أقرّوا به «حجّتهم داحضة عند ربهم» سمي مقاتلهم حجّة علي سبيل الاستعارة لأنهم كانوا يحتجون بتلك الشبه علي من خالفهم «و عليهم غضب»

ص: 136

بما اجترؤوا علي الجدال في دين الله «و لهم عذاب شديد»(1) بما أظهروا من التّكذيب و أصبروا عليه

وقال: «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم» يعني بغير حجّة «كبر مقتا عند الله» يقول: عظم بغضا عند الله «وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله علي كلّ قلب متكبر» عن قبول الحجج «جبار»(2) بعمل ما لا حجّة له

وانّ الله تعالي لمّا دعا الخلق إلي عبادته و ألزمهم الإقرار بربوبيّته، أقام الأدلّة علي تحقيق دينه بما أبدع من العالم و أحدث من الصّور و أظهر من العجائب و وضع من البراهين، و لمّا أرسل الرّسل دُعاةً إلي دينه أيّدهم بالمعاجيز و البراهين و الدّلائل، و هي حجّتهم و بها صحّح دعواهم، و لمّا أنزل الكتب خصّها بالنّظم العجيب و التّأليف العزيز و أودعها من المعاني و الحكم ما أعجز أهل كلّ عصرٍ عن معارضة تلك الكتب حتّيّ صارت حجّة لمن أنزلت عليه و من اتّبعه

فلمّا انتهت الرّسالة إلي سيّد الأنبياء صلي الله عليه و آله أقام من بعده أدلاءً علي دينه و شهداء علي خلقه و أمناء علي وحيه و خزنة لأمره و أركاناً لبلاده و أعلاماً لعباده، فطهّروهم من العلل و عصمهم من الرّزل و أيّدهم بالكرامات و خصّهم بالمعجزات، أنمّة الهدى و مصابيح الدّجي و أعلام التّقي و أطواد التّهيّ و كهوف الوري و بحور التّدي، لم يتدنّسوا بالدّنيا و لم يتلبّسوا بالطّمع و لم يركبوا الهوي و لم يخالفوا الهدى و حفظوا شريعة الرّسول و تمسّكوا بأفضل الأصول و دلّوا علي حسن القبول، أوّلهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب سيّد الأوصياء و وارث علم الأنبياء عليه السلام، ثمّ السّبط المبجّل الإمام المفصّل أبو محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام، ثمّ الشّهيد المظلوم الإمام المعصوم أبو عبد الله الحسين بن عليّ عليه السلام ثمّ الإمام الفاضل الرّاهد العاقل أبو الحسن عليّ بن الحسين زين العباد و فوز الزّهّاد عليه السلام، ثمّ الإمام المؤيّد العالم المسدّد أبو جعفر

ص: 137

1- الشّوري: 16.

2- غافر: 35.

محمد بن علي الباقر عليه السلام ثم الإمام المطهر الأمين المهذب أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ثم الإمام التّاصح العبد الصّالح أبو إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام، ثم الإمام العادل السّهيّد الفاضل أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، ثم الإمام التّقيّ العالم الرّكبيّ أبو جعفر محمد بن عليّ المختار عليه السلام، ثم الإمام الرضيّ العادل المرضيّ أبو الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام، ثم الإمام الوفيّ الصادق الصّفيّ أبو محمد الحسن بن علي الصّامت الأمين عليه السلام، ثم تمّت الإمامة وبلغت الحجّة وقامت الدّلالة بالخلف المنتظر القائم المنتصر مهديّ الأئمة و سيّد العترة، سمّي المصطفيّ و كنيته عليه وآبائه السّلام.

فهؤلاء الأئمة حجج الله بعد رسول ربّ العالمين المنكر لآخريهم كالمنكر لأولهم، لا يحبّهم إلاّ السّعداء الكرام، ولا يبغضهم إلاّ الأشقياء اللّثام.

[و]ذكر عن الصادق عليه السلام، قال: نحن شجرة النّبوة وبيت (1) الرّحمة و مفاتيح الحكمة و معدن العلم و موضع الرّسالة و مختلف الملائكة و موضع سرّ الله، و نحن وديعة الله في عباده، و نحن حرم الله الأكبر، و نحن ذمة الله، و نحن عهد الله، من وفي عهدنا فقد وفي، و من وفي ذمّتنا فقد خفر ذمة الله و عهده (2).

فتدبّر حجج الله و اتّبعتها، فإنّ الله يسأل العبد يوم القيامة عن حجّته، فإن أقامها رفع إليّ التّعيم المقيم، فإن لم يقمها ردّ إليّ نار الجحيم.

جعلنا الله وإياك من المعتصمين بحبله، المتمسّكين بدينه، المتّبعين لحججه، المستبصرين بأنواره، النّاظرين في حقوقه، القائمين بأمره، إنّه وليّ الحمد و مولاه و مقصد الرّغائب و منتهاها.

ص: 138

1- لعلّ الصّحيح: و منبت الرّحمة.

2- رواه الصّفّار في بصائر الدّرجات: 17 وفي المحتضر: 129 عن كتاب منهج التّحقيق عن الباقر عليه السلام مع تفاوت في بعض الكلمات والجمل. راجع البحار: 25/5 و 26/245.

ذکر اللطف و التوفيق و الحرمان و العصمة و الخذلان و التأیید و التّسديد و التّقریب و التّبعيد

قال الحافظ حفظه الله:

التّوفيق هو لطف من الله تعالى يحصل الفعل من العبد عند حصوله، و الألفاف مختلفة منها كمال الآلة و سلامتها عن الآفات و دفع العوارض من الثقل الوارد علي الجسم عند القصد إلي الفعل و نشاط القلب و زوال الشّبّه و حصول نعمة و نصر وليّ و قهر عدوّ و الظّفر بمُنية و غير ذلك. و لا يصل هذه الألفاف إلا إلي المستحقّ لها.

و التّوفيق عند الطّاعة ليس بمجبر عليها، و لا الحرمان بمانع عنها لأنّهما يردان علي سبيل التّيسير و التّعسير لا علي سبيل الجبر و المنع.

و اختلفوا في معني التّوفيق.

فمنهم من قال: تسهيل الفعل بعد كمال الآلة.

و منهم من قال: نشاط القلب عند القصد.

و منهم من قال: تسوية كلّ جارحة مع الفعل الواقع منها كالعين مع النّظر و اللسان مع النّطق و اليد مع الأخذ و الإعطاء و الرّجل مع المشي. و هذا لا يصحّ لأنّه يوجب

كون كلّ كافر و فاسق موقّفاً.

و منهم من قال: التّوفيق رفق الرّفيق من الملك الشّفيق للعبد بهداية الطّريق، و هو قول الصّوفيّة.

و أمّا الحرمان؛ فهو منع الألفاف عن غير المستحقّ لها، و هو منع يمكن معه

وأما العصمة؛ فهو منع عن المعصية يمكن معه ارتكابها، وهي علي ثلاثة أوجه:

عصمة الوحي؛ وهي للرسل صلوات الله عليهم، قال الله لنبيه عليه السلام: «والله يعصمك

من الناس» (1) يعني يخصك من بينهم بالوحي وما أنزل عليك من البيان.

وألطف الأئمة علي سبيل التأييد يمنعهم عن الزلل الواقعة من غيرهم، ولا يكون الإمام إلا معصوما.

وعصمة بالعجز تسقط معها الأجر.

وأما الخذلان؛ فهو تخليته بين العبد ونفسه، قال الله: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلي الله فليتوكل المؤمنون» (2) فالتوفيق عند الطاعة والحرمان عنها فالعصمة تمنع عن المعصية والخذلان تخلية عندها.

وأما التأييد؛ فهو تقوية العبد علي طاعته بدفع العوارض عنه، وهو أيضا نصرة للرسل والأئمة بروح القدس، قال الله يصف المسيح: «وأيديناه بروح القدس» (3)

وعن الصادقين عليهم السلام: إن روح القدس موكل بالأئمة من آل رسول الله صلي الله عليه وآله يدهم بالتعليم والتأديب. والأخبار في هذا الباب عن أهل البيت صلوات الله عليهم كثيرة (4)

وهو للمؤمنين أيضا بالإلهام والتعريف، قال الله تعالي يصف المؤمنين، فقال في آخر وصفهم: «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيديهم بروح منه» (5)

والتأييد من الله ربما يكون بالملائكة وربما يكون بالنصر، قال الله يذكر منته علي

ص: 140

1- المائدة: 67. وفيما قاله المصنف في معني الآية إشكال فلا تغفل.

2- آل عمران: 160.

3- البقرة: 87.

4- انظر البحار: 25/47، باب الأرواح التي في الأئمة عليهم السلام وأنهم مؤيدون بروح القدس.

5- المجادلة: 22.

المؤمنين: «فأوايكم وأيدكم بنصره»(1) وربما يكون بالتسديد والتوفيق، فمن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام: اللهم أئدنا بتوفيقك، وسدّدنا بتسديدك(2)

وأما التسديد؛ فهو إرشاده إلي أبواب البرّ و حفظه عن أبواب الشرّ.

وقيل: هو تثبيت علي الحقّ بالألطف و منع عن الباطل.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآلهقال: سدّدوا وقاربوا واجتهدوا، فلن يدخل الجنة أحد إلا برحمته(3)

وأما التّقريب؛ فهو إكرامه العبد بأنواع الثّواب في دار البقاء و توفيقه للخدمة في دار الفناء، كما قال: «و اسجد و اقترب»(4)

وأما التّباعد؛ فهو إهاتته العبد بألوان العقاب في محلّ الأعداء، فمن كان ثوابه أكثر

فهو أقرب الأولياء، و من كان عقابه أشدّ فهو أبعد الأعداء.

وفيما روي عن الله تعالى أنّه قال: أقرب الخلق غدا من الله ثلاث: المستحيي من الله، و المعظّم لأمر الله، و الباذل شبابه لله، و رجل عفا عن أخيه و وصله و أعطاه

و كفاه، و رجل أجاع بطنه و أسهر ليله و أظمأ نهاره و أعري جلده و استحيي من الله أن يراه بطّالاً في دار الدّنيا.

و القرب من الله في الدّنيا بالطّاعة و العبادة و كثرة الذّكر و المناجاة، قال الله يصف الكليم: «و نادينه من جانب الطّور الأيمن و قرّينه نجياً»(5) و البعد منه بالمعصية و نسيان المنّة و الغفلة عن الحقوق الواجبة.

وقيل: عقوبة البعيد ضرب و وعيد، و عقوبة القريب طرد و تباعد.

ص: 141

1- الأنفال: 26.

2- في الدّعاء التّاسع من الصّحيفة السّجّادية.

3- راجع مسند أحمد: 2/466، صحيح البخاري: 7/182، صحيح مسلم: 8/141.

4- العلق: 19.

5- مريم: 52.

وَأَمَّا الْغَضَبُ وَالسَّخَطُ وَالْبَغْضُ وَالرَّحْمَةُ وَالرِّضَا وَالْحَبُّ وَالْأَسْفُ وَالصَّحْكُ وَالصَّبْرُ وَالْحَيَاءُ وَالْمَلَالَةُ مِنَ اللَّهِ

فمعانيها واقعة علي الثَّوابِ والعقاب.

وقال الصَّادق عليه السلام في معني قوله عزّ ذكره: «و من يحلل عليه غضبي فقد هوي» (1) يعني عقابي (2)

و الرِّضا و الرِّحمة و الحبّ أشكال، و السَّخَط و الغضب و البغض أشكال.

و هو من صفة القديم علي جهة الثَّوابِ و العقاب، [و] ليس أنّه تعالي يتغيّر من حال إلي حال كالمخلوق إذا سخط عرضت له حالة و إذا رضي تحوّل من تلك الحالة. و كذلك في الغضب و الرِّحمة و الحبّ و البغض، و التَّغْيِيرُ و التَّحَوُّلُ جائزان علي المخلوق و لا يجوز علي القديم لأنّ المخلوق محلّ الحوادث قابل لها و القديم لا يحلّه حدث بوجه من الوجوه لأنّ فيه بطلان القدم و ثبوت الحدث.

و منهم من قال: غضب الله أشدّ من عقوبته، و رضا الله أكبر من الجنتّة. و علي هذا التحوّل أيضا يؤثر أخبار عن الصّادقين من أهل البيت عليهم السلام.

و الأوّل أولي؛ لأنّ المحقّقين أكثرهم عليه، و لأنّه لا يوجب في القديم انتقال الأحوال.

و أمّا ما نطق القرآن به من الرِّضا و الرِّحمة و الحبّ مثل قوله: «و رحمتي وسعت

ص: 142

1- طه: 81.

2- في التّوحيد للصّدوق رحمه الله: 168 قال أبو جعفر عليه السلام: هو العقاب.

كُلِّ شَيْءٌ وَأَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ»(1) وقوله: «رضي الله عنهم ورضوا عنه»(2) وقوله: «يحبّهم وحبّونه»(3) وغير ذلك فهو محمول علي الثّواب و الكرامة و ما يكرم به أهل الجنّة من أنواع البرّ.

وأما قوله: «فلمّا آسفونا»(4) قيل في تفسيرها: أغضبونا، وهذه عندي مصروفة إلي الكليم عليه السلام.

وأما قوله: «أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون»(5) فسخطه ما أنزل بهم من العقوبة من المسخ و التبديل و الطمس وغير ذلك

و علي هذا التّحوّ قوله: «غير المغضوب عليهم»(6) «و غضب الله عليه و لعنه»(7)

و أمّا الضّحك الوارد؛ فهو إظهار البرّ مع عبده يقال: ضحك التّور: إذا بدا. و من حمّله علي فتح الشّفاة و إظهار الأسنان لزمه الكفر و ارتدّ عن الملة الحنيفيّة.

و الله يضحك أهل الجنّة و يبكي أهل التّار في التّار كما قال عزّ ذكره: «و أنّه هو أضحك و أبكي»(8)

و أمّا الصّبر من الله؛ فهو حبسه العبد في الدّنيا أو في البلاء، و حبسه في الآخرة عن الثّواب أو في العقاب، ليس حلول صفة مزعجة مؤلمة بذاته.

و علي هذا يحمل ما روي عن الله عزّ ذكره حين قال للخليل: أما علمت أنّ من أسمائي الصّبور(9)؟!

ص: 143

1- الأعراف: 156 والنور: 20.

2- المائدة: 119، والمجادلة: 23، والبيّنة: 8.

3- المائدة: 54.

4- الزّخرف: 55.

5- المائدة: 80.

6- الفاتحة: 77.

7- التّساء: 93.

8- النّجم: 43.

9- المعجم الأوسط للطبراني: 7/271.

وأما الحياء؛ فهو ستره علي العبد حتّي لا يطلع علي قبيح فعله.

وعلي هذا يحمل ما روي عنه تعالي: إذا وجّهت إلي عبد من عبادي مصيبة فاستقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا(1)

وقوله عزّ ذكره: «إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً»(2) أي لا يمتنع عن ضرب المثل وقول الحقّ، وهو علي التّقريب.

وأما الملالة؛ فهو منعه الكرامة عن عبده إذا ملّ عن طاعته.

وعلي هذا يحمل قول رسول الله صلي الله عليه وآله: إنّ الله لا يملّ حتّي تملّوا(3) أي لا يمتنع من كرامة العبد حتّي يمتنع العبد من طاعته، فتدبر ما في القرآن من الآيات المتشابهات(4) ومما ورد من الأخبار عن الرسول صلوات... (5)

وكلّ معني يوجب تغيير صفة القديم أو إلحاق نقص به فاعلم أنّه باطل؛ لأنّ الله لم ينزل الكتاب ولم يرسل الرسول إلّا بتحقيق أصل التوحيد المعلوم بالعقل السليم

والأخبار الصحيحة، وإياك وقبول ما ينقض التوحيد، فإنّ الأصول لا يخالف بعضها

بعضاً. فتفكّر فيه واستعدّ بالله من أباطيل الملحدين وأقاويل الجاحدين، واعتصم بالله وتوكّل عليه، يعصمك من الرّدي ويبلغك أفضل المنى، وهو السيّد الأوفي والملك الأعلي.

ص: 144

1- راجع الدّعوات للراوندي: 172 والبحار: 71/92 والجامع الصّغير: 2/242 ومسند الشّهاب: 2/330.

2- البقرة: 26.

3- الأمالي للطّوسي: 6 وصحيح البخاري: 2/48.

4- في الأصل: الآيات المتشابهة.

5- هنا سقط من الأصل بقدر سطر.

ذكر أوصاف نطق به القرآن في صفة القديم مثل النفس و الذات و العين و الوجه و اليد و الجنب و الساق و السعة و القوة و المجيء و الإتيان و الجد

قال الحافظ:

النفس و الذات إنما يراد به التحقيق و الإثبات، تقول العرب: نفس الشيء و ذاته إذا عبّروا عنه علي جهة الإثبات، لا يريدون تجسّما، قال الله تعالى: «و يحذركم الله

نفسه»، (1) قال ابن عباس: يعني عقوبته.

وقيل: لأنّه عالم بالأسرار و مطلع علي الصّمائر.

و النفس اسم واقع علي الجواهر و الأعراض، و الله ليس بجوهر و لا عرض لأنّ الجواهر تدرك و الأعراض تتلاشي.

و أمّا العين؛ فهو في اللغة تتصرّف علي وجوه:

منها ناظر الإنسان، يدرك به الألوان.

و منها عين الشمس.

و [منها] عين القوم، و هو رئيسهم و منظورهم.

و منها عين الأشياء، و هو خيارها و الجيد منها.

و منها الرقيب، يقال: علينا عين، يعنون رقبيا.

و منها عين الماء، و هو منبعه.

ص: 145

1- آل عمران: 28 و 30.

و منها التقدر، يقال: اشتريت عينا بدين.

و منها عين المال، وهو العتيد الحاضر.

و منها العين الذي يصيب الإنسان.

روت الرواة عن الأئمة صلوات الله عليهم عن الرسول صلي الله عليه وآله قال: العين حق؛ تغلي منها القدور و تحفر منها القبور، و كاد أن يسبق القدر (1)

و منها عين الركبة، وهي الداغصة.

و منها الذهب.

و منها الإثبات، يقال: عين هذا الكلام و عين الشيء، يعنون وجوده و ثبوته.

و العين في صفة القديم: علمه بالأشياء و نظره إليها و اطلاعه عليها، قال الله: «و اصبر لحكم ربك فانك بأعيننا» (2) ذكر عن ابن عباس: بمنظر متأ.

و كذلك قوله في ذكر السفينة: «تجري بأعيننا» (3)

و قوله لكليمه: «و لتصنع علي عيني» (4)

ذكر عنه: ما صنع بك كان بمنظر متي.

و الله يري الأشياء لا بعين لأن العين المعلوم في الظاهر جارحة، و الجوارح آلة لصاحبها، و الله ليس بذئ آلة، بل هو مبدع الآلات و الجوارح.

و أما الوجه؛ فهو ما يتوجه به إليه من طاعته و عبادته.

قال الله تعالي: «كل شيء هالك إلا وجهه» (5) يعني كل معبود باطل إلا هو.

و قال الصادق عليه السلام: يعني دينه (6)، و بدينه يتوجه العبد إليه.

ص: 146

1- راجع مكارم الأخلاق: 386 و 414 و المصنّف لعبد الرزّاق: 11/17.

2- الطور: 48.

3- القمر: 14.

4- طه: 39.

5- القصص: 88.

6- التّوحيد للصدّوق: 149 و تفسير القرطبي: 13/322.

وقوله: «و ما لأحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربّه الأعلى»(1) يعني رضاه.

وقوله: «كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك»(2) يعني ويبقى هو وحده لا شريك له ليس أنّ الوجه يبقى ويفني ما سواه، وذلك أنّ كلّ معبود يبطل ويضمحلّ إلا القديم تعالى ذكره، فإنّه باق علي الحقيقة وتغيّر الوجه في الجواهر والأعراض. يقال: وجه الأمر ووجه البلد، يعنون الأمثال والأفاضل.

وأما اليد؛ فهي علي وجوه:

منها النعمة، قال الله تعالى يذمّ اليهود ويذكر خبث أقاويلهم: « قالت اليهود يد الله مغلولة» يعني نعمة الله ممنوعة متحوّلة بها علينا، فكذبهم الله فقال: «بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء»(3) يقول: نعمته -يعني الدنيا والآخرة- يعطي كيف يشاء علي الاستحقاق.

ويقول العرب: أسديت إليه يدا وله عندي يد، أي منّة و نعمة.

ومنها القوّة، يدلّ عليه قول أبي بكر الصديق(4) حين قال لفاطمة عليها السلام(5) أنت منطوق الحجة و معدن الرسالة، لا يد لي بجوابك و لا أبعدك عن صوابك، و لكن قلّدوني هذا الأمر فتقلّدت(6)

يعني باليد: القوّة والطاقة.

منها الملك، و هو قولهم: هذه المملكة في يد فلان و يده مطلق فيها، يعنون الملك و نفاذ الحكم.

و الأيد: القوّة، قال الله عزّ ذكره: «و السّماء بنيناها بأيدي» - يعني بقوّة (و إنّنا

ص: 147

1- الليل: 20.

2- الرّحمن: 27.

3- المائة: 64.

4- كذا.

5- بعد إلقائها عليها السلام خطبتها المعروفة في المسجد.

6- جملة «لا يد لي بجوابك» موجودة في بلاغات النساء: 19 فيما قال أبو بكر في جواب الزهراء عليها السلام.

لموسعون»(1) يعني لقادرون.

و منها الصلّة في الكلام، و هو قولهم: أنا بين يديك، يعنون أمامك. و قوله: «لا تقدّموا بين يدي الله و رسوله»(2) يعني لا تتقدّموا بأمر دون أمر الله و رسوله.

و قوله: «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء»(3) يعني به و إليه.

و قوله: «بيدك الخير»(4) أي بك و إليك.

و أمّا قوله لإبليس: «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي»(5).

فمنهم من وقف علي قوله: «خلقت» و ابتداء بذكر اليدين، كأنّ قائله ذهب إلي أنّ اللعين بنعمة الله استكبر علي صفّي الله(6).

و منهم من قال: أراد الله باليدين الكاف و التّون، و هو قوله لمّا أراد تكوينه: كن.

عبر اللعين بتركه السّجود لمن تكوّن بأمر الله.

و منهم من قال: ذكر اليدين صلة هاهنا.

و منهم من قال: أراد باليدين نعمته علي آدم من تحسين صورته و استخلافه في أرضه، فحسده اللعين فأبى السّجود له و استكبر عليه.

و أمّا قوله: «يدُ الله فوق أيديهم»(7) يعني نعمة الله عليك بالنّصر و التأييد فوق نصرتهم لك.

ص: 148

1- الذّاريات: 47.

2- الحجرات: 1.

3- يس: 83.

4- آل عمران: 26.

5- ص: 75.

6- قال الشّيخ الصّدوق رحمه الله في التّوحيد ص 154: سمعت بعض مشايخ الشّيعة بنيسابور يذكر في هذه الآية أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا يقفون علي قوله: «خلقت» ثمّ يتدوّنون بقوله عزّ وجلّ: «بيديّ استكبرت» وقال: هذا مثل قول القائل: بسيفي تقاتلني و برمحي تطاعنتني. كأنه يقول عزّ وجلّ: بنعمتي قويت علي الاستكبار والعصيان.

7- الفتح: 10.

و علي هذه المعاني تفسير قول رسول الله صلى الله عليه وآله: خلق الله آدم بيديه، ثم أكرمه بسجود ملائكته، ثم أدخله جنته، ثم أخرجه بذنب واحد(1)

و جميع ما يروي في هذا الباب محمول علي هذه المعاني.

و أمّا حديث ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله: قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أزاغه و إن شاء أقامه(2) فالإصبع عندهم الأثر الحسن، فمن قولهم: نلت منه إصبعاً، أي أثراً حسناً. و ليس لك عندي أثر و لا إصبع، يعنون نعمة كبيرة أو صغيرة.

و منهم من ذهب إلي أنّ الإصبعين هو الكاف و التّون.(3)

و ما يروي عنه عليه السلام أنّه قال: ما من عسكري يلتقيان إلاّ و كفّ الله بينهما، فإذا أراد أن يهزم احدي الطائفتين أمال بكفّه عليها. فالكفّ المنع هاهنا لا غير، يقال: كففته أكفّه كفّاً، أي منعه. [و من] قال هاهنا بكفّ اليد المعلوم، اعتقد آلة للقديم سبحانه، و من اعتقدها لزمه الكفر؛ لأنّ الكفّ اسم واقع علي أجزاء كثيرة مؤلّفة، و من اعتقد التأليف في ذات القديم لا بدّ من إثبات المؤلّف [و] هو أولي بالربوبية ممّن ألف.

فقس علي هذا سائر الأخبار المأثورة في هذا النوع.

و أمّا الجنب؛ فهو الطّاعة، و علي هذا تفسير قوله عزّ ذكره: «أن تقول نفس يا حسرتي علي ما فرطت في جنب الله»(4)

و قول العرب: جمعت هذا بجنب فلان و في جنبه، أي بقوّته و عونته.

و من العلماء من فسّر الجنب هاهنا علي الدنيا.

و منهم من فسّره علي المصطفى صلى الله عليه وآله

ص: 149

1- راجع الدر المنثور: 4/311 و علل الشرائع: 2/380.

2- رواه ابن ماجة في السنن: 1/72 عن الكلابي عن رسول الله صلى الله عليه وآله و راجع الجامع الصّغير: 2/257 و المجازات التّبويّة: 346.

3- أي «كُن».

4- الزّمر: 56.

و من قول أمير المؤمنين عليه السلام: أنا جنب الله، و أنا حجة الله، و أنا الطريق إلي الله (1)

و لا يوصف القديم بالجنب المعلوم من الإنسان؛ لأنه أحد طرفيه، و الطرف هو الحد، و الحد هو النهاية، و الله ليس بذي حد و لا نهاية، و من جَوَز الانتهاء في ذاته أثبتته جوهرًا مدركًا محاطًا به، و فيه من الفساد ما يطول شرحه.

و أمّا الساق؛ فهو الشديد في الأمر. يقال: قد بلغ الأمر الساق و قد قامت الحرب علي الساق: إذا اشتدّت و بلغت منتهاها. و منه قوله عزّ ذكره: «و التفتّ الساق

بالساق» (2) يقول: اجتمعت الشدة مع الشدة.

و علي هذا تفسير قوله: «يوم يكشف عن ساق» (3). ذكر أن ابن عباس قال: هو الشديد من الأمر.

و لا يوصف القديم بالساق المعلوم؛ لأنّه أجزاء مختلفة مركبة توجب مُركبًا قبله، و في اعتقاد هذا المعني في القديم إبطال قدمه و إثبات حدّته، و المحدث لا يكون إلها خالقًا.

و أمّا السعة؛ فهو الغني و الجود، و الواسع من أسماء القديم هو الغنيّ و الجواد.

قال الله عزّ اسمه: «و الله واسع عليم» (4)

و من دعاء رسول الله صلي الله عليه و آله: يا واسع المغفرة.

و من اعتقد السعة في ذات القديم أثبت عرضًا و طولًا، و من أثبتته اعتقده مقدّرًا ذومساحةٍ و في هذا إبطال التوحيد.

و أمّا القوّة؛ فمعناها القدرة و القويّ القادر، قال الله تعالى: «انّ الله لقويّ عزيز» (5).

ص: 150

1- راجع المناقب لابن شهر آشوب: 3/65 و عيون أخبار الرضا عليه السلام: 1/9 و ملحقات إحقاق الحقّ: 22/351.

2- القيامة: 29.

3- القلم: 42.

4- البقرة: 247 وغيرها.

5- الحجّ: 40 و 74.

ذكر عن ابن عباس: قويّ بنصرة أوليائه، عزيز بنقمة أعدائه.

وأما المجيء والإتيان؛ فهو إظهار حكم وإمضاء قضية.

وكذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته(1): قربه قربه وبعده عظمته ونزوله إلي الشيء إقباله عليه، وإتيانه إياه اتصاله لما يريد.

وهو معني قوله عزّ ذكره: «فأتي الله بنبانهم من القواعد»(2) يعني أمضي حكمه

فيها بالهدم والتخريق. وقوله: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام»(3) وكلاهما جائز لأنّ الإتيان في الشيء يوجب كون الآتي في وعاء وهو يوجب كونه محدودا، وفيه فساد أصول التوحيد.

وقوله: «وجاء ربك والملك صفا صفا»(4) فجعل مجيء جلائل الآيات مجيئا له إعظاما للحال.

وهو كقولهم:

علفتها تبنا وماء باردا

حتي شتت همالة عيناها(5)

والماء خارج من حكم العلف.

وعلي هذا، يحمل قول رسول الله صلي الله عليه وآله: إنّ الله تبارك وتعالى ينزل إلي السماء الدنيا لثلاث الليل الآخر فيقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ ومن الذي يسترزقني فأرزقه؟ ومن الذي يستغفر لذنوبه فأغفر له؟ ومن الذي يستكشف الضرّ فأكشفه عنه؟ حتي إذا انفجر الصبح(6).

ص: 151

1- راجع معجم أحاديث المهدي عليه السلام: 2/269 نقلاً عن الأمالي [للمرشد بالله الشجري]: 2/101 و 108.

2- النحل: 26.

3- البقرة: 210.

4- الفجر: 22.

5- لقائله: ذوالرمة.

6- راجع كتاب من لا يحضره الفقيه: 1/421 والتوحيد: 176 وصحيح مسلم: 2/176 ومسند أحمد: 2/504.

و النزول و الإتيان بمعني الانتقال من مكان، إلي مكان لا يجوز علي القديم المستغني عن الأمكنة؛ لأنّ النقلة من مكان إلي مكان لا يكون إلاّ لوحشة أو ضيق أو خوف أو تنزّه بالمكان المنتقل إليه، و الله لا يوصف بهذه المعاني لأنّها إبطال القدم.

و من قول أميرالمؤمنين عليه السلام: الأمكنة لا تستسكنه؛ لأنّه لو كان في محلّ دون محلّ لأنس المسكون فيه و أوحش الخالي منه.

و أمّا الجدّ؛ فهو العظمة. قال الله تعالى يحكي قول الجنّ: «وأنّه تعالى جدّ ربّنا ما اتخذ صاحبة و لا ولدا». (1)

و ذكر عن ابن عبّاس قال: لو علمت الجنّ أنّ العرب تسمّي أب الأب جدّا ما قالت: «وأنّه تعالى جدّ ربّنا». (2)

و حديث أنس بن مالك: كان الرّجل ممّا إذا قرأ سورة البقرة و آل عمران جدّ في عيوننا و عظم في صدورنا (3)

و كرهت الأئمّة عليهم السلام ذكر الجدّ في استفتاح الصّلاة بعد التكبير؛ و هو قول القائل: و تعالي جدّك (4)

و الجدّ: الحظّ و القسم، و تقول العرب: اسع بجدّك لا بكدّك.

فهذه معاني الآيات المتشابهات علي الجهال و الأخبار الواردة قد بيّناها، فتدبّر حقائقها لتقف عليها إن شاء الله.

ص: 152

1- الجن: 3.

2- راجع السنن الكبرى للبيهقي: 1/17 و المصنّف لعبد الرزّاق: 10/264 و غريب الحديث لابن سلام: 1/258.

3- مسند أحمد: 3/120 و 121 و غريب الحديث لابن قتيبة: 1/17.

4- انظر الخصال للشيخ الصدوق: 604 و الخلاف للشيخ الطوسي: 1/323.

ذكر القضاء والقدر

قال الحافظ:

القضاء يتصرف علي وجوه:

منها الأمر؛ قال الله عزّ ذكره: «وقضي ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه»⁽¹⁾. قال ابن عباس:

وأمر ربك ألاّ تطيعوا إلاّ إياه.

وفي قراءة ابن مسعود: ووصي ربك⁽²⁾

ومنها الحكم؛ قوله عزّ اسمه: «وقضي بينهم بالحقّ وهم لا يظلمون»⁽³⁾

ومنها الإعلام والإخبار؛ قوله: «وقضينا إلي بني إسرائيل في الكتاب»⁽⁴⁾

ومنها خلق الشيء وإحداثه؛ قوله: «فقضاهنّ سبع سماوات في يومين»⁽⁵⁾

ومنها إتمام الشيء والفراغ منه؛ قوله: «فلما قضى موسى الأجل»⁽⁶⁾ يعني تمّمه

وفرغ منه.

ومنها الفصل والبيان؛ قوله: «إن الحكم إلاّ لله يقضي الحقّ وهو خير الفاصلين»⁽⁷⁾.

ص: 153

1- الإسراء: 23.

2- راجع المعجم الكبير للطبراني: 9/138 و تفسير القرآن للصنعاني: 2/376.

3- الزمر: 69.

4- الإسراء: 4.

5- فصلت: 12.

6- القصص: 29.

7- الأنعام: 57، وفي الكشاف: يقضي الحقّ وقرئ: يقصّ الحقّ، فراجع.

و منها الأداء؛ قوله: «فاذا قضيتم الصلّاة» (1) يعني أدّيتموها.

و منها قضاء الأوطار؛ و هو حصولها لقاضيها، قوله: «فلما قضى زيد منها وطرا» (2) يعني حصل مراده.

و منها الحتم و الإيجاد؛ قوله: «فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم علي موته إلاّ دابة الأرض» (3)

و أمّا القدر فهو أيضا علي وجوه:

منها الأجل و التّهاية؛ قوله عزّ ذكره: «ألم نخلقكم من ماء مهين» يعني ضعيف «فجعلناه في قرار مكين» يعني حريز «إلي قدر معلوم» (4) يعني أجل نهاية، و هو خروج الولد من الرّحم.

و منه المقدار؛ قوله: «إنا كلّ شيء خلقناه بقدر» (5) و قوله: «وقدّر فيها أقاتها» (6) يعني بيّن مقادير الأوقات. و قوله لكلّيمه: «ثمّ جنت علي قدر يا موسى» (7) يعني علي وقت معلوم.

و منه القضاء؛ قوله: «و كان أمر الله قدرا مقدورا». (8) قال ابنعبّاس: قضاء كائنا.

وقيل: قدر المقدور.

و القدر اسم لما سبق في المعلوم و ظهر من المحتوم.

و لهذا المعني قال ابنعبّاس: الإيمان بالقدر نظام التّوحيد، فمن وحّد الله و كذّب

ص: 154

1- النّساء: 103.

2- الأحزاب: 37.

3- سبأ: 14.

4- المرسلات: 22.

5- القمر: 49.

6- فصلّت: 10.

7- طه: 40.

8- الأحزاب: 38.

وروي عنه أيضا قال: إنَّ أوَّل ما كتب الله له في اللوح المحفوظ: بسم الله الرَّحمن

الرَّحيم، لا- إله إلا- أنا، و محمد رسول، من استسلم لقضائي و صبر علي بلائي و شكر بنعمائي كتبته صديقا و بعثته مع الصديقين يوم القيامة، و من لم يستسلم لقضائي و لم يصبر علي بلائي و لم يشكر بنعمائي فليختر إلها سواي.

و ما روي من الآثار عن الرسول صلي الله عليه و آله في ذكر القدر: «خيرهُ و شرُّهُ من الله» فهو صحيح؛ و الخير و الشرُّ هو الفقر و الغني و العزُّ و الدلُّ و الصَّحَّة و المرض و رخص الأسعار و غلاها، و غير ذلك من المحبوب و المكروه في الطَّبع، لا الطَّاعة التي أمر الله بها و المعصية التي نهى الله عنها.

قال الله تعالى: «و يدع الإنسان بالشرِّ» يعني بالفقر و الهلاك «دعاء بالخير» (1) يعني بالغني و النِّجاة.

و قال: «إنَّ الإنسان خلق هلوعا إذا مسَّه الشرُّ» يعني الفقر و الشَّدَّة «جزوعا و إذا

مسَّه الخير» يعني الغناء و التَّعمة «منوعا». (2)

و كان العرب يرون هذه الأشياء من تأثير النَّجوم و ينسبها بعضهم إلي الدَّهر، ألا تري قوله حيث يحكي هذا منهم: «إن تصبهم حسنة» يعني رخصا و سعة «يقولوا هذه من عند الله و إن تصبهم سيئة» يعني قحطا و جدوية «يقولوا هذه من عندك» أي بشؤمك أصابنا «قل كلَّ من عند الله» (3) نزل و هو مقدَّره.

و قوله: «ما هي إلا حياتنا الدُّنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدَّهر» (4) قال الله: (و ما

لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون». (5)

ص: 155

1- الإسراء: 11.

2- المعارج: 20.

3- النساء: 78.

4- الجاثية: 24.

5- الجاثية: 24.

ولهذا المعني قال رسول الله صلي الله عليه وآله: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر. أراد تكذيب الدهرية في إحالتها للبؤس والتعمي إليه (1) فلمّا بعث رسول الله صلي الله عليه وآله أبطل مذاهبهم

وأضاف المحبوب والمكروه إلي مقدّر الأشياء وخالقها، ودلّ الخلق علي التسليم إليه والخضوع له إثباتا للرّبوبيّة وإقامة للعبوديّة.

وروي عنه عليه السلام قال: من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأنه مبعوث من بعد الموت، وآمن بالقدر خيره وشره من الله، فهو مؤمن، و من أمسك وترك فليس بمؤمن. (2)

قال الله تعالى: «كلّ نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشرّ والخير» يعني بالبلاء والعافية «فتنة» يعني اختبارا «وإلينا ترجعون». (3)

قال: «و من التأس من يعبد الله علي حرفٍ» يعني علي شكّ «فإن أصابه خير» يعني غني ونعمة «اطمأنّ به وإن أصابته فتنة» يعني فقرا و شدة «انقلب علي وجهه» معرضا عن ربّه، مستخفّا بحقه «خسر الدنيا» ببطلان الحسنات «والآخرة» بحلول العقوبات «ذلك هو الخسران المبين» (4) فوّت الدّنيا والعقبى كلاهما فالأخبار الواردة في هذا الباب محمولة علي هذه المعاني فاعرفها حميدا إنشاء الله تعالى.

ص: 156

1- في الأصل، عليها.

2- راجع المستدرک للحاكم: 1/33 و تاريخ مدينة دمشق: 9/14 و المصنّف لابن أبي شيبة: 7/209.

3- الأنبياء: 35.

4- الحجّ: 11.

ذكر العرش والكرسي

قال الحافظ:

العرش عندنا هو ملك الباري، يدلّ عليه قول الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثلّت (1) عروشهم

فأودوا كما أودي أياد وحمير (2)

[وقال] آخر:

لَعَمْر ما قَدَّرِ أجدي بمصرعه

لقد أخلّ بعروشي أيّ إخلال (3)

و منهم من قال: هو أعلي صحائف العالم و أجلّ الأماكن، و استوي عليه الباري استواء تمكّن و استقرارٍ حتّي قال بعضهم: امتلأ العرش به، و لم يعلموا أنّ الاستقرار

سكون بعد اضطراب. يقال: استقرّ الماء و استقرّت السفينة: إذا سكنت عن اضطرابها. و منه استقرار الرّكب علي ظهر المركوب و منه استقرار الملك علي الملك. و فسروا الآيات في ذكر استواء الربّ علي العرش علي الاستقرار، و هو محض التشبيه و ردّ التنزيه و نقض التّوحيد لأنّ الامتلاء و الاستقرار صفتان للجواهر

السّيالة لا القديم الغنيّ بذاته عن المكان و الزّمان.

فإن سأل [سائل] عن معني الاستواء، قلنا: الاستواء علي وجوه:

منها الاستقرار لما يجوز منه مثل السفينة و الرّكب علي ظهر الدّابة و الأشياء

ص: 157

1- في الأصل: تاهت و في البحار: ثلّت، وكلاهما بمعني هلكت.

2- كنزالفوائد: 238.

3- لقائله: أوس بن حجر.

المضطربة المتحرّكة، قال الله تعالى يذكر السّفينة و جريها علي ظهر الماء و سكونها بعد اضطرابها: «و استوت علي الجودي» (1) يعني استقرّت. و قال: «و جعل لكم من الفلك و الأنعام ما تركبون لتستوتوا علي ظهوره» يعني لتستقرّوا «ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه» (2) يعني إذا استقررتم.

و منها القصد و التّعمّد، قوله عزّ ذكره: «ثمّ استوي إلي السّماء» (3) يقول: قصد و عمد إلي خلق السّماء.

و منها الكمال و التّمام، قوله: «و لمّا بلغ أشدّه و استوي» يقول: و كملت قوّته و تمّ خلقه «آتيناه حكما و علما». (4)

و منها الاختيار، و هو قولهم: استويت لحاجتك. يقول: اخترتها علي سائر الحاجات.

و منها الاستيلاء و الملك، و هو قول شاعرهم:

قد استوي بشر علي العراق

من غير سيف و دم مهراق (5)

و ذلك معني الاستواء علي العرش فيما نطق القرآن بقوله: «الرّحمن علي العرش استوي» (6) و قوله «ثمّ استوي علي العرش» (7) و غيرهما من الآيات في هذا الذّكر. (8)

فإن قال لي: لم خصّ العرش بالملك و الاستيلاء و هو مستول علي جميع الأماكن؟

ص: 158

1- هود: 44.

2- الزّخرف: 12.

3- البقرة: 29، وفضّلت: 11.

4- القصص: 14.

5- القائل: الأخطل، انظر تاج العروس: 10/189.

6- طه: 5، والسجدة: 4، والحديد: 4.

7- الأعراف: 54.

8- راجع المعجم المفهرس للقرآن الكريم.

قلنا: تشريفا للمكان كإضافة البيت إليه والثاقة والخليل والكليم والحبيب والمساجد، وإضافة الرسول الرّجب إليه علي سبيل التّشهير و التّفصيل، وإضافة بعض الأيّام [إلي الله في] قوله: «وذكرهم بأيّام الله»⁽¹⁾ و الأيّام كلّها، له وإضافة الملك إلي يوم الدّين قوله: «مالك يوم الدّين»⁽²⁾

فإن قال: قد عرفنا [التّجوز] في إضافة هذه الأشياء وتخصّصها بالذّكر، فما الغرض في إضافة الاستيلاء إلي العرش وتخصّصه بالملك؟

قلنا: لأنّ معظم الأماكن خمسة:

أولها الأرض، وهي مستقرّ البشر والجنّ وسائر الحيوان المحسوسة، ولهم فيها تصرّف.

ثمّ السّموات، وهي مجاري الأفلاك والكواكب ومقرّ الملائكة، ولها خزّان وحراس.

ثمّ الجنّة، وهي مستقرّ الأولياء، ولها خزنة قد وكلّهم الله لحفظها وتقسيمها والتصرّف فيها.

ثمّ النّار، وهي مستقرّ الأعداء، ولها خزنة قد وكلّوا بتسعييرها وإيقادها.

فبقي العرش وهي أجلّ الأماكن وأعلاها، ولا يملكه مخلوق ولا يتصرّف فيه، فأضاف الملك إليه لأنّ من ملك أعظم الأشياء لا يعجز عن أصغرها.

ومن اعتقد أنّ الله مستقرّ علي العرش متمكّن عليه، لا يمكنه إثبات حدث العالم بوجه من الوجوه؛ لأنّ أوكد ما استدللّ به أهل الإسلام علي حدث العالم الاجتماع والافتراق، ومعني الاجتماع تقارب الجسمين، ومعني الافتراق تباعدهما، واستقرار القديم علي العرش وملاقاته معه يوجب الاجتماع، ونزوله عنه وانتقاله إلي مكان آخر يوجب الافتراق، وهذا يوجب قدم العالم المحدث وحدث القديم.

ص: 159

1- إبراهيم: 5.

2- الفاتحة: 47.

مع أنه لو كان القديم تعالي علي العرش كان مثله أو أكبر منه أو أصغر، فلو كان مثله لكان له مثل، وقد نفي العقول الأمثال وأبطله الكتاب، ولو كان أكبر منه لأوجب كون القديم لا علي مكان(1)، ولو كان أصغر منه لكان القديم باننا منه غير متمكن علي مكان وهذا عند القوم باطل

ولو كان القديم علي العرش لكان محمولاً(2) إذا كانوا حملته. قال الله عزّ من قائل:

«و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية»(3) وقال: «الذين يحملون العرش و من حوله يسبحون بحمد ربهم»(4)

وروي عن ابن عباس عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: حملة العرش طعامهم التسييح و شرابهم التهليل و لباسهم الرحمة خضوعاً لرب العالمين.(5)

و ما روي من الآثار في هذا الباب فهو محمول علي هذا المعني و مصروف إليه فقس عليه سواء و اجتنب ما عداه.

و معني العرش عند أهل التصوّف و التحقيق: القلب، و هو محلّ التجلّي و الاستواء، و عند أهل اللغة و أهل العلم العرش: السرير في مواضع آخر، قال الله عزّ ذكره يحكي قول الطائر الغائب بعد إيايه: «إني وجدت امرأة تملكهم و أوتيت من كلّ شيء و لها عرش عظيم»(6) يعني سريراً كبيراً. فأبطل الله قول الطائر، فقال: «الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم»(7) و قال نبيّ الله عليه السلام لأشراف قومه و علمائهم: «أيكم يأتيني

بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين»(8) و قال بعد حصول العرش عنده: «نكروا لها

ص: 160

1-، 2. هُناسقط في الأصل.

2-

3- الحاقة: 17.

4- غافر: 7.

5- راجع البحار: 60/249.

6- التمل: 23.

7- التمل: 26.

8- التمل: 38.

عرشها»(1) وهو السرير في هذه المواضع لا غير؛ لأن المخلوق يستقرّ علي السرير ويتشرف به، والقديم لا يستقرّ علي شيء ولا يتمكن عليه ولا يحتاج إليه ولا يتشرف؛ به لأنّه الغني بذاته، كان إذ لم يكن معه مكان ولا إنس ولا زمان.

وذكر [عن] الصادق عليه السلام قال: من زعم أنّ الله من شيء فقد جعله مخلوقاً، ومن زعم أنّ الله علي شيء فقد جعله محمولاً، ومن زعم أنّ الله في شيء فقد جعله محدوداً(2)

وسئل الصادق عليه السلام عن معني قوله: «الرّحمن علي العرش استوي»(3) قال: استوي

له ملكوت كلّ شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء.(4)

وسئل محمد بن الحسن الشيباني(5) عن معناها، فقال شعراً:

لم يخلق الله خلقاً يستقلّ به

ولا استوي ربنا فيه لمقتعد

لكن علاه بسلطان ومقدرة

لا بالتثقل يعلوه ولا الصعد

وذهب بعض المحدثين إلي أنّ العرش متعبّد للملائكة كالكعبة في الأرض، وهذا لا يبعد عن الصواب، والله أعلم.

وأما الكرسيّ؛ فهو العلم، قال الله تعالى: «وسع كرسيّه السماوات والأرض»(6) أي ملاً علمه السماوات والأرض فلا يعزب عن علمه شيء ومنه قول الشاعر:

ما لي بغيبك كرسيّ أكاومه

ولا يكرس علم الغيب مخلوق(7)

ص: 161

1- التّمّل: 41.

2- نقله القشيري في الرسالة القشيرية: 30 مع بتفاوت.

3- طه: 5.

4- راجع التّوحيد للشّيخ الصّدوق: 315 وفيه: «استوي من كلّ شيء» مكان «استوي له ملكوت كلّ شيء».

5- المتوفّي سنة 189 و له كتب كثيرة في الفقه والأصول، وهو الذي نشر فقه أبي حنيفة. راجع الأعلام للزّركلي: 6/80.

6- البقرة: 255.

7- راجع تفسير أبي الفتوح الرازي: 2/326 والتّبيان: 2/309.

وكرسيّ الشيء: المتلبّد بعضه فوق بعض، مثل أبعاد الإبل. ومنه الكراسية، وهو الشيء المجتمع والحروف المجموعة، يدلّ عليه قول الشاعر:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا

قال نعم أعرفه وأبلسا(1)

وسئل محمّد بن الحنفية رضي الله عنه عن الكرسيّ، فقال: فلك البروج. فمن جعله فلك البروج جعل العرش فلك الكلّ أو فلك الأفلاك.

وذهبت المشبهة إلى أنّ العرش موضع التدبير والتقدير، والكرسيّ موضع التجلّي والزّيارة، وذكروا أنّ الله ينزل من العرش إلى الكرسيّ فيتجلّي للخلق ويقضي بينهم! وإّما قالوا ذلك لآثار نقلت عن الرّسول عليه السلام في هذا المعني، ولو عرفوها لما ضلّوا؛ معناها إنّ الله يتجلّي للخلق من طريق العلم بإقامة الأدلّة كما بيّنا في معني الكرسيّ ليس أنّه ينتقل من مكان إلى مكان.

ورأيت لبعضهم أنّ العرش مظهر الرّبّ والكعبة معلمه، فدعا الله العباد إلى مظهره بقلوبهم وإلى معلمه بأبدانهم. وقال أرباب القلوب - خصوصا جنيّد قدس الله

روحه - : القلب هو العرش، والصّدر هو الكرسي، وهذا [أصحّ] الوجه و [أقومها]

أحسنها و... (2)

ومنهم من قال: الله متمكّن علي العرش وقدماه علي الكرسيّ! جلّ القديم عن صفات المخلوقين ونعوت المرئيين وسمات المحدثين.

واعلم أنّ من اعتقد القديم جسما متمكّنا علي مكان، وأثبت له وجهها وعينا ويديا وقدمين، واعتقده نازلاً منتقلاً من مكان إلى مكان متحرّكا، فقد اعتقد مصوّرا

مخلوقا، والله خالق الصّور والأجسام ومحدث الجواهر والأعراض ومبدع الأماكن والأزمان، لا تصوّره الأوهام ولا يحيط به الأفهام، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير(3).

ص: 162

1- راجع التّبيان للطوسي: 2/309، وقائل البيت: العجاج.

2- هنا كلمة لا تقرأ.

3- الأنعام: 103.

ذكر اللوح و القلم

قال الحافظ:

اللوحة و القلم يثبتهما الكتاب، قال الله تعالى: «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ»⁽¹⁾ وقال: «ن و القلم و ما يسطرون»⁽²⁾ و في الأثر: أ نّ إسرافيل موكل باللوحة ينظر فيه، ينتظر متي يؤمر أن ينفخ في الصور.

[وقيل: اللوح] مجمع علوم الكوائن؛ أصله من ذهب، و دفتاه ياقوتتان حمراوان، [عرضه] من المشرق إلى المغرب، و طوله من العرش الي الثري.

وقال بعض المحققين و أهل التصوّف: المراد باللوحة المحفوظ: القلب، و هو محفوظ و مستور عن عين الظاهر⁽³⁾، و هو مظهر العلوم و محلّ التجلّي و معاني الكلام، و هكذا قول عبد الله بن عباس في «لوح محفوظ» أي في قلب محفوظ.

و أمّا القلم؛ [فهو]...⁽⁴⁾ بيضاء طوله ألف سنة.

و في الأثر: لمّا خلق الله القلم قال: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: علمي في خلقي. فجري القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة⁽⁵⁾

و روي عن ابن عمر عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: سبق العلم و جفّ القلم و تمّ القضاء

ص: 163

1- البروج: 22.

2- القلم: 1.

3- في الأصل: عن غير الطاهر.

4- هنا كلمة لاتقرأ.

5- راجع البحار: 57/374 و مسند أحمد: 5/317 و سنن الترمذي: 3/311.

بتحقيق الكتاب و تصديق الرسالة، و بالسعادة من الله و بالشقاوة من الله (1)

و ذكر صاحب كتاب الاعتقاد: أن اللوح و القلم هما ملكان (2) فإثباتهما من طريق الخبر و العقل يجوز، و لا يوجب الإيمان بهما حسب ما يوجبه الأخبار الصادقة، و الله أعلم.

ص: 164

1- التوحيد للصدوق: 340.

2- الاعتقادات للشيخ الصدوق: 44.

قال الحافظ:

إنَّ اللهَ تعالى زَيَّنَ السَّمَاءَ بِالنَّجْمِ وَقَسَمَهَا.

فمنها للدلالة والهداية؛ قال الله: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون»⁽¹⁾ وقال: «وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»⁽²⁾

ومنها للحُسن والزينة قال الله تعالى: «ولقد زينَّا السماء الدنيا بمصابيح»⁽³⁾ وقال: «إنا زينَّا السماء بزينة الكواكب»⁽⁴⁾

وفي الأثر: عن رسول الله صلي الله عليه وآله: إنَّ اللهَ زَيَّنَ أَرْبَعًا بِأَرْبَعٍ؛ السَّمَاءَ بِالنَّجْمِ، وَالأَرْضَ بِالعَيُونِ، وَالرِّجَالَ بِاللِّحْيِ، وَالنِّسَاءَ بِالدَّوَابِّ.⁽⁵⁾

ومنها للحفظ والرَّجم؛ قال الله تعالى: «ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للنَّاظرين و حفظناها من كلِّ شيطان رجيم إلا من استرق السَّمْعَ» يعني اختلسه (فأتبعه

ص: 165

1- النَّحْلُ: 16.

2- الأَنْعَامُ: 97.

3- المَلِكُ: 5.

4- الصَّافَّاتُ: 6.

5- راجع الصَّراطِ الْمُسْتَقِيمِ: 3/285 والبحار: 61/316 و 21 و تفسير القرطبي: 10/294 و تاريخ مدينة دمشق: 36/341.

شهاب مبین»(1) يقول: فأدرکه نجم مضيء. وقال: «إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب»(2)

و معظم الكواكب سبعة:

أولها: القمر، طبيعته المرّة البيضاء. يدلّ علي كثرة المشي والسّير في البلاد وقطع الأماكن البعيدة، وهي للرّسل وأصحاب الأخبار والجواسيس والفيوج، وحظّه من الأيّام يوم الاثنين.

والثاني: العطار، وطبيعته في السّعد والتّحس طبيعة النّجم الّذي يقترن معه، وهو يدلّ علي العلم والبلاغة والخطّ والكتابة والتميز بين الأشياء والحساب والتّجوم والنّقش والتصوير وهو للكتابة والنّقاشين والمنجمين، وحظّه من الأيّام

يوم الأربعاء.

والثالثة: الزّهرة، وطبيعتها المرّة البيضاء. تدلّ علي الفرح والسّرور والبهو واللعب والمناكحة والتنظف والتّجمل والتّطيب والتّعطر والتّلطف في الأمور،

وهي للنساء والمطربين والعطّارين وأصحاب الملاهي، وحظّه من الأيّام يوم الجمعة.

والرابعة: الشّمس، وهي أجلّ الكواكب، ومنها نور العالم، وطبيعتها المرّة الصّفراء، وهي تدلّ علي الأمور السّنيّة والأسباب الرّفيعة وكمال المرؤة وطهارة

النّفس والعقل وأحكام التّدبير، وهي للملوك والأمراء والكبراء والعظماء والأجلة

وحظّها من الأيّام يوم الأحد.

والخامسة: المريخ، طبيعته الصّفراء. يدلّ علي الشرّ والفساد والحرق والقّتل والغارات، وهي لأصحاب الأسلحة والقوّاد والأخبار(3)، وحظّه من الأيّام يوم الثّلاثاء.

ص: 166

1- الحجر: 16.

2- الصّافات: 10.

3- كذا.

و السّادسة: المشتري، طبيعته المرة الحمراء، وهو يدلّ علي العلم و الفقه و الصّلاح و السّداد و العدل و السّكينة، و هو للعلماء و الفقهاء و القضاة و المعدّلين

و العقلاء و الأدباء و الرّهّاد و العباد، و حظّه من الأيّام يوم الخميس.

و السّابعة: زحل، طبيعته المرة السوداء. يدلّ علي الحرث و الزّراعة و كثرة الأكل و اللباس و المكر و الخيانة و الحيل و العداوة و التفكّر في الأمور و التعمّق في الأسباب و سموّ الهمة و الظفر في الحروب، و هي للمتكبرين و المتجبرين و المتعظّمين و المتسلّطين و من له رأي ثابت و همّة عالية، و حظّه من الأيّام يوم السّبت.

و الأفلاك تسعة:

أولها: فلك القمر، و فلك عطارد، و فلك الزّهرة، و فلك الشّمس، و فلك المريخ، و فلك المشتري، و فلك زحل، و فلك البروج، و فلك الأفلاك، و هو الفلك المستقيم و يسمّي فلك الكلّ و حامل الأفلاك.

و يقال: أول الأفلاك فلك الأثير

و الفلك: مجمع الأنوار العلويّة، و سمّي فلك الدّوران(1) و منه اشتقّ المغازل لاستدارته و دورانه.

و البروج اثنا عشر، قال الله تعالى: «تبارك الذي جعل في السّماء بُرجاً»(2) و قال: «و السّماء ذات البروج»(3) فأول البروج: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و السرطان، و الأسد، و السّنبله، و الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدي، و الدّلّو، و الحوت،

و هو آخر البروج. و السرطان بيت القمر، و الجوزاء و السّنبله بيت عطارد، و الثور و الميزان بيت الزّهرة، و الأسد بيت الشّمس، و الحمل و العقرب بيت المريخ،

ص: 167

1- لعلّ الصّحيح: سمّي فلکا لدورانه.

2- الفرقان: 61.

3- البروج: 1.

و القوس و الحوت بيت المشتري، و الجدي، و الدلو بيت زحل، فالزحل يبقي في كلّ برج خمسة و ثلاثين شهرا و يقطع البروج في خمس و ثلاثين سنة، و المشتري، يبقي في كلّ برج سنة، و يقطع البروج في اثنا عشر سنة، و المريخ يبقي في كلّ برج خمسة و أربعين يوما، و يقطع البروج في ثمانية عشر شهرا، و الشمس يبقي في كلّ برج شهرا، و يقطع البروج في كلّ سنة و الزهرة يبقي في كلّ برج خمسة و عشرين يوما، و يقطع البروج في عشرة أشهر - و يقال: في ثمانية أشهر - و عطارد يبقي في كلّ برج شهرا - و يقال: خمسة عشر يوما، و هو الأصحّ عندهم - و يقطع البروج في سنة - و يقال: في ستّة أشهر - و القمر يبقي في كلّ برج يومين و ثلثا، و يقطع البروج في ثمانية و عشرين يوما.

و اعلم أنّ كلّ برج - علي ما حكم به أهل التنجيم - ثلاثمائة و ستون درجة، كلّ درجة ستون دقيقة، كلّ دقيقة ستون ثانية، كلّ ثانية ستون ثالثة إلي العواشر و إلي ما دقّ من الحساب، و الله اعلم.

و أول نجم يطلع من المشرق شمسا طالعا(1)، و منه ينظر في الأمور و الأسباب، فأول البيوت بيت الحياة، و الثاني بيت الماء و المطر و الزرع، و الثالث بيت الإخوة

و الأخوات و الأقرباء و السّفر القريب، و الرابع بيت الآباء و الأمّهات و العاقبة، و الخامس بيت الأولاد و النّساء و الرّفقاء و الأحبّاء، و السادس بيت العبيد و الإماء

و المراتب و المرض، و السّابع بيت الشّركاء و الخسران و الحرب و الخصومة و الهزّاب و السّرّاق، و الثّامن بيت الموارث و البليّات و الغموم و الأحزان، و التّاسع

بيت السّفر البعيد و العلم و الدّيانة و عمارة الدّنيا و السّقوط من المرتبة و العزّ،

و العاشر بيت الملوك و الأمراء و الأجلّة و الدّخول في أسبابهم، و الحادي عشر بيت الرّجاء و الوصلة، و الثّاني عشر بيت الأعداء و المسجونين.

و اعلم أنّ علم التنجيم نبويّ؛ يقال: أوّل من تكلمّ فيه و احتجّ به و دلّ الخلق عليه

ص: 168

1- كذا.

إدريس النبي عليه السلام وهو الذي يسمّى أخنوخ، وهو جدّ أب نوح عليه السلام، وذلك أنّ الله أطلعه على الأفلاك و سَير الكواكب حتّى لم يخف عليه شيء منها، وكان الغالب في زمانه النَّظَر في الكواكب والافتخار بمعرفتها، كالحُسن في زمن الصّديق، و السّحر في زمن الكليم، والقوّة في زمن الأواب، و الملك في زمن سليمان، و الطّب في زمن المسيح، و الفصاحة و البلاغة في زمن الحبيب المصطفى صلوات الله عليه و علي الرّسل أجمعين.

وقد نطق القرآن بنظر الخليل في النّجوم؛ قال الله يصف سيرته: «فنظر نظرة في

النّجوم فقال إني سقيم»(1) فالآية محمولة علي ظاهرها لا تحول إلاّ بدليل قاطع، فقد ذهب بعضهم إلي أنّ نظره في النّجوم فكره تفكّر في نفسه. وقيل: في أصحابه.

و كيف يبطل علم النّجوم ولا يصحّ النَّظَر فيها وقد قال الله عزّ ذكره: «يسألونك عن الأهلة» يعني زيادتها و نقصانها «قل هي مواقيت للنّاس و الحجّ»(2) وقال: «و جعلنا الليل و النّهار آيتين فمحونا آية الليل و جعلنا آية النّهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربّكم و لتعلموا عدد السّنين و الحساب و كلّ شيء فصلناه تفصيلاً»(3) وقال: «هو الذي جعل الشّمس ضياءً و القمر نورا و قدره منازل لتعلموا عدد السّنين و الحساب ما

خلق الله ذلك إلاّ بالحقّ يفصل الآيات لقوم يعلمون»(4) وقال: «و الشّمس تجري

لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم و القمر قدرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم»(5) يقول كالعذق المقوّس الذي حال الحول عليه، ثمّ بيّن حالهما فقال: «لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النّهار و كلّ في فلك يسبحون»(6).

ص: 169

1- الصّافات: 89.

2- البقرة: 189.

3- الإسراء: 12.

4- يونس: 5.

5- يس: 39.

6- يس: 40.

فدَلَّ ما تلونا من الآيات علي تحقيق علم النَّجوم و النَّظر فيها، و كيف لا يصحَّ ذلك و قد قال الله عزَّ ذكره: «أولم ينظروا في ملكوت السَّموات و الأرض و ما خلق الله من شيءٍ» (1) و أمر نبيّه بترديد البصر فيها، قال: «فارجع البصر هل تري من فطور ثمَّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئًا و هو حسير» (2) و قال: «أفلم ينظروا إلي السَّماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها و ما لها من فروج» (3) أي من شقوق و صدوع و عيوب و خلل.

فإن احتجَّ بحديث أنس بن مالك عن رسول الله صلي الله عليه و آله: المنجم عند الله عاص و عند الناس متهم.

قلنا: إن صحَّ هذا بعد ما أطلق الكتاب النَّظر إليها و دلَّ علي التَّفكّر فيها، أراد به عليه السلام من رأي الصّنع منها و اعتقدها مسببًا لا أسبابًا موضوعة مجبورة، و أراد به ذمّ أقوام

يعبدون النَّجوم و يضيفون المضارّ و المنافع إليها دون خالقها و مجريها و مدبّر أمرها.

و هي المدبّرات عندي لا المدبّرات؛ لأنّ المدبّر هو المقدر الحكيم العالم القديم لا الكواكب يقع عليها النَّحس و السّعد، و هي تسير و تجري بأمر مجريها كالأرحية الموضوعة للطحن لا بدّ لها من مدبّر و سانس يسوس أمرها و يدبّر أسبابها.

و هذا أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا نظر إلي الهلال قال: أيّها الخلق المطيع، الدّائب السّريع، المتردد في منازل التّقدير المتصرّف في فلك التدوير، آمنت بمن نور بك الظلم و أوضح بك البهم، و جعلك آية من آيات ملكه [و] علامة من علامات سلطانه، فامتحنك بالزيادة و النقصان و الطلوع و الأفول و الإنارة و الكسوف؛ في كلّ ذلك أنت له مطيع و إلي إرادته سريع، سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك و ألطف ما صنع في شأنك، جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث، جعلك الله هلال بركة لا تمحقها

ص: 170

1- الأعراف: 185.

2- الملك: 4 و 3.

3- ق: 6.

الأيام و طهارة لا تدنّسها الآثام، هلال أمانة من الآفات و سلامة من السيئات، هلال سعد لا نحس فيه، و يمن لا نكد معه، و يسر لا يمازجه عسر، و خير لا يشوبه شرّ، هلال أمن و إيقان و نعمة و إحسان. اللهم اجعلنا أرضي من أطلع عليه، و أزكي من نظر إليه، و أسعد من تعبّد لك فيه، و وقّفنا فيه للتّوبة، و اعصمنا من الحوبة، و أوزعنا

فيه شكر النّعمة، و ألبسنا فيه خير العافية، و أتمم علينا باستكمال طاعتك فيه المنة، إنك أنت المنان الحميد. (1)

كيف لا يجوز النّظر في شيّدرك الناظر فيه حقيقة التّوحيد و آثار الرّبوبيّة و أحكام الإلهيّة. و مثل هذه الحقائق لا يطلع عليها إلا العلماء الرّاسخون و الأوصياء

المعصومون مثل أمير المؤمنين و أشياعه الأطهرين.

و كان مؤلّف الكتاب إذا وصف أمير المؤمنين عليه السلام قال: قمريّ السّبِق و السّرعَة، عطارديّ الخطّ و الكتابة، زهرويّ الظّرف و الملاحَة، شمسيّ الخير و المنفعة، مريخيّ البطش و الشّجاعة، زحليّ الحقد و الحميّة.

و إنّ الله لم يخلق الأشياء عبثاً و لم يترك الخلق سُدّيّ، و لم يضع الأدلّة باطلة و لم

يرسل الرّسل هزلاً، و إنّّه جعل لكلّ شَيْسِبا و فتح له باباً و بيّن له سبيلاً. فمن اعتمد

السّبب و نسي المسبّب فقد ضلّ عن السّبيل و عمي عن الدّليل، و من استعمل السّبب و توكلّ عليّ المسبّب و فوّض الأمر إليه و أيقن بما لديه و فقه لما فيه الرّشد

و حميد العاقبة، فإنّه الكافي، الوفيّ و لا قوّة إلا بالله، و ما التّصر إلا من عنده، و هو العزيز الحكيم.

ص: 171

1- هذا هو الدّعاء 43 من الصّحيفة السّجّاديّة مع تلخيص و تفاوت.

قال الحافظ:

العالم عندي - والله اعلم - ما يعلم وجود الباري و وحدته، و هو عند العرب كلّ ناطق مختار. ألا تري ابن عبّاس رضي الله عنه قال في تفسير قوله: «ربّ العالمين» يعني ربّ كلّ ذي روح علي وجه الأرض.

و العالم اثنان: عالم صغير، و عالم كبير

أمّا الصّغير؛ فهو نفس الإنسان المركّبة من العناصر الأربعة، و هي التّار و الهواء و الماء و التراب، و جمع فيها من الآيات ما جمع في العالم الكبير ليستدلّ الناظر علي مدبّرها و خالقها.

و أمّا الكبير؛ فهو الآفاق، و فيها دلالة العقلاء و عبّر البصراء و حجج العلماء و بصر

الحكماء.

وقيل: العالم اثنان: عالم مشهود، و هو ما يشهده الإنسان نظرا و اعتبارا. و عالم موعود، و هو ما وعده الباري بشري و انتظارا.

وقيل: العالم اثنان: جسمانيّ و روحانيّ.

أمّا الجسمانيّ؛ فالدنيا و ما فيها.

و أمّا الرّوحانيّ، فالآخرة و ما فيها

و قال أهل التّصوّف: العالم اثنان: عالم الصورة، و عالم الصّفا.

وقيل: العالم اثنان: سفليّ و علويّ.

أما السّفليّ؛ فالأرض و من عليها.

و أما العلويّ؛ فالسّماوات و من فوقها.

أما الأرض فعليّ ضربين: برّ وبحر. و البرّ عليّ ضربين: سهل و جبل لا و البحر عليّ وجهين: عذب و ملح، قال الله تعالى: «و هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات و هذا ملح أجاج و جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا»⁽¹⁾ و هو حاجز قدّره، و كلّ شيء بين شيئين فهو برزخ، و «حجرا محجورا» يمنع أحدهما عن الاختلاط بالآخر.

و فيما يؤثر عن أمير المؤمنين عليه السلام - و الله أعلم - : إنّ الأرضين عليّ رأس الملك، و الملك عليّ الصّخرة الخضراء، و الصّخرة عليّ قرنيّ الثّور، و الثّور عليّ ظهر الحوت، و الحوت عليّ الماء، و الماء عليّ الرّيح، و الرّيح عليّ الهواء، و الهواء عليّ الثّري - و هو التّدي من التّراب - و الثّري فوق الصّخرة السّوداء، و الصّخرة هي السّجّين التي قال الله تعالى: «كلاّ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين و ما أدراك ما سجّين كتاب مرقوم»⁽²⁾ - قيل: مختوم. و قيل: مكتوب عليه اسم صاحبه - و تحت الصّخرة جهنّم «لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم»⁽³⁾ و هي أسفل العالم.

هذا مذهب العلماء من أهل التّظنّ في تركيب الأرض. و ما يروي من الأخبار مبنيّة عليّ هذا أو عليّ ما يقاربه.

و عند أهل التّنجيم أنّ الأرض سبعة أقاليم متّصلة بعضها ببعض، و أنّ الله زيّن الأرض بالماء و النّبات و الحيوان قال الله تعالى: «إنا جعلنا ما عليّ الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً»⁽⁴⁾

و فوق الأرض الهواء، و هو جسم رقيق لا يري، لكنّه إذا حرّك تحرّك، و يسمّي

ص: 173

1- الفرقان: 53.

2- المطفّفين: 7.

3- الحجر: 44.

4- الكهف: 7.

الجوّ، قال الله تعالى: «الم يروا إلي الطّير مسخّرات في جوّ السّماء ما يمسكهنّ إلاّ الله»⁽¹⁾

وفي الهواء السحاب وهو ما ينعقد بين السماء والأرض فيمطر منه، والرّعد وهو الصّوت الذي يسمع من السّحاب، وهو عند الرّواة ملك يسوق السّحاب. قال الله تعالى: «و يسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته»⁽²⁾، والبرق وهو النّار التي تتقدح من السّحاب، والصّواعق وهي النيران التي تخرج من السّحاب فتحرق الحيوان والنبات، والريّح وهي ما تهبّ في الهواء، وهي علي وجوه: ريّح الصّبا، وريّح الجنوب، وريّح الدّبور، وريّح الشّمال. فريّح الصّبا بركة، وريّح الجنوب زيادة، وريّح الشّمال رحمة، وريّح الدّبور عقوبة.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: نصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدّبور⁽³⁾

وقال: لا تسبّوا الرّيح فإنّها من نفّس الرّحمان⁽⁴⁾ يعني من نصرته، فالنّفّس النّصرة هاهنا لا غير، يقال: نفّست كربته: إذا نصرته وفرّجت عنه، وهو قريب من قوله عليه السلام: أجد نفّس ربّكم من قبل اليمن⁽⁵⁾ وذلك أنّ الأنصار كان أصلهم من اليمن. وفي رواية: إني لأجد نفّس الرّحمان من قبل اليمن⁽⁶⁾ وهو مخصوص بأويس القرني، 2 لأنّه ناصر دين الله وشريعة رسوله عليه السلام.

وفي الهواء البارد، وهو المطر المنعقد الذي ينزل من السّحاب شبه اللّثالي، و الثلج وهو أجزاء الماء المنعقدة اللّيّنة

وقيل: في الهواء جبال وبحار، والله أعلم بذلك، قال الله تعالى: «الم تر أنّ الله

ص: 174

1- النّحل: 79.

2- الرّعد: 13.

3- راجع نواذر الرّاوندي: 103 و صحيح البخاري: 2/22.

4- راجع المجازات النّبوية: 57 و سنن النّسائي: 6/232 والإيضاح لابن شاذان: 14.

5- راجع مسند أحمد: 2/541 و المعجم الاوسط: 5/57 و المجازات النّبوية: 56.

6- راجع النّهاية لابن الأثير: 5/93 و مسند الشاميين: 2/150.

يزجي سحاباً ثم يؤثف بينه ثم يجعله ركاماً» يعني متراكماً بعضه فوق بعض «فتري الودق» وهو المطر الغزير العظيم القطر «يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء» فضلاً و نعمة «و يصرفه عمّن يشاء» اختباراً و حكمة «يكاد سنا برقه» يعني ضوئه «يذهب بالأبصار»(1)

ثمّ العالم العلويّ و(2) هو السّماوات السّبع المطبّق بعضها فوق بعض، قال الله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا»(3) و قال: «ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنّا عن الخلق غافلين»(4) و السّماوات أماكن البروج و الأفلak و الكواكب الثابتة و السّائرة و مستقرّ الملائكة، و فيها البيت المعمور، و في السماء المجرّة و هي الطّريقة البيضاء، و فيها الأصباغ و هي التي تنعقد في السّماء بعقب المطر أيّام الرّبيع،

تسمّيها العامّة: قوس قزح، و سمّاه أمير المؤمنين عليه السلام قوس الله. و قال: هي أمان من الطّوفان بعد الغرق أمير المؤمنين عليه السلام دلالة علي الخصب(5) قال الله تعالى: «و السّماء ذات الحبک»(6) و هي الطّرائق التي كأنّها مرگب بعضها فوق بعض، و فيها الخنّس و هي الأنجم التي تسير في البروج كسّير الشّمس و القمر، و هي التي تخنّس أي ترجع بينما تري أحدها في آخر البرج، ثمّ كرّ راجعاً إلي أوّله و يسمّي أيضا كنّسا لأنّها

تكنّس، أي تستتر كما تستتر الطّباء

و أديم السّماء هو ظاهرها

و عنان السّماء ما عنّ منها و عرض للبصر.

و سئل أمير المؤمنين عليه السلام هل للسّماوات قفل و هل للقفل مفتاح؟ قال: قفلها

ص: 175

1- التّور: 43.

2- الظّاهر زيادة الواو.

3- الملك: 3.

4- المؤمنون: 17.

5- انظر الخصال: 441، تحف العقول: 229، روضة الواعظين 46.

6- الذاريّات: 7.

الشُّرك و مفتاحها الشَّهادة(1) قال الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطَّيب و العمل الصَّالح يرفعه». (2)

و حُرَّاس السَّمَاوَاتِ التَّجُوم، و هي السَّهْبُ الثَّوَابِق. قال الله يحكي قول الجنّ: «و إذآ لمسنا السَّمَاء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهبا» (3)

و فوق السَّمَاوَاتِ الملكوت و هو مُلك الباري، و يقال: هو دانٍ ملكه. و يقال أيضا: ملكوت السَّمَاوَاتِ و الأرض، قال الله تعالى يصف الخليل عليه السلام: «و كذلك نرى إبراهيم

ملكوت السَّمَاوَاتِ و الأرض و ليكون من الموقنين» (4)

و في المأثور: سبحان ذي الملك و الملكوت، سبحان ذي العزّة و الجبروت (5) و جبروته عظمته و تجبّره و عظمته، جلاله أمره و علوّ سلطانه.

و لا يعتقد في ذاته طول و عرض، فإنّها توجب المساحة، و المساحة توجب التَّقدير و التَّحديد، و مثبت هذا خارج عن حكم الموحّدين.

و الجنّة فوق السماوات السَّبْع، و التَّار تحت الأرضين السَّبْع، و عرض الجنّة الواحدة مثل السَّمَاوَاتِ و الأرض.

و الأفق الأعلى: اسم موضع في السَّمَاء السَّابِعة.

و عليّون: لوح من زبرجد أخضر تحت العرش، و هو مشهد الأملاك لعرض الأعمال و نسخة الآجال، قال الله تعالى: «كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفي عليّين و ما أدراك ما عليّون كتاب مرقوم يشهده المقربون» (6).

ص: 176

1- راجع غاية المرام 5/217 و الغدير: 6/242 و البحار: 30/118.

2- فاطر: 10.

3- الجنّ: 8.

4- الأنعام: 75.

5- مصباح المتهجّد: 85.

6- المطفّفين: 21.

وفي الآثار: أن فوق السماوات حجب من بحار وأستار (1) أودية تتوقد منها نيران، وفيها صفوف من الملائكة من قائم وراكع (2) و ملف رأسه في جناحه يسبحون الليل والنهار لا- يفترون وعن العبادة لا يستكبرون ولا يستحسرون، لكل ملك منهم مقام معلوم لا يجاوزه إجلالاً- لعظمة الله وتعظيما لهيبته، قال الله تعالى: «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (3) و هيهات! لو شاهدتها عاقل بقلبه لطار فؤاده و ذهب رقاده و طال حنينه و اشتد أنينه لما يرد عليه من الهيبة آثار علوية و أحكام إلهية

و شواهد ربانية و أسرار ملكوتية و دلائل برهانية، سوابق لطف و ألطاف برّ و خزائن

حكمة و كنوز رحمة، سرّ مخزون و قلم مكنون و لوح مصون و عرش مجيد و كرسي رفيع و أمر بديع، لا يشهده إلا المقربون و لا يطلع عليه إلا المرسلون و لا يوقن به إلا المطهرون و لا يتفكر فيه إلا المخلصون و لا يحقّقه إلا العارفون، حجب العقول عن

إدراكها، و الألسن عن جحودها، و المعرفة عن ردّها، عند ذكره يخضع نفوس المتجبرين، و يتحير أوهام المتفكرين، و تصفو عقول المستبصرين، و تطيش أحلام العارفين إعظاما لأمر رب العالمين.

ص: 177

1- هنا سقط في الأصل.

2- هنا سقط في الأصل.

3- النحل: 50.

ذكر النفس الأتارة و اللؤامة و المطمئنة

قال الحافظ:

أجلّ الأنفس نفس [الحيوان و أجلّ من] الحيوان نفس الإنسان لأتّها الجامعة للمعاني القابلة (1) بالمعاش، الذّكرة للمعاد، التّأطرة في العواقب، الطّالبة للرّشد. [و النفوس] ثلاثة:

نفس أّارة، قال الله يحكي قول امرأة العزيز: «و ما أبرّئ نفسي إنّ النفس لأّارة بالسّوء» (2)

و نفس لؤامة، قال الله: «و لا أقسم بالنّفس اللؤامة» (3)

و نفس مطمئنة، قال الله تعالى: «يا أيّتها النّفس المطمئنة ارجعي إلي ربّك راضية مرضيّة» (4) فالأّارة أرضيّة، و اللؤامة سماويّة، و المطمئنة ملكوتيّة عرشيّة. فالأّارة تميل إلي الدّنيا و تتبع هواها و تطلب الشّهوات و تقضي مناها، و اللؤامة تجتهد في الطّاعة و تخالف هواها و ترفض الشّهوات و تترك مناها، و المطمئنة تشاق إلي الملكوت بسموّهمّتها و صدق إرادتها و صفاء ذهنها.

ص: 178

1- هنا سقط في الأصل.

2- يوسف: 53.

3- القيامة: 2.

4- الفجر: 27.

ذکر النَّفس و الروح و القلب

فالنَّفس مرید الدُّنیا، و الروح مرید الآخرة، و القلب مرید الملک. فأما سبیل النَّفس إلی مرادها فالنَّهمة و الشَّهوة، و أما سبیل الروح إلی مراده فالرَّغبة و الرَّهبة، و أما سبیل القلب إلی مراده فالشُّوق و الإنابة

فالإنسان مرکب من الأصول المذكورة في قوله عزّ ذکره: «لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر» - قيل: الروح، و قيل: هو [نبات] الشَّعر، و الأول أولي «فتبارک الله أحسن الخالقين»⁽¹⁾ فظهر فعل الرُّبوبيّة في خلق الإنسان

و قد قيل: الإنسان هو العالم الصَّغير، و هو أفضل الأشياء و أكملها و أقربها و أحسنها، و قد فضَّله الله علي غيره بالعقل و التمييز و الصَّورة الحسننة و تجنُّس الأفعال، قال الله تعالي: «و لقد کرّمنا بني آدم و حملناهم في البرّ و البحر و رزقناهم من الطَّيبات و فضدّناهم علي كثير ممّن خلقنا تفضيلاً»⁽²⁾.

و لم يخلق الله في العالم الكبير شيئا إلاّ و خلق مثله في نفس الإنسان الذي هو العالم الصَّغير و غرض العالم الكبير.

ص: 179

1- المؤمنون: 12. و في تفسير الطبري 18/9: عن قتادة، يقول بعضهم: هو نبات الشَّعر، و بعضهم يقول: هو نفخ الروح.

2- الإسراء: 70.

ففي العالم الشمس والقمر والتّجوم، وفي نفس الإنسان المعرفة والعقل والعلم.

وفي العالم الفلك، وفي النّفس القلب، وهو فلك البدن.

وفي العالم الرّسل والأنبياء، وفي البدن الحواس الخمس وهي رسل الجوارح إلي القلب القابل المدبّر للأمر.

وفي العالم أضداد وأشكال، وفي النّفس كذلك.

وبقاء العالم بالمادّة العلويّة، وبقاء النّفس بالدماغ الذي هو أجلّ الأعضاء الرئيسيّة.

وفي العالم بحار وعيون وأنهار من عذب وملح، وفي النّفس عروق شبه الأنهار والعيون والبحار.

وفي العالم جبال، وفي النّفس عظام بها بقاء النّفس كما بتلك الجبال الرّواسي ثبوت الممكن. (1)

وفي العالم رياح مُصلحة ومميّزة، كذلك في النّفس رياح جاذبة وهاضمة وماسكة ودافعة.

وفي العالم محن وأهوال، وفي النّفس خواطر وشبهه.

وفي العالم نبت وأشجار، وفي النّفس كذلك، وهو الاشعار (2) والأشفار والحواجب وما شاكلها.

وفي العالم آفات ونوازل، وفي النّفس أمراض وأسقام وأوجاع.

وفي العالم سعود ونحوس، وللنّفس خذلان وحرمان وتوفيق وعصمة وأفعال سنّية وأخلاق رضّية وأطباع رديّة وآثار ذميمة.

وفي العالم عيّر وأمثال، وفي النّفس عجائب وأحوال، قال الله تعالى: «سنريهم

ص: 180

1- كذا.

2- في الأصل: الشفاه.

آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (1).

فالتّفس ضيعة المؤمن، والشّهوات شوكة، والشّياطين خنازيره، والعقل حرّائه، والعلم دليّله، والحلم وزيره، والصبر جنته، والفقير شعاره، والخوف دثاره، والزهد

سريره، والحكمة خزائنه، والتوكّل حصنه، والحجّة سيفه، واللّه وليّه ومولاه وحسبه وكفاه.

وقيل: التّفس عدوّ لا تحذر، وعداوتها ظاهرة لا تستر.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: رأيتم نفسا إن نعمها صاحبها وفتقها ذمته غدا قدّام الله وإن أتعبها صاحبها وأنصبها مدحته غدا قدّام الله. قيل: يا رسول الله،

وما هي؟ قال: تيكم أنفسكم التي بين أجنبكم.

فعلي العاقل الرّشيد أن يؤدّب نفسه ويهدّب أخلاقه ويحملها علي ما يزيّنها ويصونها عمّا يسيئها ويتفكّر في عاقبتها، فإنّ الأنفس جواهر و لها أثمان و خزائن،

وإنّما التّفاضل في هذه الجواهر بالعلم الإلهيّ، فقد قال سيّد الأنبياء صلي الله عليه وآله: إنّ من العلم

شيئمكنون - أو قال: مدفون - لا يعلمه إلاّ العلماء باللّه، فإذا نطقوا به لم يجهله إلاّ أهل العزّة باللّه، فلا تحقروا عبدا آتاه الله علما، فإنّ الله لم يحقره لما استودعه علمه. (2)

و من مشهور قول أميرالمؤمنين عليه السلام: قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، و ما هلك امرؤ عرف قدره. (3)

و اتّفقت الحكماء علي أنّ من عرف نفسه فقد عرف ربّه؛ لأنّ الأنفس بما فيها من العجائب دالّة علي خالقها و محدثها و مصوّرها.

و فضائل الإنسان الشّريفة أكثر من أن تحصي، و حسبك أنّ التّفس الواحدة شاهدت الملكوت فاطّلت علي الكوائن الأبدية بصفاء ذهنها و نور عقلها، و هو

ص: 181

1- فصّلت: 53.

2- راجع الكامل لابن عدّي: 4/111 و تذكرة الموضوعات: 18.

3- الخصال: 420.

نفس المصطفى من الرّسل علي ذكره سلام الله، و تلقّنت النّفس الثّانية الشّريفة ما ألقى إليها لسان التّبليغ عند فراق المحنة تخصيضا لها من بين البشر بحبله و موافقته معه في العسر و اليسر و السرّ و الجهر.

و هذا أبو البشر ساد الملائكة المقربين بفضائل نفسه الشّريفة، فخرّوا له ساجدين و أقرّوا بفضله طائعين، و نزلت اللعنة علي المستكبرين، و سخر الله العالم بما فيها

لمن تباهت فضائله من نفس الإنسان يكشف عن مضمرة أحوال المرسلين و آثار النّبیین.

و في رواية الصّادقين عليهم السلام: كان جبرائيل يقعد بين يدي رسول الله صلي الله عليه و آله قعدة العبد

بين [يدي] مولاه (1) كل ذلك باذن باريه و اذن خالقه و منشئه إظهارا لفضله و إثباتا لشرفه، و لو لم يكن من فضائل هذه الأنفس الشّريفة إلا ما جعل الله فيها من النّبوة

و الرّسالة و الإمامة و الخلافة و الملك و السّياسة و الشّرف و الرّياسة و الحكم و القضيّة و الحذق و المهارة مع سوايغ نعمها و خصائص منها التي اختصّت بها دون البرية (2) فتدبّر أمر نفسك و تفكّر في ما ندبت له و دعيت إليه، و لا تكن ممّن جمحت به الشّهوات في الوحول المردية فأطعاه الكبر و أبطره الغنا و غرق في بحار المنى و آثر الأولي علي الأخرى و صار إلي نار اللّطي، قال الله تعالى: «فأما من طغي» يعني خرج من حدّ العبوديّة «و آثر الحيوة الدّنيا فإنّ الجحيم هي المأوي و أمّا من خاف مقام ربّه و نهى النّفس عن الهوي فإنّ الجنّة هي المأوي». (3)

ص: 182

1- راجع علل الشرائع: 1/7.

2- جواب «لو» محذوف ظاهرا.

3- التّازعات: 40.

الطبّ علم إلهيّ سماويّ نبويّ، نطق به الكتاب ووردت فيه السنّة عن الرسول صلي الله عليه وآله الأئمّة بعده.

أمّا الكتاب؛ فقوله عزّ ذكره في شأن النحل و ذكر العسل و ما جعل فيه من الشفاء: «و أوحى ربّك إليّ النحل أن اتّخذي من الجبال بيوتا و من الشجر و ممّا يعرشون ثمّ كلي من كلّ الثمرات فاسلكي سبيل ربّك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للنّاس إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون» (1).

لم يقل هو شفاء للنّاس؛ دلّ عليّ أنّه نافع من وجه و ضارّ من وجه، و ذلك أنّ العسل ينفع للمرطوب و يضرّ للمحرور.

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: إنّ العسل شفاء ألا و هي سمّ الله القاتل (2).

و أمّا السنّة؛ فما؛ روي عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: لا تكرهوا أربعا فإنّها لأربع: لا تكرهوا الرّمذ فإنّه يقطع عروق العمي، و لا تكرهوا الرّكام فإنّه يقطع عروق الجذام،

و لا تكرهوا السّعال فإنّه يقطع عروق البلغم، و لا تكرهوا الدّمّل فإنّه يقطع عروق البرص (3).

1- النحل: 69.

2- كذا في الأصل. و لكن في مستدرک الوسائل: 16/368: في الخبر أنّ العسل شفاء من السمّ القاتل.

3- راجع الخصال: 210 و ميزان الاعتدال: 4/376 و لسان الميزان: 6/255 و الكامل لابن عديّ 7/242.

فقد أبان صلي الله عليه وآله جميع ما فيه مصالح الإنسان من عوارض العلل وما تعقّب من الشفاء ليستدلّ الناظر علي أنّ أعلم الخلق بالطبّ رسول الله صلي الله عليه وآله وأنبيأؤه وأوصياؤه عليهم السلام هذا، المسيح صليّ الله عليه بلغ من التأييد في هذا الباب أن أحبي الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن خالقه ومنشئه، وعجز عن ذلك رؤساء الفلاسفة وقدماء الأطباء.

وقد أيّد الله رسله عليهم السلام بالمعاجيز الباهرة حتّي لم يؤثّر السّم النافع في بواطنهم ولا التّار المحرقة في ظواهرهم، يستدلّ علي ذلك بأمر الخليل مع نار نمرود وشأن الحبيب مع الذراع المسموم.

ومما يدلّ علي أنّ الرّسل وأتباعهم كانوا أعلم الخلق بالطبّ ما أوحى الله إلي العذراء البتول عليها السلام عند ولادة المسيح عليه السلام من أكل الرّطب قوله: «وهزّي إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي» يعني من التمر «واشربي» من التّهر «وقري عينا» (1) بالولد المبارك. علّمها أنفع الأشياء للتّفاء.

ولو لم يكن هذا العلم الإلهيّ التّبويّ لهلك في معرفة أدني دواء عالم من البشر إذ لا يوقف علي طبائع الأغذية والأدوية إلا بتعليم أو تجربة.

وذكر [عن] أمير المؤمنين عليه السلام قال إذا شكا أحدكم بطنه فليسأل من صدق امرأته ثلاث دراهم وليشتر به العسل وليشربه بماء السّماء يجمع الله له الشّفاء. والهنّيء

والمريء: المبارك (2)

وذكر عنه عليه السلام قال: من أراد البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء، وليخفّف الرداء، وليلزم الجداء، وليقلّ غشيان النّساء. (3)

ص: 184

1- مريم: 25.

2- راجع تفسير العيّاشي 1/218.

3- راجع الفقيه 3/555 والأمالى للطّوسي: 666 وعيون أخبار الرّضا عليه السلام: 1/42.

و اتفقت الأطباء أنّ رأس الطّب الحمية و الأزم(1) و هو ما قالت الرّسل عليهم السلام من دلالة الخلق علي الصّوم و تعظيم أمره و تفضيل أيّامه علي سائر الشّهور، و مدحهم الجوع و نهيمهم عن كثرة الأكل و اقتصارهم علي الأدنى من ذلك.

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن بحسب ابن آدم أكالات تقمن به صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه و ثلث لشرابه و ثلث لنفسه.(2)

و قال عليه السلام: أجيئوا أكبادكم و أعروا جنوبكم و شعثوا رؤوسكم، و صبّوا عليكم جلباب الحزن لعلكم تلقون ربكم بقلوبكم.(3)

و اتفقت الحكماء علي ذمّ الشّبع المورث للثخيم الموليد للفضول، و إنّما أخذوا ذلك من الرّسل صلوات الله عليهم، يدلّ عليه قول المصطفي صلي الله عليه و آله: من بات في خفّة

من الطّعام و الشّراب تداكت حوله الحور العين حتّي يصبح.(4)

و قوله عليه السلام: عرض عليّ ربّي أن يجعل لي بطحاء مكّة ذهباً و فضّة، فقلت: أشبع يوماً و أجوع يومين، فإذا شبعت حمدت و إذا جعت تضرّعت(5)

و قال يحيي بن الحسن(6): إن أردت أن لا تحتاج إلي طيب فاجعل الحلق ميزان البطن؛ فإنّه ما أفسد الجوع يصلح بدانتق، و ما أفسد الشّبع لا يصلح بمائة درهم.

و قيل: الجوع شدّة مع سبعين راحة، و الشّبع راحة مع سبعين داء.

و قيل: الجوع سحابة تمطر الحكمة، و الشّبع غطاء يمنع الرّحمة.

و كان ابن مسعود يقول: عليكم بالشفاءين: العسل و القرآن.

ص: 185

1- . الأزم: الحمية و أزم عن الشبيء: أمسك عنه.

2- راجع البحار: 66/330 و مسند أحمد: 4/132 و سنن ابن ماجة 2/1111.

3- راجع مشكاة الأنوار: 448.

4- راجع المعجم الكبير: 11/258 و مكارم الأخلاق: 150.

5- راجع الكافي: 8/131 و مسند أحمد: 5/254 و سنن الترمذي: 4/6.

6- الحسين.

و بلغني عن بعض الفلاسفة أنه كان يحمل علي نفسه في الحمية، فقال له تلميذه: أيها الحكيم، لوزدت في غذائك شيئاً ازددت به قوة و نشاطاً! فقال له: يا بني

إنما أطلب الغذاء حرصاً مني علي البقاء، و لا أطلب البقاء حرصاً مني علي الغذاء.

و اعلم أن الطبائع العظمي أربعة: الحرارة و البرودة و الرطوبة و اليبوسة. اثنان منها فاعلان بإذن الله؛ و هما الحرارة و البرودة، و اثنان مفعولان؛ و هما الرطوبة

و اليبوسة

ثم يترتب من هذه المفردات الأربع أمهات مركبات؛ أولها النار و هي حارة يابسة، ثم الهواء و هو حار رطب، ثم الأرض و هي باردة يابسة، ثم الماء و هو بارد رطب.

و قوام كل شئ في العالم بهذه الأربعة و لا يستغني عنها شئ من حيوان و لا نبات و لا يقوم إلا بها، أعني الدم و البلغم و المرّة الصفراء و المرّة السوداء، و من هذه المزاجات يكون أبدان الناس و سائر الحيوانات.

و ذكر أطباء بابل أن البدن أربعة أجزاء:

الأول منها الرأس و ما يليه، فإذا اجتمع فيه فضول كان آية ذلك ظلمة العينين و ثقل الحاجبين و ضربات الصدغين و دوي الأذنين و انسداد المنخرين، فمن أحس شيئاً من ذلك فليأخذ إفسنتين (1) فيطبخه [في] شراب حلوم مع أصول الشعير حتى يذهب (2) نصف الماء و يتغرغره في كل غداة و يأكل الخردل و العسل فإنه إن أغفل عن ذلك أورثته وجع العينين و الخنازير و أوجاع الرأس الشديدة الصعبة مثل الصداع الدائم و الحرقة في الحلق و غير ذلك.

و الجزء الثاني: الصدر فإذا اجتمع فيه فضول كان آية ذلك ثقل اللسان و ملوحة الفم و مرارته و حموضة الطعام يجدها علي رأس المعدة و السعال، فينبغي لمن أحس ذلك أن يخفف من طعامه و يتقياً فإنه إن ترك ذلك أعقبه ذات الجنب و وجع

ص: 186

1- قال في بحر الجواهر: هو حشيشة فيه مرارة...

2- في الاصل: يذهبه.

الكلية و الحمّي وغير ذلك من الأمراض.

و الجزء الثالث: البطن و ما يليه، فإذا اجتمع فيه فضول كان آية ذلك التقطير و وجع الكليتين و الاقشعرار، فينبغي لمن أصابه ذلك أن يسهل البطن و يفرغ الفضول بالأدوية التي تلائم تلك العلل و الأوجاع، فإنّه إن أغفل عن ذلك كان خليقاً أن لا يأمن استطلاق البطن الشّديد المنهك للبدن و الرّحير(1) و وجع الوركين و المفاصل و الطّهر و البواسير و التّقرس و الرّياح الصّعبة.

و الجزء الرّابع: المثانة و ما يليها، فإذا اجتمع فيه فضول كان آية ذلك فتور الشّهوة و بثر(2) يظهر عليّ الاليتين و العانة، فينبغي لمن أحسّ ذلك أن يأخذ الكرفس و الرّازيانج(3) و من أصولهما فينقعه في شراب أبيض طيّب الريح، ثمّ يأخذ منه في كلّ غداة شيئاً ممزوجاً بالماء و العسل عليّ الرّيقي، و يقلّ من أكل الطّعام، فمن أغفل عن ذلك أورثه وجع المثانة و حصر البول و وجع الكبد و الرّئة.

و قال جالينوس: إنّ حفظ الصّحة يكون بإذن الله عليّ وجهين:

أحدها: الاغتذاء بما يوافق سنّ الإنسان و زمان السنة الذي هو فيه و العادة التي اعتادها بالأطعمة و الأشربة التي ألفها و بنيت بنيته عليها.

و الوجه الثّاني: إخراج ما يتولّد فيه من الفضول و الموادّ الرديّة.

و قال: إذا كانت المعدة حارّة قويّة كان أنفع الأغذية لصاحبها ما غلظ و قوي كالنّار العظيمة التي تقوي عليّ إحراق الجلال الجزل من الحطب، و إذا كانت باردة ضعيفة كان أنفع الأغذية له ما خفّ و استمرّ كالنّار الضّعيفة التي توقد بالقضب و دقاق الحطب.

و من الدلائل عليّ الاستمرار خفة البدن و صفو الجشأ و حركة الشّهوة، و أمّا

ص: 187

1- قال في بحر الجواهر: كأمر...

2- جمعه: البثور و هي أورام صغار كالدمّل.

3- هو صنفان برّيّ و بستائيّ... كذا في بحر الجواهر.

التخمة استرخاء البدن و الكسل و انتفاخ الوجه و كثرة التمثلي و ثقل العين و أن يصير الجشأ حامضاً أو منتناً و يهيج قراقر و نفخ و فتور شهوة و يتحلّب البلل في الفم.

و قال جالينوس: ينبغي للرجل إذا انتبه من نومه أن يتمشّي قليلاً و يغمز رقبتة و رأسه نَعْمًا و يتمرّح بدهن موافق لسنته و زمانه و يتمشّط، فإنّ الغمز المعتدل يصلب البدن، و التدهن يلينّ الجلدة، و المشط يخرج البخارات من الرأس. فأما الغمز

المفرط فإنه يرخي البدن و يورث الفتور، و إذا اشتهي أكل ما يوافق طبيعته و زمانه، و لا يأكل في الشّتاء بارداً و لا في الصّيف حارّاً، فإذا نام فلينم علي يساره ساعة، ثمّ

لينقلب علي يمينه لأنّ الشقّ الأيسر بارد فهو يحتاج إلي ما يسخنه، و ليبدأ بما لان

من الغذاء [بأن يأكل ما] كان منها مريئاً سهلاً، ثمّ يأكل بعده ما صلب منها لأنّ الطعام اللين المريء يخرج من البدن سريعاً فيسهل لذلك خروج الطّعام الصّلب بعده، و إن هو بدأ بالطعام الصّلب البطيء ثمّ أكل بعده ما لان من الطعام انهضمت تلك الأطعمة اللينة سريعاً و طلبت مخرجا و احتبست تلك الغليظة عنها غير منهضمة، فإذا لم تجد تلك الخفيفة مخرجا فسدت و أفسدت ما تحتها من الأطعمة الغليظة.

و قال بقراط: إنّ ممّا يعين علي الصّحة أن لا يأكل الرّجل حتّي يتعب نفسه قليلاً ثمّ يستريح إلي أن يشتهي الطّعام، فإذا أكل اضطجع و نام فإنّ أحسّ بثقل في شراسيفه نفعه أن يضع علي بطنه مرفقه أو ينام عليها أو يعانق صبيّه أو شيئاً حارّاً، و إن تجشأ جشأاً حامضاً دلّ علي برد المعدة فليشرب الماء الحارّ بالسّكنجيين ثمّ يتقيّاً، فإنّ أحسّ بثقل في الكبد فليشرب السّكنجيين أو الجوارش (1) الكّمونيّ (2)، و إن عطش ليلاً ثمّ لم يشرب كان ذلك أقوي لحرارته و الإكثار من مياه الجليد و الثّلج ممّا

يطفى الحرارة الغريزيّة و يورث الأسقام و السّلّ إلّا أن يكون ذلك العطش من حمّي ملهبة أو مطاعم و مشارب حارّة جدّاً.

ص: 188

1- في الأصل: الجوارنشين و معناه الهاضم للطعام. كذا في بحرالجمواهر.

2- في بحرالجمواهر: الكّمون: زيره، حارّ يابس...

وقال بقراط أيضا: إنَّ الحركة و الصُّمور(1) قبل الطَّعام توقدان نار المعدة، وأمَّا بعده فرديّ لأنَّه ينزل الطَّعام غير نضج فيورث ذلك سدا و أسقاما.(2)

وقال: النوم بعد الطَّعام يغذي و يقوي لأنَّه إذا نام الإنسان برد ظاهر البدن و اجتمعت الحرارة الغريزيَّة المنتشرة من البدن كلَّه إلى المعدة و ما والاها فيقوي المعدة علي الإنضاج.

و مدح بقراط العشاء، فقال: إنَّ من اعتاده ثم تركه يبس عليه طبيعته

و ذكر أنَّ الغذاء يستقبل حرَّ النَّهار مع شغل الحواسِّ و النَّفس بما يسمع الإنسان و يياشر و يفكر و ينتشر الحرارة في ظاهر البدن فيضعف المعدة لذلك عن إنضاج الطَّعام. و أمَّا العشاء فإنَّه خلاف ذلك لأنَّه يستقبل سكون البدن و هدوء الحواسِّ و النَّفس و هجوم الليل الباردة الَّتِي تهرب الحرارة الغريزيَّة منه إلى جوف البدن.

و ممَّا قالت الهند في تدبير الصَّحَّة: ينبغي للإنسان أن يقوم من نومه في السَّبع الآخر فينعم الوضوء و يلبس أنظف لباسه و يبدأ بحمد الله و يتضرَّع إليه في حاجته، ثمَّ يستاك بسواك من أشجار مرَّة أو خريفة، و يكون السَّواك رطبا مستويا قليل العقد في غلظ الخنصر و طول الشبر و لا يكون من شجرة مجهولة لأنَّه لا يؤمن أن يكون ذلك سمَّا و لا يجعله عففا(3) و لا عنيفا، و يستاك عرضا علي الأسنان و الحنك و اللسان و يغسل الفم في أيَّام الصَّيف بماء بارد و في الشَّتاء بماء حارَّ.

و ذكر الأعاجم: أن ملكا من ملوكها جمع الأطبَّاء من الهند و الروم و فارس و أمرهم أن يصف كلَّ واحد منهم شيئا إذا لزمه و استعمله أيَّام شبابه؛ نفعه و لم يضرَّه، فكان ما اختاره و أشار به الطَّبيب الرومي الماء الحارَّ، و ما أشار به الهنديّ

ص: 189

1- كذا.

2- في الأصل: أسقاطا.

3- كذا.

الهليج الأسود، و ما أشار به الفارسي الحرف (1)، وقد ينفع كل واحد منها من أدواء كثيرة.

قالت الفرس: من أمسي و ليس في بطنه ثقل لم يخف الفالج و وجع المفاصل، و من أكل في كل شهر سبعة مثاقيل زبيب لم يخف البلغم و حاد حفظه، و كذلك إن كان بذل الزبيب سبعة أعواد من زنجبيل أو عودا لطيفا من الوشج (2) المرّي بالعسل،

و من أكل في كل غداة من أيام الصّيف خيارا واحدة لم يصبه البرسام تلك الصّيفة، و من أدمن شمّ المرزنجوش و استعمل دهنه لم يصبه صداع و لم ينزل في عينه الماء، و من أكل في كل غداة من أيام الشّتاء ثلاث لقم من الشّهد لم يصب البرسام شتوته تلك، و من اكل الحلثيث و استعمله أمن من حمّي الرّبع (3)، و من أكثر المشي حافيا أمن من التّقرس، و من أخذ في كل غداة جوزتين و ثلاث تينات مع ورقات من السذاب (4) لم يخف يومه ذلك إضرار السّم.

و ذكروا أنّ الحارث بن كلدة الثّقفي (5) قصد كسري أنوشروان، فأذن له بالدّخول فانتصب بين يديه، فقال له كسري: من أنت؟ قال: أنا الحارث بن كلدة الثّقفي. قال: و ما صناعتك؟ قال: طبيب. فقال: أعربي؟ قال: من صميمها قال: و ما تصنع العرب بالطّب مع جهلها و ضعف عقولها و قلّة قبولها و سوء أغذيتها؟ قال الحارث: ذلك أجدر إذا كانت بهذا الوصف أن تحتاج إلي من يصلح جهلها و يقوم عوجها و يسوس أبدانها و يعدّل أمزاجها. قال كسري: فما الذي يحمّد من أخلاقهم و يذمّ من مذاهبهم؟ قال الحارث: لهم أنفس سخية و قلوب جريّة و لغة فصيحة، يمرق الكلام

ص: 190

1- وهو بالفارسية: تخم سپندان.

2- كذا.

3- وهي الحمّي السّوداويّة. كذا في بحر الجواهر.

4- من الحشائش المعروفة.

5- طبيب العرب في عصره، مولده قبل الإسلام و مات نحو سنة 50 للهجرة: له كتاب «محاورة في الطّب» بينه وبين كسري أنوشروان. راجع الأعلام: 2/157.

من أفواههم مروق السهم من الرمية، ألين من الماء وأعذب من الهواء، لهم عز لا يرام

و(1) لا- يضام، لا يقرّون لفضل أحد من الأنام. فاستوي كسري جالسا و التفت إلي. جلسائه وقال: أطري قومه فلو لا ما تداركه من فهمه لكّدح قومه غير أنّي أراه راجحا. ثم أمره بالجلوس فجلس فقال: كيف بصرك بالطّب؟ قال: ناهيك، (2) قال: فما أصل الطّب؟ قال: ضبط الشّفتين و الرّفق باليدين. قال: أصبت. قال: فما الداء الدّوي؟

قال: هي التخمة إن بقيت في الجوف قتلت وإن تحللت أسقمت. قال: فما تقول في شرب الدّواء؟ قال: اجتنب الدّواء ما لزمك الصّحة، فإن أحسست بحركة الدّاء فأخرجه قبل استحالته، فإنّ البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت وإن أهملتها خربت، قال: فما تقول في الحجامة؟ قال: احتجم في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم و النّفس طيّبة و السّرور حاضر. قال: فما تقول في دخول الحمام؟ قال: لا تدخل الحمام شبعانا و لا تغش أهلك سكرانا و لا تقم(3) بالليل عريانا و لا تقعد علي الطّعام غضبانا و ارفق بنفسك تكون أرخي لمقيلك. قال: فما تقول في الشّراب؟ قال أرّفه و أصفاه لا تشربه صرفا(4) فيورثك صداعا و يثير(5) عليك الدّاء أنواعا. قال: فما تقول في أكل اللحم؟ قال: اسمنه و أنضجه. إيّاك و المالح و القديد فإنّهما رأسا كلّ علة. قال: ما تقول في شرب الماء؟ قال: إنّها حياة البدن و به قوامه، ينفع ما شرب(6) و شربه بعد الجماع و الحّمّ ضرر. قال: فما لونه؟ قال: اشتبه علي الأبصار لونه، لون كلّ شيء فيه و يحكيه. قال: فما طعمه؟ قال: شيلا يوصف، مشتقّ من الحياة. قال: فما هذا الثور الذي يبصر به الأشياء؟ قال: العين مركبة من أشياء فالبياض شحم و السّواد ماء

ص: 191

1- هُنا كلمة لا تقرأ.

2- «ناهيك» كلمة يتعجّب بها في مقام المدح.

3- ولعلّ الصحيح: لا تتم.

4- شربه صرفا، أي غير ممزوج.

5- في الأصل: و ينثر.

6- هُنا كلمة لا تقرأ.

و الناظر ريح. قال: فما تقول في أكل الفواكه؟ قال: كلها إذا أقبلت و اتركها إذا أدبرت

و تولت فانقضى أيامها، أفضل الفواكه الرمان و الأترج، و أفضل البقول الهندباء و الخس، و أفضل الرياحين الورد و البنفسج. قال: فما تقول في إتيان النساء؟ قال: كثرة غشيانهن رديء إياك، و المرأة المولية فإنها كالشئ البالي؛ تجذب قوتك و تسقم بدنك، ماؤها قاتل و نفسها موت عاجل، عليك بإتيان السابّة؛ فإن ماءها عذب زلال و معانقتها غنج و دلال، فمها بارد و ريحها طيب و رحمها ضيق، يزيدك ضمها قوة و نشاطا. قال: فأى النساء القلب إليها أميل و العين برويتها أسر؟ قال: إذا أصبتها مديدة القامة عريضة الهامة واسعة الخدين مليحة العينين لطيفة القدمين بيضاء فرعاء غضة بضة تختالها بالنهار شمسا طالعة و بالليل قمرا زاهرا، إن كشفت عنها [كشفت] عن بيضة مكنونة، و إن عانقتها عانقت ما هو أليّن من الزبد و أحلي من الشهد. قال: ففي أي الأوقات أفضل؟ قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلي و النفس أهدي و الرجح (1) أقوي.

قال: فاستضحك كسري حتى اختلجت كتفاه قال: لله درك يا أبا العرب، لقد أعطيت علما و خصّصت من بين الجهلاء فطنة و فهما. ثم أمر بإعطائه و إكرامه و صرفه و لم يملك نفسه حتى قام من مجلسه و دخل دار نسائه.

و الإنسان ثلاثة أجزاء: جسد و نفس و روح، فالجسد ما ركّب من الطّبائع و احتاج إلي الغذاء، و النفس ما قام به الجسد، و الروح هو الجوهر اللطيف القابل للمعاني.

و الطيب اثنان: ديني و نفسي؛ أمّا الدينيّ فهو العالم بأحكام الشريعة و أسباب المعاد و المصالح الدينيّة و عنده أدوية القلوب بالموعظة الحسنة و الحكمة البالغة. و النفسيّ الباحث عن مقادير الداء و أصول الأدواء و عوارض العلل و العلاجات المزيّلة لتلك العلل العارضة للأبدان المركّبة، و لا بدّ للغفلاء من الطّيبين و الأوّل مقدّم لأنّ حقّ الدين أعظم و أولي، و لا يصلح أحدهما إلّا بالآخر.

ص: 192

وقد قيل: العالم طبيب معالجته دواء و مجالسته شفاء.

ذكروا أنّ عيسى ويحيى عليهما السلام [دخلا قرية و] نزل عيسى علي الفجار ويحيى علي الأبرار، فسئل المسيح عن ذلك، فقال: أنا طبيب أعالج المرضى.

وسئل بعضهم: ما بال المرضى يحمدون الأطباء إذا أخبروهم من دائهم و الجهّال يذمّون العقلاء إذا كشفوا لهم عن بواطن عيوبهم؟ قال: لأنّ المرضى يرون فراق دائهم سلامة و غنيمة، و الجهّال يرون ترك شهواتهم و عيوبهم رزية و مصيبة.

وسئل: ما بال المريض أرغب في طلب الدّواء إلي الأطباء لإصلاح الطباع من أهل الذّنوب إلي مواعظ الحكماء لإصلاح القلوب؟ قال: لأنّ المريض لألم الدّاء أوجد من صاحب الذّنوب لألم العقوبة.

وقيل: العالم طبيب الدّين و العلم دواؤه و المال داؤه، فإذا رأيت الطبيب يجرّ الداء إلي نفسه فاعلم أنّه لا منفعة في دوائه.

و نظر بعض المتعنتين إلي عالم من المتقدّمين، فقال: غير تقّي يأمرني بالتّقّي كطبيب يُداوي المريض و الطبيب مريض

و غير تقّي يأمر الناس بالتّقّي

طبيب يداوي الناس و هو عليل(1)

فأجابه العالم: اعمل بعلمي و لا تنظر إلي عملي، ينفعك علمي و لا يضرك تقصيري.

و ذكروا أنّ موسى بن عمران عليه السلام شكّا إلي ربّه، فقال: يا ربّ، أنا غريب أنا مريض أنا فقير. فأوحى الله إليه: يا موسى أتدري من الغريب [و المريض و الفقير؟] الغريب من ليس له مثلي حبيب، و المريض من ليس له مثلي طبيب، و الفقير الذي ليس بيني و بينه

معرفة(2)

و إنّ الله تعالي ابتلي الأطباء بعلل عجزوا عن تداويها دلالة علي أنّ الشّفاء من

ص: 193

1- في الأصل مكان المصراع الثّاني: كطبيب يداوي والطّبيب عليل!

2- راجع نهج البلاغة: كتاب 31 و عيون الحكم و المواعظ: 46 و عدّة الدّاعي: 107.

غيره و أن علي العبد أن يتوكل عليه عند العلل و يثق به في الصّحة و المرض، و لا ينساه في العافية و يدعو في البلاء

ففي المعرض عن ربّه الأبق من سيّده الهارب من مولاه، قال الله تعالى: «وإذا أنعمنا علي الإنسان أعرض و نأ بجانبه و إذا مسّه الشرّ فذو دعاءٍ عريض»(1)

و يعلم أنّه كاشف الضرّ و مفرّج الكرب و طيبب المرضي و يصلح أحوالهم و الشّافي لأسقامهم و المطلّع علي ضمائرهم و العالم بأسبابهم، فيسأله راغباً راهباً و يدعو خائفاً راجياً و يعبده صافياً مخلصاً و يذكره دائباً واصباً، فعنده الصّحة و الشّفاء، و لديه الشّدّة و الرّخاء، و منه العافية و البلاء.

ص: 194

1- فصّلت: 51.

ذكر الأمراض و أجر المريض

قال الحافظ:

المرض سبب تطهير العبد و تكفير سيئاته، و هو رسول الموت و منبّه الغافل و المبشر بفناء الدنيا، و فيه أجرٌ عظيم لمن صبر عليه.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: حمّي ليلة كفارة سنة. (1)

قالوا: لأنّ ضعفها يبقي في الناس سنة.

و روي عنه عليه السلام قال: من مرض مريضا ليلة خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه. (2)

إذا كان التمريض يخرج من الذنوب، فالمرض أولي.

و روي عن أبيالدرداء عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: أنين المريض تسييح، و صياحه تهليل، و نفسه صدقة، و تقلبه جنبا إلي جنبٍ كأنما يقاتل في العدو، و نومه علي الفراش عبادة، و يكتب له من الحسنات مثل ما عمل في صحته، و يقوم و يمشي و ما عليه من ذنب. (3)

و ذكر عن محمد بن زياد قال: دخلت علي كعب الأحبار و هو مريض، فقلت له:

كيف تجدك يا أبا إسحاق؟ قال: جسد أخذ بذنبه، فإن صح استأنف العمل، و إن

ص: 195

1- علل الشرائع: 1/297 و ثواب الأعمال: 192.

2- راجع الجامع الصغير: 2/648.

3- دعوات الراوندي: 224 و ميزان الاعتدال: 1/436 و تاريخ بغداد: 2/188 و الفقيه: 4/364.

مضني فإلي رب رحيم وإن الحمي لتأكل ذنوب المؤمن كما تأكل النار حَبث الحديد.(1)

والمريض علي وجهين: ظاهر وباطن؛ أمّا الظاهر فما يصيب النفس من العلل والأسقام المتولّدة من فضول الباطن، وأمّا الباطن فضعف القلب بإرادة المعاصي و الشكوك الواردة بأنواع الشبه. قال الله تعالى يصف المنافقين: «في قلوبهم مرض» يعني ضعف عقيدة «فزادهم الله مرضاً»(2) يعني ضعفا عند حصول العقوبة علي العقائد الرديّة. وقيل(3) وقال الله تعالى ذكره يعظم نساء رسول الله صلي الله عليه وآله و ينهاهنّ: «فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض»(4) قيل: إرادة الزنا.(5)

[دعاء المريض]

[اللهم لك الحمد علي ما لم أزل أتصرف فيه من سلامة بدني، ولك الحمد علي ما أحدثت بي من علة في جسدي فما أدري يا الهي أيّ الحالين أحقّ بالشكر لك، وأيّ الوقتين أولي بالحمد لك؛ أوقت الصحة التي هنأتني فيها طيبات رزقك ونشطتني بها لابتغاء مرضاتك وفضلك وقويتني معها علي ما وقفتني له من طاعتك، أم وقت العلة التي محصتني بها والنعم التي أتحتني بها تخفيفاً لما ثقل به علي ظهري من الخطيئات وتطهيراً لما] انغمست فيه من السيئات و تنبيها لتناول التوبة و تذكيراً لمحو الحوبة، وفي خلال ذلك ما يكتب لي الكاتبان من زكي الأعمال ما لا قلب فكّر فيه ولا لسان نطق به ولا جارحة جنحت إليه، تكلفتها إفضالاً منك علي وإحساناً من صنيعك إليّ.

اللهم فحبب إليّ ما رضيت لي، ويسر عليّ ما أحللت بي، وطهرني من ذميم ما أسلفت، وامح عني شرّ ما قدّمت، وأوجدني حلاوة العافية، وأدقني برد السّلامة،

ص: 196

1- راجع سنن ابن ماجه: 2/1149.

2- البقرة: 10.

3- هنا سقط في الأصل.

4- الأحزاب: 32.

5- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

واجعل مخرجي من علتي إلي عفوك، و متحوّلي عن مصرعي إلي تجاوزك، إنك المتفضّل بالإنسان بالإحسان، المتطوّل بالامتنان، الواهب
الكريم. (1)

ص: 197

1- هذا هو الدّعاء 15 من الصّحيفة السّجّادية مع تلخيص وتفاوت يسير.

ذكر الخزائن

قال الحافظ:

خزائن الربّ خمسة:

أولها: المشيئة التّافذة والقضيّة السّابقة، وهما سببا تكوين الأشياء.

والثانية: اللّوح المحفوظ، وهو مجمع العلوم.

والثالثة: قلوب الأولياء، وهي مستودع الأسرار والأنوار.

والرابعة: الجنّة، وهي خزانة الثّواب والكرامة.

والخامسة: جهنّم، وهي خزانة العقاب والإهانة.

قال الله تعالى: «وللّٰه خزائن السمّوات والأرض». (1)

قيل: خزائن السمّوات الغيوب، و خزائن الأرض القلوب.

و ذكر عن ابن عبّاس قال: خزائن السمّوات المطر، و خزائن الأرض التّبات (2)

فجعل رضي الله عنه المطر من الخزائن لأنّ آثار السمّوات يظهر بعقبه، و التّبات لأنّ المنافع الأرضيّة يحصل بوجود التّبات، وهي دلالة [علي] البعث و النّشور.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: من أراد أن ينظر إلي النشور فليتنظر إلي الربيع، ما أشبه الربيع بالنّشور.

وقال الله يصف الأرض وهمودها و تحركها بالتّبات دلالة علي الحياة: «و تري

ص: 198

1- المنافقون: 7.

2- زاد المسير: 8/30 عن ابن عبّاس.

الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج».(1)

وقال عزّ من قائل: «وعنده مفاتيح الغيب» يعني خزائنها، والمفتاح: الخزانة، والمفتاح: الخزائن «لا يعلمها إلا هو» وهي خمس: علم الساعة وعلم عدد المطر ووقت نزولها وانتفاع الخلق بها وعلم ما في الأرحام وعلم كوائن الغد وعلم انقضاء

الآجال «يعلم ما في البرّ» [والبحر] «من المياه الرّاكدة والفلك الجارية وسائر الخلق» وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها» يعني تقلّبها وقت سقوطها «ولا حبة» يعني مستودعة في ظلمات الأرض «ولا رطبٌ ولا يابس إلا في كتاب مبين»(2) قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو القرآن.

والقرآن مستودع كلّ علم وخزّانة كلّ حكمة، قليل ألفاظه، كثير معانيه، وسائر الكتب كثيرة ألفاظها، قليلة معانيها، والله خازن الأرزاق، والأرزاق في خزائن قدرته

يوصلها إلي العباد بقدر ما شاء علي حسب مصالحهم.

قال الله تعالى: «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه» يعني أصول الأرزاق «و ما ننزله

إلا بقدر معلوم».(3)

وفي كلام الحكيم: إنّ الحكماء قهارمة(4) الله في الأرض، قلوبهم خزائنه والحكمة كنوزه، أمرهم أن ينفقوا من كنوزه علي الهارين من سخطه التاركين لديناه الطالبين لرضاه.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: إنّ القلوب أواني الله في الأرض، فأحبّها إلي الله أصلبها وأرقّها وأصفها؛ أصلبها في الدّين، وأرقّها علي الإخوان وأصفها من العيوب.(5)

ص: 199

1- الحجّ: 5.

2- الأنعام: 59.

3- الحجر: 21.

4- جمع قهرمان وهو بمعني الأمين والوكيل.

5- راجع فقه الرضا: 381 وكنز العمال: 1/243.

أما المشيئة؛ فلا يطلع عليها إلا بعد ظهورها في الموجودات.

وأما اللوح فقد؛ وكلّ الله به إسرائيل عليه السلام يطلع علي ما يطلعه الربّ عليه.

وأما القلوب؛ فإنّ الله يجعل لملائكته دلائل وآثارا يستدلّون بها علي حركاتها وأفكارها وخطراتها، وإلي هذا ذهب الحسن البصريّ في تأويل قوله: «ختم الله علي

قلوبهم»(1) قال: وسمّ يسم بها قلوبهم دلالة علي أحوالها.

وقيل: القلوب جوّالة إمّا حول العرش وإمّا حول الحشر.

وأما الجذّة؛ فخازنها الرّضوان وتحت يده أملاك مقرّبون، قال الله تعالي: «وقال لهم خزنتها» عند حضورهم الباب «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين».(2)

وأما النّار؛ فخازنها مالك وبأمره يتصرّف الأملاك فيها، قال الله عزّ وجلّ: «وقال لهم خزنتها» عند حضورهم الباب: «ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربّكم»(3)

وذكر صاحب كتاب الميزان(4): إنّ خزائن الربّ في مشيئته، وباب خزائنه رحمته، وفي خزائنه جواهره، وأفضل جواهره معرفته. ثمّ فتح الله الخزائن بقدرته واستخرج المعرفة منها برحمته، وخصّ المؤمنين العارفين المقربين بمنّته - في كلام يطول، أخذنا منه مقدار الحاجة - .

وقال بعض المريدين: الصّدور خزائن الأخبار، والقلوب خزائن الأسرار، والأفئدة خزائن الأنوار. فالأخبار مكنونة، والأسرار مخزونة، والأنوار مصونة لا يطلع

عليها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسلٌ ولا عبد صالحٌ، فالأولياء بقوّة تلك الأنوار يطلعون

علي الآثار المغيبة والأسرار المحجوبة، وهو قول المصطفى عليه السلام: اتّقوا فراسة المؤمن

ص: 200

1- البقرة: 7.

2- الزّمر: 73.

3- الزّمر: 71.

4- لم نعرف كتاب الميزان وصاحبه.

فإنّه ينظر بنور الله و ينطق بتوفيق الله (1) قال الله تعالى: «إنّ في ذلك لآيات

للمتوسّمين» (2) يعني المتفرّسين. فأقواهم فراسة و أسرعهم اطلاعا رسول الله و المرتضى من ذرّيته. قال الله تعالى: «عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه أحدا إلاّ من ارتضى من رسول» (3)

و سئل الحسن بن علي عليهما السلام عن صفة العترة الطاهرة فقال: نحن عترة رسول الله و ولاة أمر الله و خزنة وحي الله و ورثة كتاب الله، طاعتنا فريضة و حبنا إيمان و بغضنا نفاق، و محبنا في الجنة و مبغضنا في النار (4)

فالآ-ئمّة من آل الرسول صلي الله عليه و آله خزنة العلوم النبويّة و مستودع الأسرار الربانيّة و محلّ الآثار العلويّة و مختلف الأفلاك الرّوحانيّة، عندهم علم المنايا و البلايا و القضايا

و فصل الخطاب.

و ذكر عن كميل بن زياد التّخعي - و هو مشهور عنه - قال: أذ بيدي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فخرج بي إلي ناحية الجبّان، فلما أصحرت نفس الصّعداء ثلاثاً، ثمّ قال: يا كميل بن زياد، إنّ القلوب أوعية فخيرها أوعاها، احفظ عني [ما أقول] الناس ثلاثة: عالم ربّاني، و متعلّم علي سبيل النّجاة، و همج رعاع أتباع كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجأوا إلي ركن و ثيق. يا كميل بن زياد، العلم خير من المال؛ العلم يحرسك و أنت تحرس المال و العلم يزكو علي الإنفاق و المال تبیده النّفقة - و يروي: تنقصه - يا كميل بن زياد، محبّة العالم دين يدان به، تكسبه الطّاعة في حياته و جميل الأحداث بعد موته، و العلم حاكم و المال محكوم عليه، و منفعة المال يزول بزواله. يا كميل بن زياد، مات خزّان الأموال و هم

ص: 201

1- راجع الكافي: 1/218 و الجامع الصّغير 1/42 و 243 و جامع البيان: 14/62.

2- الحجر: 75.

3- الجنّ: 27.

4- مناقب آل أبي طالب: 3/336 و بشارة المصطفي: 250 مع اختلاف يسير.

أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهر؛ أعيانهم مفقودة وأماثلهم في القلوب موجودة، هاهنا هاهنا - وأشار إلي صدره - علماً لو أصبت له حملة بل أصبت لقنا(1) غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستظهر بحجج الله علي أوليائه وبنعمته علي كتابه، ومنتقدا لحملة الحق لا بصيرة له بأحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ألا لا ذا ولا ذاك أو منهوما بالذات سلس القياد للشهوات، أو مغرماً بالجمع والادخار ليستا من رعاة الدين، أقرب [شيء] شبيها بهما الأنعام، كذلك يموت العلم بموت حامله. اللهم بلي لا يخلو الأرض من قائل بحقٍ إمّا ظاهر مكشوف وإمّا خاف مغمور لئلا يبطل حجج الله وبيانه، وكم وأين، أولئك الأقلون

عددا والأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله حججه وبياناته حتى يودعوها أمثالهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم علي حقيقة البصيرة فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر الجائرون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا

الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمنزل الأعلى. يا كميل بن زياد، أولئك أولياء الله من خلقه وعماله في أرضه والدعاة إلي دينه، هاه شوقا إلي رؤيتهم، واستغفر الله لي

ولك، انصرف أينما شئت(2)

قد أبان عليه السلام هاهنا أن للعلم خزنة وأربابا يضعونه في أهله علي قدر الاستحقاق.

فقد قيل: من منع الحكمة أهلها فقد ظلمهم، ومن وضعها في غير أهلها فقد ظلمها.

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: لا تطرحوا الدرّ في أفواه الكلاب. يعني العلم في غير أهله(3)

وقيل: العلم خزائن ومفتاحها السؤال.

ص: 202

1- أي سريع الفهم.

2- نهج البلاغة: 147 من الكلمات القصار، والنخصال: 187 باختلاف يسير.

3- راجع الجامع الصغير: 2/740 وعوالي اللئالي: 1/269 وتاريخ بغداد: 11/308.

وقيل: مفاتيح قلوب الحكماء حسن سؤال الأتقياء.

فصن خزائن ربك و احفظ ودائعها، و لا تضعها إلا عند الأمناء، و أمانؤها أولياؤه، و أولياؤه أهل طاعته، و أهل طاعته من ائتمر بأمره و انتهى عن نهيه و أخلص العبادة حتى أتاه اليقين، متوكلاً عليه، منيباً إليه، معتصماً بحبله، مقتدياً بنبيه، متولياً لأولياؤه، متبرئاً من أعدائه، داعياً إليه في السرّ و الجهر، ذاكراً له في العسر و اليسر، سامياً بهمة إلى عليين و منازل المقربين و مقاعد الصّديقين و درجات الصّالحين و مجالس الأكرمين، جعلنا الله و إياك من المهتمدين.

ص: 203

الغيب ما غاب عنك، وهو ما لا يدركه العقول ولا يقع عليه الأوهام و حجب عنه الأبصار و ردم دونه الأسماع، و أعظم الغيوب الأزل السابق و حكم القدم و الأبد الباقي و حكم الدوام و نهاية العالم و حدوده و علم الأرواح و معرفة الآجال و قيام الساعة و خواطر القلوب.

قال الله تعالى: «و لله غيب السموات و الأرض و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب»⁽¹⁾

و قال عزّ من قائل: «لا يعلم من في السموات و الأرض الغيب إلا الله و ما يشعرون أيان يبعثون»⁽²⁾.

و قال في صفة القيامة: «يسألونك عن الساعة أيان مرسيها» يعني متي ثبوتها

و قيامها «قل إنما علمها عند ربّي» في كتاب «لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات و الأرض» يعني خفيت علي أهل السموات و الأرض «لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها» يعني كأنك عالم بها «قل إنما علمها عند الله و لكن أكثر الناس لا يعلمون»⁽³⁾.

ص: 204

1- التّحل: 77.

2- التّمل: 65.

3- الأعراف: 187.

وقال: «إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» (1).

ولَمَّا سَأَلَ جِبْرِئِيلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ (2).

فَأَبَانَ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّ عِلْمَ السَّاعَةِ مَخْفِيٌّ عَلَيِ الْأَمَلَاكِ الْمُقْرَبِينَ وَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ لَمَّا خَفِيَ عَلَيِ التَّامُوسِ الْأَكْبَرِ وَ النَّبِيِّ الْأَفْضَلِ.

و فِيمَا يُوَثَّرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَرْبَعَةٌ أَعْيُنٌ: عَيْنَانِ فِي الرَّأْسِ، وَ عَيْنَانِ فِي الْقَلْبِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنِي قَلْبَهُ فَابْصُرِ الْغَيْبَ بِالْغَيْبِ، فَصَدَّقَ الْغَيْبَ بِالْغَيْبِ (3).

وَ مَدَحَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ، قَالَ: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» (4).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي مَعْنَاهَا: يَعْنِي بِمَعْبُودٍ غَائِبٍ عَنْهُمْ، يَعْنِي عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ، وَ هُوَ أَشَدُّ الْغَيْبِ وَ أَعْمَاهَا لِأَنَّ الْأَصُولَ إِلَيَّ مَعْرِفَتَهُ تَعَالَى مِنْ طَرِيقِ الدَّلَالَةِ لَا مِنْ طَرِيقِ التَّصْوِيرِ.

فَقَدْ قِيلَ: مَنْ لَمْ يَدْرِكْ عِلْمَ الْعِبُودِيَّةِ كَيْفَ يَدْرِكُ عِلْمَ الرِّبُوبِيَّةِ؟ وَ مَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ الْأَشْيَاءِ كَيْفَ يَعْرِفُ بَوَاطِنَهَا؟ وَ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَشْبَاحِ كَيْفَ يَقِفُ عَلَي حَقِيقَةِ الْأَرْوَاحِ؟ وَ مَنْ تَحَيَّرَ فِي أَحْكَامِ الْجِسْمَانِيَّةِ كَيْفَ يَهْتَدِي إِلَيِ سَبَابِ الرُّوحَانِيَّةِ؟ وَ مَنْ أَخْطَأَ سَبِيلًا يَدْرِكُ بِالْأَبْصَارِ كَيْفَ يَصِيبُ طَرِيقًا لَا يَدْرِكُ بِالْأَنْوَارِ.

وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاهِدٌ غَائِبٌ يَشْهَدُ بِالصَّنْعِ وَ الْآثَارِ وَ يَغِيبُ عَنِ الْأَوْهَامِ وَ الْأَفْكَارِ، وَ هُوَ الْمُتَجَلِّيُّ لِلْعُقُولِ بِالْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَ الْمُحْتَجِبُ عَنِ الْأَبْصَارِ بِالْهَيْبَةِ وَ الْقُدْرَةِ، لَا يَصُورُهُ فِكْرٌ وَ لَا يَمِثُّهُ ذِكْرٌ، لَا يَقَعُ الْأَوْهَامُ عَلَيْهِ وَ لَا يَشِيرُ الْأَفْهَامُ إِلَيْهِ،

أَسْرَارُهُ أَقْدَارُهُ النَّافِذَةُ فِي خَلْقِهِ، وَ وَدَائِعُهُ أَسْرَارُهُ الْمَسْتَوْدَعَةُ عِنْدَ أَنْبِيَائِهِ وَ لَدِي

ص: 205

1- طه: 15.

2- البحار: 59/261 و صحيح البخاري 1/18.

3- راجع التوحيد: 367 و الخصال: 240.

4- البقرة: 3.

أصفيائه المختصين بحقائق معرفته، وأدلاؤه رسله وأنبيأؤه وأئمة دينه، وأفضل أدلائه سيّد الأنبياء والرسل صلوات الله عليه وآله، ثم الأوصياء من عترته، وأفضل أوصيائه خليفته في هجرته ووليّه في كربته ورفيقه في غربته ووصيّه في عترته وأخوه بين أصحابه وختنه علي ابنته سيّدة التّسوان، ثم ابنه سبطا رسول الله صلي الله عليه وآله وريحانتا فؤاده، ثم الأمثل فالأمثل منهم، هم منار الأحكام ونجوم الأنام و أفلاك الدّين و مصابيح المؤمنين، ارتضاهم لغيبه واجتباهم لعلمه واصطفاهم لدينه، فأطلعهم علي سرّه واختصّ بهم بأفضل برّه، قال الله تعالى: «عالم الغيب» يعني ما غاب عن العباد «فلا يظهر» يقول عليهم السلام فلا يطلع «علي غيبه أحدا إلاّ من ارتضى من رسول» (1)

فدلّ أنّ المرتضى هو المّطلع علي الغيوب بما اطّلعه الله عليه تعظيما لجلاله ودلالة علي فضله وتخصيصا بكرامته وتشريفا لأمره

ولو استقصيت هذا الفصل لطال الكلام وأدّى ذلك إلي الحيرة، وفيما ذكرت كفاية لذوي العقول والتّحصيل، القاصدين قصد السّبيل.

ص: 206

1- الجنّ: 27.

قال الحافظ:

دعوة الحق الشَّهادة لله بالوحدانيَّة، وهي كلمة الإخلاص [أو] نفي الإلهيَّة عمَّن دون الله، وإثبات الوحدانيَّة والفردانيَّة له، وهي كلمة التَّقوي وسبب النَّجاة ومفتاح السَّمَاوات وأفضل الكلمات وثمرن الجَّة، وبه يدرك العبد شفاعة المصطفى والدرجة العليا، قال الله تعالى: «يومئذ لا تنفع الشَّفاعة إلاَّ من أذن له الرَّحمن ورضي له قولاً»⁽¹⁾

وقال أميرالمؤمنين عليه السلام: إنَّ أعلم النَّاس بالله وأنصحهم لله أشدهم تعظيماً لحرمة أهل لا إله إلاَّ الله⁽²⁾

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: ليس علي أهل لا إله إلاَّ الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في التَّشور، كأنِّي أنظر إليهم عند الصَّبيحة يخرجون من قبورهم ينفضون رؤوسهم من التُّراب يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن⁽³⁾

والتَّفي من هذه الكلمة مقدَّم علي الإثبات دلالة علي أنَّ ترك المعاصي أفضل من فعل الطَّاعات، والبراءة من الأعداء أفضل من موالة الأولياء، قال الله يحكي قول

ص: 207

1- طه: 109.

2- مستدرک الوسائل: 12/421 نقلاً عن لبِّ اللباب للزَّاوندي.

3- راجع البحار: 7/198 نقلاً عن تفسير فرات، و مجمع الرُّوائد: 10/334، و المعجم الأوسط: 9/181.

الخليل: «إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين»⁽¹⁾ وقال: «وآذنين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلي الله لهم البشري»⁽²⁾ وقال: «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى» وهي الملة الحنيفة وكلمة الإخلاص «لا انفصام لها»⁽³⁾ يقول: لا زوال لقائلها عن الجنة ولا هلاك بدخول النار ولا انقطاع عن الثواب.

ومن شرائط هذه الكلمة الشريفة اعتقاد الوحدة للواحد القديم، وتصفية العقد وإخلاص الضمائر، وصدق النية وتعظيم الحرمة، وصحة الإرادة وتصديق النبوة وتحقيق الرسالة، وموالاتة أهل الحق ومعاداة أهل الباطل، ووفاء العبودية وحلاوة

العبادة، ورؤية المنّة والصبر علي التوائب والمحن، والرّضا بالقضاياء التّازلة، والتّسليم للأحكام الوارءة، والإيقان بالمواعيد الصّاءة، وصدق التّوكّل علي الله في السرّ والعلانية، والإنابة إليه في البلوي والرّاحة، والسّكون معه في الرّخاء والشّدّة، والاستيناس به في العسر واليسر، وبذل المجهود في حال التّعذّر والإمكان. فمن [قام] بهذه الشّرائط فقد قام بوفاء هذه الكلمة، ومن ضيّعها أو واحدة منها فقد بخرس حطّ نفسه وءدل عن منهاج سيّءه وآثر هواه علي دينه، قال الله تعالى: لا إله إلاّ الله حصني، من ءءل حصني آمن من عذابي. رواه الرّضا عليه السلام عن آباءه الطّاهرين عن رسول ربّ العالمين عن جبرئيل عن الله وحده لا شريك له⁽⁴⁾

فتدبّر هذه الكلمة وءرف حقّها وقرّ أهلها وءتقدها اعتقاد عبء منيب إلي ربّه مقبل علي أمره، تري الخير فيه ءينا وءنيا، ثبّتك الله وإيانا عليه، إنّه الكافي الوفيّ،

ولا قوّة إلاّ به، وهو الله العظيم.

ص: 208

1- الزّخرف: 27.

2- الزّمر: 17.

3- البقرة: 256.

4- عيون أخبار الرّضا عليه السلام: 1/145 والأمالى للصدوق: 306.

قال الحافظ:

إنَّ الله تعالى أرسل الرّسل مبشّرين و منذرين، وأنزل الكتب عليهم حجة و دلالة و رحمة و حكمة و بصيرة و هدي و بشارة. فالحجة للأنبياء، و الدلالة للأوصياء، و الرّحمة للأتقياء، و الحكمة للعلماء، و البصيرة للعقلاء، و الهدى للأصفياء، و البشارة للأولياء.

فأول الكتب علي ما بلغنا - و الله أعلم - كتاب آدم أبي البشر عليه السلام و هي حروف المعجمة في احدي و عشرين صحيفة؛ فيها تبيان الأسماء و الحرف و الصناعات، ثم كتاب شيث بن آدم و هي تسعة و عشرين صحيفة، ثم كتاب إدريس صلوات الله عليه و هو ثلاثون كتابا في ذكر الأفلاك و النجوم و سدّير الكواكب و الآثار العلوية، و لم ينزل علي نوح كتاب علي ما قيل، ثم صحف الخليل و هو عشرون كتابا في بيان ملته التي أمر الله بها و شرائعه التي ندبه إليها، ثم كتاب الكليم و هو التّوراة فيها تفصيل كلّ شيء و بيان كلّ موعظة و قصص الماضين و أخبار المتقدّمين و ابتداء خلق السّموات

و الأرضين و نعوت سيّد المرسلين، ثم كتاب داود و هو الزّبور فيه المواعظ و الترغيب و الترهيب، ثم كتاب المسيح و هو الإنجيل فيه ترك الدنيا و الزّهد و العبادة و الصّلح و العفو و إثارة الصّبر و القناعة و التّصيحة و الشّفقة و السّخاوة

و التواضع، ثم الفرقان الأعظم و هو القرآن كتاب المصطفى سيّد الرّسل صلي الله عليه و آله أنزله الله في أفضل الشّهور و أفضل الليالي بأحسن اللغات و أشرف العبارات و أوكد

الدَّلالات، قال الله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»(1) وقال: «قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون»(2) وهو شفاء الصدور و نور الأبصار و كشف السِّبْهات و شرح المعضلات و إيضاح المشكلات و تصديق الكتب و رفع الحجب و فتح الأبواب و ذكر الأسباب... و تنبيه الغافل و تذكير العاقل و تأكيد الدعوة و قيد الملاعين و تنزيه الأنبياء و تفضيل الأولياء... قال المصطفى صلي الله عليه و آله: إنَّها ستكون بعدي [فتنة. قلت: فما المخرج منها] يا رسول الله، قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم [وخبير ما يرد بعدكم و حكم ما بينكم] هو الفصل ليس بالهزل، و هو الصِّراط المستقيم، و هو الذي [لَمَّا] سمعته الجنّ لم ينته دون أن قالت: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا»(3) فمن قال به

صدق، و من عمل به أوجر، و من تمسك به هدي إلي صراط مستقيم.(4)

و هو الثقل الأكبر و الكبر الأجلّ و العلم الأفضل و النور الأبهر و القوّة الأقهر و الحجّة الأبلغ و النعمة الأسبغ و هو شافع مشفّع و ما حل مصدّق و لا اعتراض عليه و لا محيص عنه و لا استبدال به، ظاهره أنيق و باطنه عميق، عين العلوم و بحر الحكم، بستان الأنس و بيت الكرم، حجّة المصيب و دلالة المنيب، فيه علم الأوّلين و الآخرين و أخبار التّبيين و المرسلين و قطع أطماع الملحدين و الدّعوة إلي دين ربّ العالمين. قال الله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ هُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»(5) و ذكروا عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: أنزل القرآن علي أربعة أوجه: حلال و حرام لا يسع النّاس جهالته، و [وجه تعرفه العرب] و تفسير يعلمه العلماء، و تأويل

ص: 210

1- يوسف: 2.

2- الزّمر: 28.

3- الجنّ: 1.

4- شرح الأخبار: 2/310، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام لكوفي: 2/31، المختصر النافع: 17. و راجع البحار: 92/25 و سنن الدّارمي: 2/435 و سنن التّرمذي: 4/246.

5- التّحل: 89.

لا يعلمه إلا الله، [من انتحل منه علما فقد كذب].(1)

وعن الحسن(2) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: [أَنَّ للقرآن ظهرا و بطناً و حدّاً(3)] و مطلعاً، فظَهَره تنزيله، و بَطَنه تأويله [وحدّه] ثوابه و عقابه.(4) و ليس في القرآن زيادة [ولا تقيصة] و هو ما بين الدفتين، و نزل به الأمين جبرئيل علي رسول الله صلى الله عليه وآله. [قال الله:] «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ و إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»(5) و قال: «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»(6) و تقديم السور و تأخيرها لا- يوجبان الزيادة و التقصان، و الاختلاف الواقع في «بسم الله الرحمن الرحيم» و عدد السور و الآيات و الوقوف و الفصول لا- يوجب شيئا من ذلك زيادة إذ لم يقع الزيادة في الأصل، و ما روي عن الأئمة عليهم السلام في هذا الباب راجع إلي هذا و مبني عليه.

و كان جبرئيل صلوات الله عليه ينزل علي رسول الله صلى الله عليه وآله و آله بالقرآن و غيره ممّا أراد الله أن يوحى إليه، و هو مشهور عند علماء العترة و الأئمة، و قد قال الصادق عليه السلام: القرآن واحد، نزل من عند واحد علي واحد، و لكن الاختلاف وقع من جهة الرواة(7) و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله(8) قال: (9) بالقرآن و بمثليه، و القرآن أقسام شتى: أمر و نهي، و وعد و وعيد، و محكم و متشابه، و أخبار و قصص، و مواعظ و أمثال، و حجج و دلائل

ص: 211

-
- 1- مسند الشاميين للطبراني: 2/302، و راجع مجمع البيان: 1/26 و جامع البيان للطبري: 1/54. وللمحقق الأردبيلي كلام حول هذا الخبر في زبدة البيان: 2.
 - 2- جامع البيان: 1/54.
 - 3- ما بين المعقوفتين من كتاب الأصول الأصلية للفيض الكاشاني: 41.
 - 4- راجع الأصول الأصلية للفيض: 41، البرهان للزركشي: 2/25.
 - 5- الحجر: 9.
 - 6- فصلت: 41 و 42.
 - 7- الكافي 2/630.
 - 8- راجع جامع البيان: 1/49.
 - 9- هنا سقط في الأصل.

[والأمر من] الله ينصرف علي وجوه.

منها إيجاد و تكوين، مثل قوله: «إتّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»(1)

و منها تسخير و تدليل، مثل قوله للسماوات والأرض: «ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين». (2)

و منها فرض و إيجاب، مثل قوله: «و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة»(3) و غير ذلك من

أنواع المفروضات.

و منها ندب و ترغيب، مثل قوله: «و افعلوا الخير لعلكم تفلحون»(4) و قوله: «و اذكروا الله ذكرا كثيرا و سبحوه بكرة و أصيلاً»(5) و مثل قوله: «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا و آتوهم من مال الله الذي آتاكم»(6) و مثل قوله: «و أنكحوا الأيامي

منكم»(7)

و منها إطلاق و إباحة، مثل قوله: «و إذا حللتم فاصطادوا»(8) و قوله: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض»(9)

و منها تأديب و تعليم، [مثل قوله: «إذا تداينتم بدين إلي أجل مسمي فاكتبوه»(10) و قوله: «و اشهدوا إذا تبايعتم»(11)].

ص: 212

1- يس: 82.

2- فصلت: 11.

3- البقرة: 43 و 110 والنور: 56 وغيرهما.

4- الحج: 77.

5- الأحزاب: 41.

6- النور: 33.

7- النور: 32.

8- المائدة: 2.

9- الجمعة: 10.

10- البقرة: 282.

11- البقرة: 282.

و منها طرد و تبعيد، مثل قول اللعين إبليس: «و استفز من استطعت منهم بصوتك و اجلب عليهم بخيلك و رجلك»(1)

و منها زجر و تهديد، مثل قوله «فاعبدوا ما شئتم من دونه»(2) و كقوله: «اعملوا ما شئتم»(3)

و منها تئيس(4) و مثل قوله لأهل النار: «اخسؤوا فيها و لا تكلمون»(5)

و جميع ما في القرآن من الأوامر الواردة من الله مبني علي هذا أو علي ما يقاربه.

و أمّا النهي فهو علي وجهين: محتوم و مكروه

أمّا المحتوم فهو مثل المحظورات التي وقع التحريم عليها بالإجماع كالربّا و قتل النفس المحترمة(6) و غير ذلك

و أمّا المكروه فهو ما يقع الاختلاف(7) و إن قيل: النهي علي وجهين: معقول

و مسموع؛ فالمعقول مثل كفر التّعمة و إنكار المنعم و بخس الحقوق و ما شاكلها، و المسموع ما نطق به القرآن و وردت به السنّة، لم يبعد عن الصّواب. و الله أعلم.

و أمّا الوعد؛ فهو التّرجيب في أداء ما أمر به بذكر ثواب أو عوض أو ما شاء من الكرامة في ستر عيب و غفران ذنب و كشف كرب و إصلاح فاسد و إجابة دعوة أو صرف بليّة أو تهوين شدّة.

و أمّا الوعيد؛ فهو التّرهيب و التباعد عن ارتكاب ما نهى عنه بذكر عقاب أو إحداث آلام أو تبديل نعمة أو تغيير حال أو هتك ستر أو تسليط عدوّ أو تقبيح ذكر أو تعجيل بلاء أو تغليظ محنة و ما شاكل ذلك من أنواع العقوبات

ص: 213

1- الإسراء: 64.

2- الزّمر: 15.

3- فصلت: 4.

4- هنا في الأصل كلمة لا تقرأ.

5- المؤمنون: 108.

6- هنا في الأصل كلمة لا تقرأ.

-7

و لا يقع الخلف في الوعد و الوعيد، فإنّ فيه إبطال الحكمة و إغراء علي الباطل و هو غير جائز في حكمة الحكيم. و ذهب قوم إلى أنّ الوفاء بالوعد واجب و العفو عن الوعيد جائز، و في الكلام (1) يطول، تركنا بيانه لاتساع كلا الطائفتين إلى العترة الطاهرة عليهم السلام و العترة الهادية من القول... (2) توحيد الله و أثبت النبوة و الرسالة و اعتقد الامامة و الخلافة المنصوصة من الله و من رسوله عليه السلام و حقق الشريعة و آمن باليوم الآخر و أيقن بالثواب و العقاب و أحلّ المحلّ و حرّم المحرّم، ثمّ ضيّع مفروضاً مقراً بوجوبه و فرضيته أو ارتكب محظوراً مصدّقاً بتحريمه غير مستحلّ له، هذا و الله خارج عن شرائط الرحمة، مخالف لوجه الحكمة، يؤدّي إلى بخس حقوق الضعفاء، تعالي الله عن ذلك، فاعلمه.

و أمّا المحكم و المتشابه؛ فذكر عن ابن عباس رحمه الله قال: المحكمات ناسخه و حلاله و حرامه و حدوده و فرائضه، و أمّا المتشابهات فمنسوخه و مقدّمه و مؤخّره و أمثاله، و هو أقرب الأقويل من الأصول.

و قيل: المحكمات ما أوجبه ظاهر الكتاب و الأخبار المتواترة و اتفقت الأمة الهادية عليه، و المتشابهات ما احتمل وجوها كثيرة، و اختلف فيه العلماء.

و قيل: المحكمات الأصول المتفق عليها، و المتشابهات الفروع المختلفة فيها.
و أمّا الأخبار...

و أمّا القصص فهو ذكر آثار المرسلين و من والاهم من المؤمنين

و أمّا المواعظ... و ترغيب في دار البقاء و تنبيه الجاهلين...

و أمّا الأمثال فهي رموز و إشارات...

ص: 214

1- هنا في الأصل كلمة لا تقرأ.

2- لعلّ الجملة الساقطة: بتأييد الوعيد فيمن اعتقد.

في ذكر الرحمة والرأفة

... (1) قال تعالى: «وأما الذين ابصّرت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون» (2) و الجنة معدن المصالح وعند دخولها تصلح أمور المؤمنين، وهذه المعاني كلها راجعة إلي ما قلنا في معني الرحمة أنها إصلاح الأشياء الفاسدة.

وروي الضحاك عن ابن عباس عن رسول الله صلي الله عليه وآله أنه قال في خطبة الوداع: ألا وإن الله خلق مائة رحمة فخرن منها تسعة وتسعين تحت قائمة من قوائم عرشه، وبت في أهل السماوات وأهل الأرض رحمة واحدة فيها يتعاطفون وبها يتراحمون، فإذا كان يوم القيامة أضاف التسع والتسعين إلي الواحدة فيظلمهم بها من فوق رؤوسهم حتى أن إبليس رأس الكفر ليتناول يومئذ عنقه رجاء أن يدخل في رحمة الله، فالخائب يومئذ من [خاب من] رحمة الله. (3)

ولا يستحق العبد الرحمة من الله إلا بأداء أمره واجتناب [مخالفة] حدوده وتعظيم أوليائه والشفقة علي عباده والإحسان إليهم، وغير ذلك من الأفعال الجميلة.

والرأفة أخص من الرحمة... وبهما وصف الله المصطفى عليه الصلاة والسلام،

ص: 215

1- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

2- آل عمران: 106.

3- راجع البحار: 4/183 و مسند أحمد: 2/424 و صحيح مسلم: 8/96 و الطرائف: 323.

قال: «بالمؤمنين رؤوف رحيم»(1) لولا الفضل والرّحمة من الله ما اهتدي عبدي... ولا سبغت نعمه عليه ولا ظهرت كرامة لديه، قال الله تعالى: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا» وقال لنبه صلي الله عليه وآله: «ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك»(2) وقال: «بما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك».(3)

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله: و الذي نفسي بيده الله أرحم بعبده من الوالدة الشفيقة بولدها.(4)

فالطاعة مفتاح الرّحمة، والمعصية مفتاح العقوبة، وبالرّحمة يصل العبد إلي رضوان الله و ينجو من سخطه و يفوز بالكرامة الدائمة و النعمة الباقية. فاطلب رحمة

الله بالرّحمة علي عباده، فإنّ رحمة الله علي العبد بقدر رحمته علي عبده. و مدح الله العالم الرباني بالرّحمة و العلم؛ قال: «فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما»(5) فالرّحمة و الحكمة مقرونتان لا يفارق أحدهما صاحبه، و هي من أخلاق المرسلين و آثار الصديقين و صفات المتقين، و هي مفاتيح خزائن رب العالمين و سبب النّجاة في يوم الدين، و الوصول إلي التّعيم المقيم في مقعد صدق عند الملك الكريم.

ص: 216

1- التّوبة: 128.

2- النّساء: 113.

3- آل عمران: 159.

4- راجع روضة الواعظين: 503.

5- الكهف: 65.

وقال ابن عباس رحمه الله في معني قوله عزّ وجلّ: «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة»(1): أمّا الظاهرة فالإسلام و ما حسن من خلقك، وأمّا الباطنة فما ستر من الذنوب والعيوب وأفضل عليك في الرزق.

[والنعم] دنيويّة و أخرويّة:

أمّا الدنيويّة؛ فصحة الجسم [وكمال العقل واعتدال الخلق] والطعام المريء

و الشّراب الرّويّ و الملبس البهيّ و المفرش... والولد والرّوجة الصّالحة والملك العادل و السيّد الرؤوف و الجاه العريض و المال الواسع و البلد العامر و الأمر النّافذ

و كفاية الهّمّ و المحبّة في النّاس و موافقة الأصحاب و منادمة الأحياب و قهر الأعداء

و نصر الأولياء و درك البغية و وجود المنيّة و ما شاكلها

و أمّا الأخرويّة؛ فتضعيف الحسنات و تكفير السيّئات و توفيق الطّاعات و عصمة المعاصي و إيضاح الدّلالة و كشف الشّبه و نور اليقين و قوّة التّوكّل و راحة التّقويض

و لذّة التّسليم و نزهة الرّضا و بستان الشّكر و لباس الإخلاص و غنية القناعة و حلاوة

الذّكر و أمن المؤونة و فراغة العبادة و أنس الخلوة و صحبة الأبرار و مفارقة الفجّار

و موافقة الأخيار و مخالفة الأشرار و صفوة الأسرار و البشري عند الموت و النور في القبر و الرّكوب في المحشر و خفة الحساب و لطف العتاب و ثقل الموازين و الجواز علي الصّراط و النّجاة من النّار و دخول الجنّة و الرّفعة في الدّرجات و رؤية المرسلين

و تسليم الأملاك المقرّبين و رضوان ربّ العالمين، وألذّ الأشياء... و نعم الله لا تحصى و أياديه لا تعدّ ولا تخفي، قال الله تعالى: «وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها»(2) و من أفضل النّعم الرّسل و الأنبياء(3).

ص: 218

1- لقمان: 20.

2- إبراهيم: 34، والتّحل: 18.

3- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

قال الحافظ:

التواضع قبول الحقّ وتحقير النفس و تعظيم الأخ في الدين و الخضوع لله بالانقياد و التسليم.

و ضده الكبر، و هو ردّ الحقّ و تفضيل النفس و تحقير الأخ و الاستكفاف عن الإقرار بالوحدانيّة و الخضوع لله بالعبوديّة.

و علامة التواضع اختيار الأدنى من المطاعم و المشارب و الملابس و المراكب و المساكن و المجالس فعلاً المرسلين و أخلاق الأوصياء الصديقين و آثار المؤمنين الصالحين.

و علامة التكبر اختيار الأرفع من هذه الأشياء فعل الأكاسرة و رسوم الأفاصرة و آثار الجبابرة.

و سئل جنيد عن التواضع، فقال: تدلّ القلوب لعلام الغيوب.

و التواضع علي و جوه: أفضلها تواضع الأنبياء و الرسل لملائكة الله عليهم السلام حين لقنتهم الوحي و ألت إليهم الرسالة و نزلت عليهم السكينة، و تلقنوا منهم ما ألقى

إليهم من العلوم و الحكم.

ثمّ تواضعهم في تعليم البشر و دلالة الخلق و دعوة الناس إلي الرسل عليهم السلام و حفظ شرائط الوصاية.

ثمّ تواضع الأمة لهم صلوات الله عليهم عند تبليغ الرسالة إليهم و قبولها منهم،

و العمل بما علّموهم من السنن و الشرائع و الأخلاق و الآداب.

ثمّ تواضع العلماء بالتّصيحة للمتعلّمين و الشّفقة عليهم و احتمال المؤمن عنهم و إقالة عثرتهم و سدّ خلّتهم، فقد قيل: ما أحسن الأستاذ أن تراه يخدمك بجسمه و يؤدّبك بقلبه؛ فجسمه خادمك و قلبه مؤدّبك، يخدمك تواضعا لله و يؤدّبك تقربا إلى الله.

ثمّ تواضع المتعلّمين لمن علّمهم الأسباب الألفاظ (1) و دلّهم علي المعاني و أنطق ألسنتهم بفوائد الحكم و نور قلوبهم بمعرفة الحقائق بالتدليل بين أيديهم و حسن السّؤال عنهم و تعظيم أسمائهم و النّظر إليهم بعين التّعظيم و الوقار و نشر فضائلهم

و الرواية عنهم في مجالس الكبراء و إحياء آثارهم.

ثمّ تواضع الملوك لأهل الفضل في الدّين بتقرير مجالسهم و الإقبال عليهم بالبرّ و النّظر إليهم بعين التّعظيم و تقديمهم علي من سواهم، و رفع الحجاب عن أبوابهم و تقفّد أسباب الرعيّة (2) و بسط العدل علي القريب و البعيد.

ثمّ تواضع الرعيّة للملوك بالسمع و الطّاعة فقد قال المصطفى صلي الله عليه و آله أمر بالسمع

و الطّاعة لمن ولاه الله الأمر و الملك علي الحقيقة [أي] من وليّ العباد و البلاد بتولية الله إيّاه، لا بالقهر و الغلبة.

ثمّ تواضع الوالدين للأولاد بالتّربية اللطيفة و تلقين الصّواب في الصّغر و إماطة الأذي عنهم في أحوال الصّدّ عف و حملهم [علي] الأخلاق الحميدة و تأديبهم في الأوقات و إدناء أطفالهم و إيناسهم بنفسهم في خلواتهم

ثمّ تواضع الأولاد لهم بحفظ... بالحرمة و الإقبال عليهم بالتّعظيم و القيام لهم في المحافل و كفّ الأذي عنهم بالقول و الفعل و خفض الجناح لهم بالذلّ و الرّحمة.

ثمّ تواضع العائمة من المؤمنين لله بكثرة الرّكوع و السّجود، و تواضع بعضهم لبعض

ص: 220

1- في الأصل: الأسباب.

2- في الأصل: الرّغبة.

عند الأخذ والإعطاء و سائر المعاملات.

وفيما يؤثر عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ثلاثة يحبهم الله من عباده: من تواضع لله، و خضع قلبه، و لبس الدون من الثياب. قيل: يا رسول الله، و ما الدون من الثياب؟ قال: الصّوف(1)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لابن الحنفية فيما أوصاه به: و اعلم يا بني إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرف آبائك، فإن من أعطاه الله مالاً و جمالاً و شرفاً و سلطاناً فواسي في ماله و عفت في جماله و تواضع في شرفه و عدل في سلطانه كتبه الله في أعلي عليين من خالص ذكري الدار.

و عن ابن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الله تبارك و تعالي: إذا رأيتم المتواضعين من عبادي فتواضعوا لهم، و إذا رأيتم المتكبرين من عبادي فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم صغار و مذلة.(2)

و الكبر علي وجوه: فاقبحها كبر الكافر بربه الجاحد لدينه المستتكف عن السجود لمعبوده.

ثم كبر الملوك المتجبرين فعل اللعين نمرود؛ تكبر علي الخليل إبراهيم عليه السلام.

ثم كبر الملوك المؤمنين باستعمال الرسوم و العادات في الحجب و المنع و التقريب و التباعد.

ثم كبر الأغنياء مع الفقراء عند أداء ما وجب عليهم من حقوقهم.

ثم كبر العلماء الذين أعجبوا بعلمهم و لم يحجزهم الورع الصادق عن ذمهم أفعالهم و قد قيل: كبر العلماء بعلمهم أكبر من كبر الملوك بملكهم.

ثم كبر العامة فيما بينهم بالأنساب و الأموال و الخدم و العبيد و غير ذلك من أنواع

ص: 221

1- راجع البحار: 73/207.

2- راجع جامع السعادات: 1/315 و تذكرة الموضوعات: 191.

الرّينة، قال الله تعالى: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق» (1) ثم أخبر بمعاندتهم فقال: «وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها» إعجابا وتكبرا «وإن يروا سبيل الرّشد لا يتخذوه سبيلاً» جهلاً وتجبّراً «وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً» سفها وضلالة «ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا» عتوا واستكبارا «وكانوا عنها غافلين» (2).

وقال عزّ من قائل: «إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله» يعني من الكبر «إنّه هو السّميع البصير» (3).

وفيما روي عن ابن مسعود عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر. (4)

وقيل: الكبر عدوّ الإيمان؛ عدوّ جائر شديد القهر والقدرة، لا يلبسه عبد تقويّ ولا يتردّي به مؤمن زكيّ، لأنّه أوّل ذنب عُصي الله به، ومنه يتفرّع سائر المعاصي مثل الحسد والحرص وردّ الحقّ وسوء الظنّ والرّكون إلي الدّنيا وطول الأمل وأخذ الحرام والسّبّهات، وعاقبته دخول التّار والخلود فيها، قال الله يحكي قول خزنة جهنّم لمستوجبها عند حضورهم الأبواب ووقوفهم عليها: «ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوي المتكبرين» (5).

وطوبى لعبد تواضع لله وافتقر إليه وافتخر به، كيف يرفعه الله غدا مع الأبرار علي سرر المجد في دار القرار، وويل لعبد تكبر علي أولياء الله وافتخر بالدّنيا وركن إليها وأعجب بها، كيف يضعه الله غدا مع الفجّار في دار البوار.

نسأل الله التّوفيق لإقامة حقّ العبوديّة بإظهار التّواضع والسّكينة، [و] نعوذ بالله من الكبر وأخلاق المتكبرين والعدول عن سبيل المؤمنين وآثار الصّالحين وأخلاق

ص: 222

1- الأعراف: 146.

2- الأعراف: 146.

3- المؤمن: 56.

4- ثواب الأعمال: 222 و مثقال حبة من خردل. وراجع أيضا مسند أحمد: 1/451.

5- المؤمن: 76.

المتّقين و سنن المرسلين، إنّهُ ملك كريم.

ص: 223

ذكر إرادات شريفة لا بد للعبد من حفظها واجتناب أضرارها

منها النصيحة فهي إصلاح أمور الخلق مع إرادة الخير بهم و دلالتهم علي الحق واستتمام النعمة عليهم دنيا و دينا.

وقد قيل: الدنيا لمن تركها، والآخرة لمن طلبها، والنصيحة لمن قبلها.

وقيل: لا يبلغ العبد درجة النصيحة حتى يبذلها لمن أراد قتله أو سلب ماله.

فقد روي عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: ألا إنما الدين النصيحة لله ولرسوله ولأنمة المسلمين عامة. (1)

وقد قيل: رأس الدين النصيحة، ووسطه القسط، وأصله الأمن، وهلاكه الطمع وآفته البدعة، وزينته التقوي، وجليته التواضع، وجماله الأدب، وقوامه الصبر، ووقاره الفهم والبصر.

و ضدّها الحسد؛ وهو إرادة الشرّ بالخلق و وقوعهم في البلاء و المحن و زوال النعم عنهم دنيا و دينا و حلول الشدائد بهم، و قد ذمّ الله الحاسد و جعله أقصي غاية

الشرّ و أمر بالاستعاذة منه. قال الله تعالى: «أم يحسدون الناس علي ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة و آتيناهم ملكا عظيما» (2)

و يذكر عن الصادق عليه السلام. (3)

ص: 224

1- صحيح البخاري: 1/22 وفيه: ولأنمة المسلمين وعامتهم، وراجع أيضا صحيح مسلم: 1/53.

2- النساء: 54.

3- [هنا سقط في الأصل، ولعله: و يذكر عن الصادق عليه السلام أنه قال: نحن المحسودون].

وفي الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب(1)

وقال - ففته نفسي قبل النفوس، عليه سلام الله ما كرّ الجديدان واختلف العصران - (2): لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في سبيل الله (3)

ومنهم من جعل ضدّ التّصيحة: الغشّ، واعتمد في ذلك قول أميرالمؤمنين عليه السلام:

لا تنصحنّ لمن يراك غششته

بعض التّصيحة للملامة أقرب(4)

و من ذهب إلي هذا جعل حدّ التّصيحة إظهارك عيب أخيك له علي سبيل العلم. والغشّ: كتمان عيبه عنه كي يطّلع عليه فيقابل(5) باللوم.

وفي الحديث: من غشّنا فليس منّا(6)

وقول أميرالمؤمنين عليه السلام: لا يغشّ العقل من انتصحه(7)

كلّ ذلك دالّ علي أنّ ضدّ التّصيحة الغشّ.

وهو قريب من الأوّل لأنّ الغلّ والغشّ والحسد أشكال لا يفارق أحدهما صاحبه، والغلّ عندي - والله أعلم - الخيانة، وهي إرادة كتمان ما وجب إظهاره، قال الله تعالى: «وما كان لنبّي أن يغلّ» قيل: أن يخونَ في أمّته «و من يغلل» يعني

ص: 225

1- الجامع الصّغير: 1/201، نقلاً عن سنن أبي داود.

2- العصران: الغداة والعشيّ. الليل والنّهار.

3- [رواه ابن السّجري في الأمالي الشّجرية، في أواخرالباب الرابع في فضل القرآن، والراغب الاصبهاني محاضرات الأدباء في فضل قراءة القرآن].

4- لم نجده فيالديوان المنسوب إلي أميرالمؤمنين علي عليه السلام ولا في كتاب أنوار العقول للكيدري، ولعلّه من منفردات كتابنا هذا.

5- في الأصل فيقال!

6- صحيح مسلم: 1/69.

7- نهج البلاغة ح 281 وفيه استنصحه. وفي غرر الحكم كما في المتن، فراجع معجم ألفاظ غرر الحكم: 816.

يخن «يأت بما غلّ يوم القيامة»(1) يقول: بما خان.

وقيل: هو غليان القلب بالبغض و العداوة.

وفيما روي جبير بن مطعم قال: قام النبي عليه السلام بخيف مني فقال: نصّر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلي من لم يسمعها، فربّ حامل فقه لا فقه له، وربّ حامل فقه إلي من هو أفقه منه. ثلاثة لا يغلّ عليهم قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، وطاعة ذوي الأمر، و لزوم الجماعة، فإنّ دعوتهم تكون من ورائهم(2)

ومنها الشّفقة وهي إرادة بقاء النّعم علي المنعم و قيامه فيها بالشّكر، وإخراج الحقوق منها بالعلم.

وقيل: هي ضرب من الخوف.

قال الله تعالى: «إنّ الذين هم من خشية ربّهم مشفقون». (3) قيل: خانفون(4)

وقال الله تعالى في وصف من أبي حمل الأمانة: «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»(5) و هو الخوف و الخشية لا غير.

و ضدّها: العداوة، وهي إرادة هلاك من خالفك قولاً أو فعلاً أو ديناً أو طبعاً، وإيراد الضّرار عليه، وإنزال المكروه به.

ومنهم من جعل ضدّ العداوة: الولاية، و ضدّ العدو الولي، و هو مشهور في اللغة مأثور في السنن، يدلّ عليه قول المصطفى صلي الله عليه و آله: اللهمّ وال من والاه و عاد من عاداه(6)

وقوله: لا يذلّ من واليتّ و لا يعزّ من عاديت(7).

ص: 226

1- آل عمران: 161.

2- سنن ابن ماجه: 2/1016 و 1/84 و 85 و 86 مع باختلاف يسير.

3- المؤمنون: 57.

4- انظر زاد المسير لابن الجوزي 5/240.

5- الأحزاب: 72.

6- في حديث الغدير المشهور.

7- رواه الصدوق في العيون 2/236 في رواية عن الرضا عليه السلام وفي سنن التّسائي 3/248: وإنّه لا يذلّ من واليت.

و ثمرة العداوة الخذلان، و ثمرة الولاية النصرة.

قال الله تعالى: «و كان حقًا علينا نصر المؤمنين»(1). وقال: «الله وليّ المؤمنين»(2)

دلّ علي أنّ ضدّ العداوة علي الحقيقة الولاية

و ثمرة الشفقة: الألفة، و هي إرادة الموافقة مع حسن المعرفة، و التأليف جمع الأجزاء المتشكّلة.

قال الله تعالى في وصف السحاب: «ألم تر أنّ الله يزجي سحابا ثمّ يؤثفّ بينه»(3)

و قال في وصف المؤمنين: «و ألفت بين قلوبهم - يعني جمعها علي حسن الموافقة - لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم و لكنّ الله ألفت بينهم إنّه عزيز

حكيم»(4).

[و منها النية] و هي إرادة الأخذ في العمل بالاستثناء(5) و عند الفقهاء هي عقد القلب علي أداء ذلك الفعل جنس الفرض أو عين الفرض.

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آلهقال: نية المؤمن خير من عمله و نية الفاجر شرّ من عمله(6) يعني إرادة المؤمن الثبات علي الطاعة إلي آخر العمر أفضل من عمله الذي يباشره في الوقت.

و منهم من جعل معني النية الإخلاص، و هو أنفع له من سائر عمله لأنّه بها يقبل، و رياء الفاجر أضرّ له من سائر أعماله لأنّه بالرياء تردّ عليه، فلا يحصل له شيء

ص: 227

1- الروم: 47.

2- آل عمران: 68.

3- التور: 43.

4- الأنفال: 63.

5- كذا في الأصل.

6- رواه في المحاسن: 240. راجع البحار: 67/208 و 209.

وقال الحسن(1): إنّما خلد أهل الجنة الجنة وأهل النار النار النيات.

والنية علي وجهين: قديمة وحديثة؛ أما القديمة فهي إرادة أداء ما أمر به عند بلوغه إلي آخر عمره. وأما الحديثة فهي استئناف تلك الإرادة مع الإتمام(2) عند ابتداء

الفعل.

وذكر عن الحسن أنّه قال: كلّ عمل من أعمال(3) الإسلام لم تحضره فقد أجزأت النية القديمة في الإسلام، وليس هذا إجماعاً.

ومنها الأمل وهي إرادة البقاء في الدنيا لوجود منيته وهو مذموم، أو كسب خير وهو محمود.

ومنها التمتع وهو إرادة الانتفاع بالملاذ وشكله التمتع، وهو إرادة الكون في النعمة والتلذذ بها، قال الله تعالى: «ذرههم يأكلوا ويتمتعوا و يلههم الأمل فسوف يعلمون»(4)

ومنها الطمع وهو إرادة وجود المأمول، فإذا كان إلي الله فهو محمود وإذا كان إلي الخلق فهو مذموم.

وقيل: إنّ القدر عند الله بالتقوي وعند الخلق... (5)

وقد قيل: طمع الطامع قفل علي قلب المطموع فيه، لا يطمع فيمن بيده مفتاح القلوب.

وذكر عن المسيح صلوات الله عليه: أخرج الطمع من قلبك تحلّ القيد من رجلك و تسلم سالماً إلي بيتك.

وأصل الإرادة يرجع إلي ثلاثة أقسام: إرادة الدنيا، وإرادة الآخرة، وإرادة المولي.

ص: 228

1- البصري ظ.

2- كذا.

3- في الاصل: أعلام.

4- الحجر: 3.

5- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

فمن أراد الدنيا أسهر الليل و أظمأ النهار و قطع المفاوز و ركب البحار و جمع الأموال و طلب الأرباح بأنواع التّجارات.

و من أراد الآخرة أسهر اللّيل راكعا و ساجدا و باكيا و داعيا و صام التّهار خاشعا و خاضعا و خائفا و راجيا، و صحب الأبرار خادما ناصحا، و خدم العلماء معظّما موقّرا.

و من أراد المولي أحسن الظنّ و أخلص العمل و أصفي الهمة و رأي المنّة.

فمرید الدّنيا مغرور، و مرید العقبي مذکور، و مرید المولي مستور.

و مرید الدّنيا نادم، و مرید العقبي سالم، و مرید المولي ناعم.

و مرید الدّنيا مكروب، و مرید العقبي محجوب، و مرید المولي مطلوب.

و مرید الدّنيا حاف، و مرید العقبي واف، و مرید المولي صاف.

و مرید الدّنيا غدار، و مرید العقبي صبار، و مرید المولي شكّار.

و مرید الدّنيا مريب، و مرید العقبي لبيب، و مرید المولي منيب.

و مرید الدّنيا حقير، و مرید العقبي فقير، و مرید المولي خطير.

و مرید الدّنيا عنيد، و مرید العقبي رشيد، و مرید المولي شهيد.

و مرید الدّنيا كئيب(1)، و مرید العقبي غريب، و مرید المولي قريب.

و مرید الدّنيا غنيّ، و مرید العقبي... و مرید المولي وفيّ.

و مرید الدّنيا غافل، و مرید العقبي عاقل، و مرید المولي عادل.

و مرید الدّنيا متكبرّ، و مرید العقبي مفتقر، و مرید المولي مفتخر.

قال الله تعالى: «منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة»(2) فأين مرید الله

حقّا.

و قيل: ليس للمريد فترة و لا للعارف علامة و لا للصادق دعوي و لا للمحبّ

ص: 229

1- في الأصل: كئيب أو كيبب. كنب الشيء في جراه: كنزه وحبسه. و كبّ الرجل علي وجهه: صرعه.

شكوي و لا للخائف قرار و لا لأحد من الله فرار.

وقال لقمان لابنه: يا بني، إن أردت أن تتقرب إلي ربك و تنقطع إليه و تقرّ له بالعبودية، فتعلّم ما أمرك به ثم احرص علي أدائه و تعلّم ما نهاك عنه، ثم اجتنبه و تفكّر فيما وعدك فكيف أوعدك، و ارتغب فيما يرضيه عنك و انظر فيما عهد إليك و فيما يسألك عنه و ماذا يقول لك إذا ما قدمت عليه، و كيف خوّفك و كيف بشّرك و كيف أنعم عليك و كيف يحصي عليك كتابك (1) و كيف بيّنّت (2) لك بحسابك و عمّا يسألك و بم يعاقبك و بم يثيبك و كيف يصدرك من بين يديه إلي جنّة عالية أو نار حامية.

وقال الله تعالى: «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ما له في الآخرة من نصيب» (3).

ص: 230

1- في الأصل: شبابك.

2- كذا.

3- الشوري: 20.

قال الحافظ:

الذكر علي وجهين: ظاهر و باطن.

أمّا الظاهر فعلي وجهين: فرض و نفل، أمّا الفرض فأداء المأمور به و اجتناب المنهية عنه، و أمّا النفل فهو الأذكار التي تجري علي لسان العبد مثل التسييح و التحميد و التهليل و التكبير و التمجيد و الصلاة علي النبي محمد و آله عليهم السلام

[أمّا الباطن]... و هي أدوم من ذكر الظاهر؛ لأنّ العبد لم يؤمر بإدمان الذكر ظاهراً و أمر بإدمانه باطناً. قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً» يعني دائماً في السرّ و العلانية «و سبحوه بكرة و أصيلاً»⁽¹⁾ و هو نوع من الذكر خصّه الله تأكيداً لما تقدّم.

ثمّ بيّن محلّ الذّاكرين عنده، فقال: «هو الذي يصلّي عليكم» عند الذكر

(و ملائكته) يدعوته مستغفرين لأهل الذكر مصليين عليهم «ليخرجكم من الظلمات إلي النور» يعني ظلمات النسيان إلي أبواب الذكر «و كان بالمؤمنين رحيماً» إذ أمرهم بإدمان ذكره و أطلق لهم الذكر علي الأحوال «تحيتهم يوم يلقونه سلام» يعني تحيتهم بألفاظ القول و أطيب التسليم تشريفاً لحال الذّاكر «و أعدّ لهم أجراً كريماً»⁽²⁾ يعني ثواباً حسناً بين المقرّبين في منازل الذّاكرين.

ص: 231

1- الأحزاب: 42.

2- الأحزاب: 43.

وقال عزّ من قائل: «فأذكروني أذكركم» (1) يقول: أطيعوني في دار الفناء آتيتكم الجنة في دار البقاء، فهل يسع العبد نسيان معبوده و الإعراض عنه بعد هذا البيان؟!

وقال الله في التوراة: يا ابن آدم، من ذكرني بالطاعة ذكرته بالرحمة، و من ذكرني بالمعصية ذكرته باللعة، فالزم طاعتي و احذر معصيتي.

وفيما روي أبوهريرة عن رسول الله صلي الله عليه و آله يقول الله تبارك و تعالي: أنا عند ظنّ عبدي بي، و أنا معه حين يذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، فإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، فإن اقترب إليّ شبرا اقتربت إليه ذراعاً، و إن اقترب إليّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، و إن أتاني بمشي آتيته هرولة (2)

معني «النفس» في الحديث من العبد القلب، و من الله الغيب المستور عن عبده. و معني «الملأ» الملائكة و الرسل و الأنبياء صلوات الله عليهم، و معني «الاقتراب»

من الله إقباله علي العبد بأنواع البرّ، و الذراع عقب الشبر و الباع أثر الذراع، و الهرولة بعد المشي تحقيق للوعد و تقريب للحال.

وفي الحديث: ذكر الله بالعشيّ و الأبقار أفضل من حطم السيوف في سبيل الله. (3)

وقيل: الذّاكر ناعم سالم غانم؛ ناعم بالذكر، سالم من الوزر، غانم من الأجر.

و عن الثوري قال: عند ذكر الصّالحين تنزل الرّحمة.

فقال بعض العارفين: عند ذكر البارئ تنزل طرف الفوائد في تلك المشاهد علي تلك الموائد، قال الله تعالي. «و لذكر الله أكبر» (4) قليل ذكر الله العباد أكبر من ذكر العباد إيّاه.

ص: 232

1- البقرة: 152.

2- صحيح البخاري: 9/148 - 147 مع بتفاوت يسير.

3- راجع معاني الأخبار: 411 و المصنّف لابن أبي شيبة: 7/72.

4- العنكبوت: 45.

ولبعضهم قال: توحيد بين سيفين وذكر بين ذكرين وذنوب بين فرضين. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: قاتل الكافر حتى يسلم، فإن خرج من الإسلام فاقتله. وذكر بين ذكرين: ذكر العبد بالتوفيق حتى يذكره وذكره بالثواب. وذنوب بين فرضين: فرض الله

علي العبد أن لا يذنب فإذا أذنب، فرض أن يتوب.

وقيل: أطيب العيش ما كان فيه أربع خصال: الرضا بالقضاء، ونشر الآلاء في بساتين العلماء، وموافقة الحق علي... والاستيناس بالذكر مع الصديق والصفاء.

و ضد الذكر: الغفلة وهي نسيان ما فرض الله عليه، واشتغال الخاطر بما لا يعنيه، والسهو عن المنن السابقة والتعم السابغة.

وقيل: ما أقيح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك طرفه عين.

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في الذكر: يا من ذكره شرف للذاكرين، ويا من شكره فوز للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، اشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة حتى ينصرف كتاب السيئات عنا بصحيفة خالية من ذكر سيئاتنا، ويتولى كتاب الحسنات من عندنا

مسرورين بما كتبوا من حسناتنا. فإذا انقضت أيام حياتنا وتصرمت مدد أعمارنا، فاجعل ختام ما يحصي علينا كتبة أعمالنا توبة مقبولة لا نوقف بعدها علي ذنب اجترحناه ولا- معصية اقترفناها، ولا تكشف لنا سترنا علي رؤوس الأشهاد يوم تبلي أخبار العباد، إنك رحيم بمن دعاك مستجيب لمن ناداك(1).

ص: 233

1- هذا هو الدعاء 11 من الصحيفة السجادية مع تلخيص و تفاوت يسير.

قال الحافظ:

إنَّ العبد مادام في دار المحنة كان الفقر أصلح له من الغنا، فإذا فارقتها فالغنا أفضل. قال الله تعالى: «و لولا أن يكون الناس أمة واحدة» يعني ملة واحدة، و هي الكفر - «لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة» تغليظا للمحنة «و معارج عليها

يظهرو» يعني و مراقي يرتقون عليها «و لبيوتهم أبوابا و سررا» يعني في البيوت

«عليها يتكئون و زخرفا و إن كل ذلك لَمَّا متاع الحياة الدنيا»... (1) «و الآخرة عند ربك للمتقين» (2) يعني ثواب الجنة أفضل لمن اتقى زينة الدنيا و زهد فيها

دلَّت الآية أن فقر الكافر مصلحة المؤمن، فوجب أن غناه مفسدة له في حدّ المحنة إلاّ من عصمه الله مثل نبيّ أو وصيّ أو وليّ.

وقال الله عزّ ذكره: «ولو بسط الله الرزق لعباده» أراد بالبسط - و الله أعلم - وجود الملك حسب المنى «لبغوا في الأرض» يعني لطلبوا ما ليس لهم «و لكن ينزل بقدر ما يشاء» مقترناً بالخيرة «إنّ عباده خبير بصير» (3) يعني بمصالح عباده عالم، فيدبّر أحوالهم بالحكمة

ص: 234

1- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

2- الزخرف: 33.

3- السّوري: 27.

تَبَّهت الآية أنّ الغنا سبب البغي والطَّغيان، والفقر سبب الصّلاح والإيمان.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: الفقر أزين بالمؤمن من العذار الجيّد علي حدّ الفرس (1)

وقال - فدته نفسي قبل التّفوس - صلوات الله عليه وآله: اللهم من أحبّني وأطاع أمري فأقلل له المال والولد، اللهم من أبغضني وعصي أمري فأكثر له المال والولد (2)

وفيما روي عن ابن جريح، عن عطاء، عن ابن عبّاس عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: تلمّض الفقير عند شهوة يشتهيها ولا يقدر عليها خير من عبادة الغنيّ سبعين ألف عام.

وروت الأئمّة عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: من أنصف النَّاس فقد ظفر بالجنّة العالية القصوي، ومن كان الفقر أحبّ إليه من الغنا فلو اجتهد عبّاد الحرمين لم يدركوا فضل ما يعطي (3)

وفي الفقر راحة البدن وسقوط الحقوق وفراغة القلب وانتظار الفرج وخفّة الحساب وفي الغنا تعب...

وقال يحيي بن الحسين: الفقر ثلاثة أشياء: دلالة واختيار ورضا؛ دلالة جبرائيل واختيار محمّد ورضا الرّحمان. وأصل الفقر في الظّاهر عدم المال، وفي الباطن الحاجة إلي الخلق، وصدّه الغنا وهو في الظاهر وجود الملك وفي الباطن الإياسة عن الخلق.

والغناء علي وجوه:

منها سلامة الأعضاء عن العاهات وكمال الآلة مع حصول المعاني، وصدّ هذا

ص: 235

1- راجع الكافي 2/265 و المعجم الكبير: 7/295 و كنز العمّال: 6/484.

2- راجع الأمالي للطّوسي: 132 و كنز العمّال: 6/383.

3- كنز العمّال: 15/805.

الغنا فساد الآلة مع عدم المعاني، وكلّ عضو يفتقر إلي معني فوجود ذلك المعني غناه وعدمه فقره.

ومنها القناعة وثمرتها الرّاحة، وضدّها الحرص. والقانع غنيّ وإن جاع وعري، والحريص فقير وإن ملك الدّنيا.

وذكر عن وهب بن منبّه قال: الغنا والعزّ خرجا يجولان، فلقيا القناعة فاستقرّا.

ومنها اليأس وضدّه الطّمع، فقد قيل: الطمع فقر حاضر، واليأس غناء ظاهر. والطّامع فقير وإن ملك الدّنيا، والأيس غنيّ وإن امتحن بالبلاء.

ومنها العلم وضدّه الجهل، والعالم غنيّ لأنّه لا يحتاج إلي تقدّد الأسباب من غيره، والجاهل فقير لأنّه قد انغلق عليه أبواب الإرشاد

ومن دعاء المصطفى صلي الله عليه وآله: اللهمّ أغنني بالعلم، وزيّني بالحلم، وجمّلني بالتقوي، وأكرمني بالعافية، يا وليّ العافية(1)

ومنها إكمال الطّاعة وضدّها هذا الغناء، الوقوع في المعصية لأنّ المطيع غنيّ وغناه ثواب الأبد والعاصي فقير وفقره عقاب الأبد.

ومنها الجنّة وهي غاية الغنا وضدّها النّار، وهي غاية الفقر.

وقد قيل: لا فاقة بعد الجنّة ولا غناء، بعد النّار ومن أغناه الله بدخول الجنّة فقد

أنزله أفضل منازل الأغنياء ومن أفقره الله بدخول النّار فقد أصعب... (2)

وأشرف مقامات الغنا الاستغناء بالله والفقر إليه، قال الله تعالى: «يا أيّها النّاس

أنتم الفقراء إلي الله والله هو الغنيّ الحميد»(3) وقال: «والله الغني وانتم الفقراء»(4).

ص: 236

1- راجع التّهذيب للطّوسيّ: 3/73.

2- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

3- فاطر: 15.

4- محمّد صلي الله عليه وآله: 38.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: ما استغني أحد بالله إلا احتاج الناس إليه(1)

ولا- يستغني بالله إلا من رأي منته بقلبه، ونظر إلي برّه بعين اليقين، وشاهد أسباب القدرة بحقائق المعرفة، وأبصر خزائن الغيب بأنوار الفهم، واستسلم لواردات المشيئة بقوة التسليم، وطار بأجنحة التأيد في حجب الملكوت و غاص بأقدام الصدق في بحار الفضل، و طاف حول المملكة علي مراكب الأفكار، و عبر أمواج المحن بعين الاعتبار، و انقطع إلي الحق متذللًا بالافتقار، و سكن علي بابه مترديًا بالافتخار، فهذه مراتب الغنا ووجه الفقر.

و اعلم أنّ الفقر قيد المعاصي و لباس الذلّ و سبب التواضع، و الغنا ميدان الدّنوب و لباس الكفر، فاستغن بالله و افتقر إليه و توكلّ عليه و اعتصم به، فعنده

الكفاية و العناية، و منه الولاية و الرّعاية، و هو الكافي لمن توكلّ عليه، و الوافي لمن فوّض إليه، و هو حسبنا و نعم الوكيل.

ص: 237

1- راجع البحار: 71/155.

قال الحافظ:

أفضل منازل المؤمنين ستّة: الخوف والرّجاء والشّوق والإنابة والمحبّة والهيبة.

أمّا الخوف فهو علي أربعة أوجه:

أولها خوف غريزي، وهو خوف العوأم، وهو الفزع عند درك المحذور من حلول المكروه في الطّبع.

والثّاني خوف... [عند حلول المكروه] في العقل والشرع.

والثّالث خوف مزعج مقلق يمنع....(1)

[أو الرابع] عارض عند الذّكر والقصاص وتلاوة القرآن رقة كرقّة النّساء ليس لها ثبات، يسمّي خوف الحال.

والخوف والخشية والرّهبة والوجل كلّها قريب في المعني، وأصل ذلك خاطر يزعج العبد في حالته ويقلقه.

وقيل: هو خاطر يدرك ما يفزع منه العبد. وهذه الأوصاف خارجة عن طاقة العباد.

ثمّ خوف الرّزق، وخوف الفقر، وخوف السّلطان، وخوف حلول السّدائد،

ص: 238

1- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

و خوف الموت، و خوف القبر، و خوف القيامة، و خوف الحساب، و خوف ردّ الأعمال، و خوف العقوبة، و خوف القطيعة، كل ذلك راجع إلي ما أشرنا إليه و بنينا الكلام عليه، و لا يسكن خوف الخائف أبدا حتّي يأمن من يخاف.

يدلّ عليه قول المصطفى صلي الله عليه و آله لمعاذ: إنّ المؤمن لا يسكن روعته و لا يطمئنّ من اضطرابه حتّي تخلف جسر جهنّم. (1)

و ذكر عن المسيح صلوات الله عليه قال: إنّ خشية جهنّم و حبّ الفردوس يورثان الصّبر علي المشقّة و يبعدان العبد من راحة الدّنيا. (2)

و مدح الله الخائفين، فقال عزّ ذكره: «إنّ الذين يخشون ربّهم بالغيب لهم مغفرة» لذنوبهم

«و أجر كبير» (3) يعني ثواب عظيم في الجنّة.

و وعد الخائفين جنّتين موصوفتين و من دونهما جنّتان معروفتان، قال الله تعالي: «و لمن خاف مقام ربّه جنّتان» (4) قيل: جنّة المأوي و جنّة التّعيم، ثمّ وصفهما بأنواع الخيرات و فنون الكرامات، ثمّ قال: (و من دونهما جنّتان) (5) قيل: هما جنّة عدن و جنّة الفردوس و هما عندي - و الله أعلم - بستانان في الجنان لأنّ الجنان... (6) لمن أتى بأكمل الطّاعات و أفضل الخيرات، و ذلك مقام الرّسل الأكرمين و الأوصياء الصّديقين.

و قال عزّ ذكره في مدح الخائف: «و أمّا من خاف مقام ربّه و نهى النّفس عن

ص: 239

1- راجع كنز العمال: 1/163.

2- الدرّ المنثور: 2/26.

3- الملك: 12.

4- الرّحمان: 46.

5- الرّحمان: 62.

6- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

الهوي، فإنَّ الجنَّة هي المأوي»(1) قيل في معناها: من خاف مقامه بين يدي ربِّه فانتهي عن المعصية، فالجنَّة مأواه. وهو صحيح من التَّأويل لأنَّ المنتهي عن ركوب المعاصي والتَّأهي نفسه عن الوقوع فيها، هو من غلب عقله هواه وخصَّ بالعصمة الواقية، وهي درجة الرِّسالة و محلَّ الوصاية.

وقد بيَّن الله درجات الخائفين عنده، فقال جلَّ جلاله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» قيل: هي الطَّاعات فيما بينهم وبين ربِّهم، و قيل: هي الإخلاص وصحَّة الإرادة «أولئك هم خير البرية»(2) يعني أفضل الخليفة فضَّلهم علي الملائكة بهذه الرتبة الشريفة، وهي درجة الصِّفا والإخلاص «جزاؤهم عند ربِّهم» يعني ثوابهم في الملكوت «جنَّات عدن» وهو الإقامة «تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً» يعني مقيمون دائمين لا يجري عليهم الفناء ولا يلحقهم العزل والزوال «رضي الله عنهم» بأعمالهم الخالصة

«ورضوا عنه» بكراماته الباقية، ثم ختمه بما هو سبب الإخلاص والصفاء والقيام بالعبودية وتعظيم أمر الرُّبوبيَّة، وهو الخوف الذي بنينا

عليه أصل الطَّاعات، فقال: «ذلك لمن خشي ربَّه»(3) يقول: هذا الثَّواب المذكور في الآية لمن خاف ربَّه بالغيب... (4)

[وأمَّا الرِّجاء فإذا كان في الخالق مدح] وإذا كان في المخلوق ذم. قال الله تعالي: «فمن كان يرجوا لقاء ربِّه» يعني طمع في ثواب ربِّه، وهو المحمود من الطَّمع

«فليعمل عملاً صالحاً»(5).

ص: 240

1- التَّازعات: 41.

2- البيِّنة: 7.

3- البيِّنة: 8.

4- هُنَا سقط من الأصل سطر واحد.

5- الكهف: 110.

وقال: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» يعني لا يطمعون في ثوابنا ولا يريدون كرامتنا

«وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا» يقول: قنعوا بالعاجل دون الآجل «وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا» يعني وسكنوا بما وجدوا منها «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» يقول: عن النظر فيها والاستدلال بها «أُولَئِكَ مَا وَاهَمَ النَّارَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»⁽¹⁾

وقال يحكي قول من انقطع رجائه و ضلّ سعيه وعناه: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» يعني ثوابنا و كرامتنا «لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا الْمَلَائِكَةَ» لنسمع منهم ما يؤدّي إلينا الرّسل «أَوْ نُرِي رَبَّنَا» رؤية عيان فيخبرنا بتحقيق من بعث إلينا «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ» بتمنيهم رؤية الملائكة «وَعَتَوْا عَنَّا كَبِيرًا» بإرادة الرؤية «يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ» يعني يعاينونهم عند الموت وفي القيامة، ولم يذكر الرؤية لأنها تستحيل في العقول «لَا بَشَرِي يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ» بالكرامة و الثّواب «وَيَقُولُونَ حَجْرًا

مَحْجُورًا» يعني حراما محرّمًا «وَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ» يقول: وعمدنا إلي أعمالهم فأبطلناها «فَجَعَلْنَاهُمْ هَبَاءً مَثُورًا»⁽²⁾ فأخرج ما لا يقع عليه الحواسّ إلي ما يقع عليه الحواسّ ممّا لا ينتفع به تقريرًا للمراد.

هذا صفة من انقطع رجائه من سيّده، و أيس من كرامة ربّه، و قنط من رحمة مولاه.

وقيل: الرّجاء أقوى من الخوف لأنّه متعلّق...⁽³⁾ قال تعالى: من خاف غير عدلي ورجا غير فضلي، لم يعرفني حقّ المعرفة.⁽⁴⁾

و ضدّ الخوف الأمان، و ضدّ الرّجاء الإياسة.

ص: 241

1- يونس: 7.

2- الفرقان: 25.

3- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

4- راجع الكافي: 1/527 و كمال الدين: 310 و الغيبة للنعماني 63.

والأمن سكون الفرع ممّا يحذرهُ العبد، والإياسة عدم المأمول وانقطاع الطمع

وقيل: خوف الخالق أمن، والأمن منه كفر، وخوف المخلوق رق، وأمنه حرّية، والرّجاء إلى الله غني لا يضرّ معه فقر، والإياسة منه فقر، لا ينفع معها غني.

وقيل: الحزن يمنع عن الطعام، والخوف يمنع عن الذنوب، والرّجاء يقوي علي الطّاعات، وذكر الموت يزهد في الفضول.

وقال أبو يزيد البسطامي قدّس الله روحه: الخلق ثلاثة: خائف وراج و محبّ؛ فللخائف الهرب، وللراحي الطّلب، وللمحبّ الطرب.

وأما الشّوق فهو ضرب من المحبّة عند حصول الغيبة وانقطاع المشاهدة، وهو مذكور في الآثار، ومأثور عن السيّد المختار صلي الله عليه وآله قال: راحة نفسي مع أصحابي، وقرّة عيني في الصّلاة، وثمرّة فؤادي ذكر الله، وغمّي لأجل أمّتي الذين يكونون في آخر

الزّمان، وشوقي إلى مولاي. ثمّ تلا هذه الآية: «هو موليكم فنعم المولي ونعم التّصير».(1)

روي هذا عن أنس، عنه عليه السلام.

وقيل لبعضهم(2): أتشتاق إلى الله؟ قال: يشتاق إليه الغائب عنه.

ولا معني للشّوق إلى الله عندي إلاّ من وجهين: إمّا إلى الرّؤية عند مثبتها، وهو لا يصلح لأنّه طلب المحال. وإمّا إلى فراق المحنة والوصول إلى مقامات المقرّبين في محلّ الكرامة، وهو الوجه الصّحيح فاعلمه لأنّ في تلك الحالة سقوط المؤمن وزوال الشّبهه وحلّ القيود ووضع... (3) [وقيل] الشّوق يقلق، والحبّ ينطق، والحياء يسكت، والخوف يزعج، والرّجاء يطلق.

ص: 242

1- الحجّ: 78.

2- أي لبعض الصوفيّة.

3- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

وقال الثوري: المكر لا يعرفه إلا صاحب الوصل، و المرید لا يعرف الوصل لأنّه في شوق و حرق.

و أمّا الإنابة فهي الرجوع إلى الله بالطاعة قولاً و عقداً و فعلاً، قال الله تعالى: «و أنبئوا إلي ربكم» يقول: أقبّلوا إليه بالطاعة «و أسلموا له» يقول: و اخضعوا له بالعبودية «من قبل أن يأتيكم العذاب» يعني أحزان الفرقة «ثم لا تنصرون» (1) يقول: لا تمنعون من نيران القطع.

و المنيب من رجع قلبه إلى الله بالتفكير في عظّمته، و لسانه إلى الذّكر لمنّته، و بدنه إلى الخدمة في طلب مرضاته.

و أوّل درجة الإنابة رؤية المنة، و أوّسطها صدق الإرادة، و أعلاها السّكون مع الحقّ بنسيان الكلّ. قال الله تعالى: «من خشي الرحمن بالغيب» يقول: من خافه في السّرّ غير ناظر إلي من دونه «و جاء بقلب منيب» مقبل إليه، معرض عمّا سواه. يقول لهم الملائكة: «ادخلوها» يعني الجنّة «بسلام» من ذلّ القطيعة «ذلك يوم الخلود» يعني البقاء في الكرامة «لهم ما يشاؤون فيها» يعني ما يريدون من أنواع البرّ «و لدينا مزيد» (2) و هو ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر علي قلب بشر.

قال الله تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون» (3).

و المنيب من قام علي باب سيّده و عرف به، و ضدّه المريب و هو المتّمهم في دينه المستخفّ بعقباه، فهو يتردّد في أودية الشبهات و يتحرّج في عمق الصّلاّات، لا

يطيب له عيش و لا يصفو له حال لأنّه غير متوكّل علي القديم و لا منيب إلي

ص: 243

1- الزّمر: 54.

2- ق: 35.

3- السّجدة: 17.

الحكيم(1) فخوفه من المخلوق ورجاؤه إليه وطمعه فيه واعتماده عليه. وأمّا المنيب فهو يرتع في رياض العلم بأنوار اليقين و بصائر المعرفة، يستأنس بالحقّ ويستوحش عن الخلق، فأيام دنياه له حسرة اشتياقا إلي الله و انقطاعا إليه و توكلًا عليه و ثقة بوعدده و انتظارا لكرامته، فطوبى لمن أناب إلي معبوده و رضي بمقصوده.

و أمّا المحبّة فقد اختلفوا فيها؛ فقال ذوالنون بن إبراهيم المصريّ: المحبّة خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة.

وقال أبو يزيد البسطامي: المحبّة معيار الله في الأرض، يظهر فيه القريب من البعيد.

وقال الشّلي: المحبّة الفراغة للحبيب، و ترك الإعراض عن قريب.

وقيل: المحبّة معانقة الطّاعة و ملازمة الفاقة.

وقيل: المحبّة نور للقلب، و شفاء للصدور، و راحة للنفس، و تقرب إلي المحبوب.

وقيل: المحبّة انقطاع إلي الحقّ مع نسيان الخلق.

و كلّ ذلك عندي أوصاف المحبّ لا الإبانة عن حقيقة الحبّ، و هو علي ما يتحقّق عند العلماء اسم جامع لمعانٍ مختلفة مثل الشّوق و التّوق و الودّ و الومق و العشق و الصّداقة و الخلة و الوله، و كلّ ذلك يسمّي حبًا، و هذه الأوصاف يختصّ بالأحوال، و قد بيّنا حقيقة الشّوق فيما تقدّم.

و أمّا التّوق... (2)

و أمّا الومق فهو حبّ يتولّد من البرّ مع تقارب الطّبعين، و هو قريب من العشق.

ص: 244

1- في الأصل: الحكم.

2- سقط هنا من الأصل معني التوق والودّ.

وَأَمَّا العشق فهو يقع بمشاكلة الطّبعين، وهو كامن في القلب كـمـون النّار في الحَجَر إن قدحته أوري وإن تركته توارى، وأصل ذلك حرقة القلب مع توجّع.

وعن بعض العلماء قال: كَفَّر يحيى بقوله: أنا عاشق والرّب معشوقى.

وسئل الشّبلي عن العشق، فقال: هو ملك عسوف مسلّط؛ دانت له القلوب وخضعت له الرّقاب وانقادت له الأبواب ولانت له النفوس، والعقل أسيره والنّظر رسوله واللحظة لفظه، مستقرّه غامض ومحلّه لطيف، دقيق المسالك، ينشأ في الحركات، يتّصل بآخر حرف الحياة ويمتدّ إلي الممات. ذكره الصّفّار عن القنّاد عن الشّبلي رحمة الله عليه.

وقال بعضهم: هو جنون إلهي أدقّ من أن يحسّ وأطف من أن يدرك، يتولّد بينهما مخالطة الأشباح ومناسبة الأرواح وملاطفة الأحوال، لا يوقف عليه ولا يعبر عنه لتباعد أوصافه. وهو مستحيل باطل في وصف القديم تعالي عنه وتنزّه لأنّه من سمات الإنسان وصفات البشر ونعوت النّساء، لا يصف القديم به إلاّ جاهل أو ملحد.

وَأَمَّا الودّ فهو التّمّنى للشّيء وإرادة الوصل إليه، ومنه قوله عزّ ذكره: «وَدّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارا» (1) قيل: أراد وتمّنى. وقوله: «و تودّون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم» (2) يعني يريدون ويتمنّون.

وَأَمَّا الصّدّاقة فهي حبّ مع التّصديق، ومنه يسمّى مهر المرأة صداقا لأنّه تحقيق العقد، وعطيّة الفقير صدقة لأنّها تحقيق لظنّه وقصده وصدق الدّعوي... (3)

وَأَمَّا الخلّة فهي حبّ مع الافتقار، وكان الخليل صلوات الله عليه مع ما أعطاه الله

ص: 245

1- البقرة: 109.

2- الأنفال: 7.

3- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

وحوّله مفتقرا إلى ربّه، يظهر السّكينة والتّواضع في جميع أحواله. ومنه الخلّة، وهي الحاجة. وقولهم: اختلّ إليه، يعني افتقر واحتاج. و
اختلال الأسباب: تشبّثها فيحتاج إلى تداركها. والخليل: الفقير في اللّغة، ومنه قول شاعرهم:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة

يقول: لا غائب مالي ولا حرم. (1)

وأما الوله فهو ذهاب العقل لفقدان الجسد (2)، والواله: الذّاهب فوّاده.

ويوصف القديم بالحبّ ولا- يوصف بالشوق والتّوق والوَمق والوَله وغير ذلك من أنواعه، كما يوصف بالعلم ولا يوصف بأقسامه مثل
الفهم والفقّه والفراسة وأشكال ذلك، وكما يوصف بالفعل ولا يوصف بأجناسه مثل الكسب والحركة والسّكون وسائر ذلك من أنواع
الأفعال. فهو محبّ لأوليائه بمعنى الإكرام والتّقريب

وسائر أطفاه التي يخصّ بها عباده المؤمنين، وقد بيّنت معني الحبّ من الله و من

العبد فيما تقدّم من الكتاب، فما جاء في هذا الباب عن الله وعن الرّسول صلي الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام فهو مبنيّ علي هذا. و
كلّ معني يوجب تشبيه القديم بالمخلوق أو قدحا في التّبوّات أو جرحا في الأئمّة أو ضعفا في الأصول فهو كذب باطل؛ لأنّ الوحي لم ينزل
إلا بما أوجبه العقل أو يحسنه، والأصول لا ينقض بعضها بعضا لأنّها

متّفقة، ولو لم تتّفق لم تكن أصلاً لأنّها مباني، فإذا انهدمت لا يصحّ عليها البناء.

والحبّ علي أربعة أوجه: حبّ الله و حبّ أوليائه (3).

ص: 246

1- الحرم: الممنوع. والشّعري في لسان العرب 4/201.

2- كذا.

3- هنا سقط من الأصل صفحتان أو أكثر. وفيما سقط شرح «الهيبة» كما لا يخفي.

في ذكر النعمة

... (1) قال الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وآله: «وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً» (2) وقد قيل: النعمة للمؤمنين والنعمة للكافرين، وقيل: النعمة في الدين والنعمة في الدنيا. وكمال النعمة اتصال بعضها ببعض، وسبوغها سعتها علي العبد، وتمامها اتصالها بنعيم الأبد.

قال الله تعالى لنبيه: «و يتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً» (3)

وأفضل المتتعمين عليهم من ذكرهم الله في كتابه فقال تعالى ذكره: «و من يطع الله

والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين» سيدهم محمد صلى الله عليه وآله «و الصديقين» أولهم الصديق الأكبر علي بن أبي طالب عليه الرضوان والرحمة «و الشهداء» أفضلهم حمزة بن عبدالمطلب وجعفر بن أبي طالب، قد رفع الله درجاتهما «و الصالحين» أجلهم الحسن والحسين عليهما السلام سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله «و حسن أولئك رفيقا» (4) يعني القائم من آل محمد خاتم الخلفاء، عليهم صلوات رب السماء

هكذا رواه الرضا عن آبائه الطاهرين عن رسول رب العالمين صلوات الله عليه

ص: 247

1- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

2- المزمّل: 11.

3- الفتح: 2.

4- النساء: 69.

وآله في معني هذه الآية(1) غير أن في الرواية زيادة تعظيم من مراتب الكتاب إعظاما لأحوال المذكورين، علي ذكرهم سلام الله

فمن عرف النعمة من الله، فعليه أن يؤدي شكرها بطاعته دائما، فإن النعمة وحشيّة قيدها الشكر و ثمنها الزيادة

وقد قيل: النعمة المكفورة هي النعمة المستورة، فلا تعرض النعمة للزوال بكفرانها، فقد قال الله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد»(2)

ولا تعتدّ بعدوّ الله الذي أطغاه النعمة فتكبر علي أولياء الله فحلّت به العقوبة

فتبرّته تتبيرا و دمّرتة تدميرا و أصابته سعيرا «و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة» بالبذل و المواساة «و لا تنس نصيبك من الدنيا» و نصيبك منها ما قدّمته لغدك «و أحسن» إلي عباد الله انتهاءً «كما أحسن الله إليك» ابتداءً «و لا تبغ الفساد في الأرض» بالطغيان في النعمة و الركون إلي الظلمة «إنّ الله لا يحبّ المفسدين».(3)

ص: 248

1- راجع تفسير القمّي: 1/143.

2- إبراهيم: 7.

3- القصص: 77.

قال الحافظ:

إنَّ الفضل من الله تخصيص عبده بما يميّز به عن أقرانه، كاستخلافه آدم عليه السلام واصطفائه إياه بسجود الملائكة، وتقديمه علي ساداتهم وتفضيله عليهم بعلم الأسماء، وإدخاله الجنة ابتداءً من غير عمل، وتخصيصه نوحاً عليه السلام بالمكث الطويل في الدعوة [إلي] الشريعة وإمداده أيام الطوفان بالسفينة المنجية، واختياره الخليل عليه السلام بالصّفاء والخلة وقبول قربانه، وفدائه بالذّبح المعظم وإبقاء ذكره في الأمم الغابرة وتحييته إلي البرية بموالاته، وتخصيص يوسف عليه السلام بالحسن المعجز والجمال الزّائع مع ما ألبسه من سلطان التّبوّة وهيبة الرّسالة حتّي لم ينظر أحد إليه

بعين الرّيبة، وتخصيص الكليم عليه السلام بالتربية العجيبة و صرف عدوّه عن إهلاكه بعد نصبه الشّبّانك في طلبه وتدبّر الحيل في أخذه، والله يكأله في بيته وحجره ويربّه

بين حشمه، مع سائر خصائص الله لديه وعليه من ابتداء حاله إلي انتهائه، وتخصيص داود عليه السلام بحسن الصّوت وتلين الحديد و حشر الطّير و تسبيح الجبال، وتخصيص سليمان عليه السلام بالفهم الثّاقب في صفائه (1) والقضاء الفاصل في حداثة سنّه وإصابة الحقّ في حياة أبيه دلالة علي خلافته ونبوّته بعد مضي نبيّه عليهما السلام،

ص: 249

وكتخصيص المسيح عليه السلام بمخصائص لا تحصى ولا تعدّ من أول ظهوره إلي وقت رفعه إلي السّماء و اشتباه أحواله علي الخلق، و ذلك لما ظهر منه وفي أيامه ممّا أيّده الله

به من الآيات الباهرة و الأنوار الرّاهرة و القوي القاهرة و الدلائل الطّاهرة مثل معرفته

بالكتب المنزلة وقت ولادته و إقراره بالعبوديّة قبل افتتاح الخلق به، و إثباته النبوّة

لنفسه بما أنطقه الله في صباه، و تنزيهه البرّة العفيفة العذراء البتول عمّا قذفت به و نسبت إليه، و نزول المائدة عليه عيدا لأوّل و آخره، و كتخصيص المصطفى صلي الله عليه و آله بختم الرّسالة و نسخ الشّرائع و دعوة الكافّة و تأخير العقوبات عن الأمتّة و تحليل الطّيّبات و تيسير التّوبة و تخفيف الشّريعة و إحلال الغنائم و كفّارة الأيمان و إباحة

القتال في البلد الحرام و اقتران دعوته بدعوة القيامة و ولايته بولاية الجنّة مع ما يعجز البيان عن إحصاء فضائله و ذكر خصائصه، و هي مشهورة عند أولي النّهي و البصائر.

قال الله تعالى: «ولو لا فضل الله عليك و رحمته لهمت طائفة منهم أن يضلّوك» يقول: ولو لا تخصّيصه إياك بالعصمة الواقية لأضمرت طائفة من رؤساء الصّلالّة أن يضلّوك عن الحقّ «و ما يضلّون إلاّ أنفسهم» يقول: و ما يرجع و بال قصدهم لإضلالك إلاّ إليهم و لاحق بهم لأتّهم الصّلال لا المعصومون من الصّلال «و ما

يضروّك من شيء» دلالة له علي قطع أطماع الملحدين عنه في الإضرار به «و أنزل

الله عليك الكتاب» يعني القرآن «و الحكمة» يعني معرفة التّأويل و التّفسير، و قيل: الإصابة في الخلق و الفعل و الإرادة «و علّمك ما لم تكن تعلم» من الفرائض و السنن و الآثار و الأحكام و الدلائل و الحجج و قصص الماضيين و أخبار الباقيين و ما جري به القلم الممكنون من العلم المخزون في اللوح المصون، و ما حجب عن المقرّبين ممّا لا تدركه الأوهام و لم يكتبه الأقلام «و كان فضل الله عليك عظيما» (1) في البدء و التّنهاية

ص: 250

و الدّنيا والآخرة، و من يقف علي كنه ما عظمه الله و غاية ما كبره الله؟

قال الله تعالى إبانة عن قدرته و اظهارا لهيبته: «و لئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك ثمّ لا تجد لك به علينا وكيلاً إلاّ رحمة من ربك إنّ فضله كان عليك كبيراً»(1)

و قال عزّ من قائل: «و لقد فضّلنا بعض النّبيّين علي بعضٍ و آتينا داود زبوراً»(2)

فأفضل الرّسل سيّدهم محمّد صلي الله عليه و آله.

و ذكر عن الصّادق عليه السلام قال: فضلي من فضل آبائي، و فضل آبائي فضل لي، و فضلي لأبائي فضل. (3)

و قد أبان الله عن فضله بذكر منته علي المؤمنين فقال: «و لكنّ الله حبّب إليكم الإيمان و زيّنه في قلوبكم و كرّه إليكم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الرّاشدون

فضلاً من الله و نعمة و الله عليم حكيم»(4) دلّت الآية [علي] أنّ تحبيب الإيمان و تزيينه في القلوب من الفضل، و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان من التّعمة.

و قال بعض المريدين: طلب الأعواض علي الطّاعات من نسيان الفضل، و نسيان الفضل من نسيان الربّ، و العارف المحقّق يفتخر بفضل الله و يفتقر إلي رحمة الله

و يعتصم بحبل الله و يتوكّل علي الله و يفوض أمره إليه فعلاً الصّدّيق لمّا أظهر الدّعوة و صرّح المملّة و أبان التّسبة قال علي أثره: «ذلك من فضل الله علينا و علي النّاس و لكنّ أكثر النّاس لا يشكرون»(5) و كفعّل(6) نبيّ الله سليمان عليه السلام لمّا استقرّ عنده السّرير قال:

ص: 251

1- الإسراء: 87.

2- الإسراء: 55.

3- راجع الأمالي للصدّوق: 538.

4- الحجرات: 8.

5- يوسف: 38.

6- في الأصل: كفضّل.

«هذا من فضل ربِّي ليلوني أشكر أم أكفر». (1)

و خبّرت أنّ يحيى بن معاذ الرّازي (2) دخل علي حمزة بن حمزة العلويّ ببلخ، فقال له: ما تقول فينا أهل البيت؟ قال: ما أقول في طينة عجنت بماء الوحي و غرسه غرس بماء الرّسالة، فهل يفوح منه إلاّ مسك الهدى و عنبر التّقي؟ قيل: فحشا فاه بالدّرّ و زاره من الغد فقال له يحيى: إن زرتنا فبفضلك و إن زرتنا فلفضلك، فالفضل لك زائرا و مزورا (3)

و لمّا ذكر الله تعالى بعثة الرّسول صلي الله عليه و آله «في الأمّيين رسولاّ منهم يتلو عليهم آياته و يزكّيهم» بالتّأديب و التّعليم «و يعلمهم الكتاب» يعني الوحي المنزل عليه «و الحكمة» يعني أسباب المعاش و المعاد «و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين و آخرين منهم» يعني من العرب و العجم أيضا «لمّا يلحقوا بهم» يعني من بعث

فيهم الرّسول «و هو العزيز الحكيم» قال علي أثره: «ذلك فضل الله» التّخصيص بالرّسالة و التّقديم علي البريّة و التّركية بالأداب الحسنّة و تعليم الكتاب و الحكمة

«يؤتيه من يشاء» يقول: يخصّ به من استحقّق التّخصيص «و الله ذو الفضل العظيم». (4)

و الكلام في أبواب الفضل يطول لقصور الخلق عن إدراك أوّله و آخره، فاسأل المفضّل من فضله، فلولا الفضل و الكرم ما زكي أحد و لا نجا بشر و ما صلح حال و لا

ص: 252

1- التّمّل: 40.

2- أبو زكريّا يحيى بن معاذ الرّازي: خرج إلي بلخ و أقام بها مدّة و رجع إلي نيسابور و مات بها سنة 258 وهو واعظ زاهد، له كلمات سائرة. راجع الرّسالة القشيريّة: 62، و الأعلام: 8/172.

3- وفي ربيع الأبرار للزمخشريّ [باب الأخلاق و العادات الحسنّة و القبيحة]: زار الخليل [أي الفراهيدي] بعض تلامذته فقال له: إن زرتنا، الخ. و في كتاب حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين و القدماء للزوزني المتوفّي سنة 431هـ [باب الاستعطف و الاعتذار]: دخل يحيى بن معاذ الرّازي ببلخ علي حمزة بن حمزة سيّد العلويّين بها، فقال: ما تقول فينا، الخ.

4- الجمعة: 4.

تمّ بال. جعلنا الله ممّن يُسعدنا بفضله ويخصّنا بلطفه، إنّهُ المفضل الكريم العادل الحكيم.

ص: 253

قال الحافظ:

إنَّ اللهَ يحبُّ العفو، دلَّ رسولُه علي العفو و أمر أوليائه بالعفو و دعا أصفياءه إلي العفو.

قال لنبِيِّه عليه السلام: «خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين»(1). و قال لأوليائه:

«و ليعفوا و ليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم»(2). و قال لأصفياءه: «و إن تعفوا و تصفحوا و تغفروا فإنَّ الله غفور رحيم»(3).

و العفو ينقسم إلي المعاني:

منها الفضل، قوله عزّ ذكره: «و يسألونك ماذا ينفقون» يعني كم ينفقون «قل العفو»(4) أمر بإنفاق ما فضل عن الكلّ و العيال.

و منها التّجاوز، قوله عزّ اسمه: «فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم في الأمر»(5) يقول: تجاوز عن زلّاتهم.

ص: 254

1- الأعراف: 199.

2- التّور: 22.

3- التّغابن: 14.

4- البقرة: 219.

5- آل عمران: 159.

و منها التيسير و التخفيف، قوله في ذكر القصاص: «فمن عفي له من أخيه شيء» يقول: فمن يُستر له و سهّل عليه و خفّف عنه من دم أخيه أوديته شيء «فاتباع بالمعروف و أداء إليه بإحسان».(1)

و منها الكثرة، قوله جلّ جلاله: «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتّى عفوا»(2) يعني كثروا.

و الله العفوّ، يعني المتجاوز عن ذنب عبده، المتفضّل عليه بعظيم الثواب، المخفّف عنه شديد العقاب، يكثر البرّ و التّعّم معه و الإحسان إليه و هو الغفور يعني

الساتر لعبده برحمته، و المغفرة سترة العبد بلطائفه حتّى لا يطلع العبد(3) عليه فيعيّره. و منه غفر الخزّ، و هو ما ستره و علاه. و منه المغفر، و هو الساتر للرأس، و الله مظهر الجميل و يحبّ إظهاره، و الساتر علي القبيح و يحبّ ستره.

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: استروا علي المؤمن ما لم يضّرّ مسلماً.

و قال: من أطلع علي سيئة مؤمن فأفشاها عليه و لم يكتمها، كان كعاملها.(4)

و عن البراء بن عازب، قال خطبنا رسول الله صلي الله عليه و آله فنادي بأعلي صوتة حتّى سمع العواتق في الخُدور: يا معشر من آمن بلسانه و لم يخلص الإيمان إلي قلبه، لا تتبعوا

عورات المسلمين فإنّه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، و من يتبع الله

عورته فضحه ولو في جوف بيته.(5)

و قال - بأبي و أمي - صلّي الله عليه شفقة علي أمته: من أصاب منكم هذه

ص: 255

1- البقرة: 178.

2- الأعراف: 95.

3- ولعلا الصحيح: الغير.

4- راجع البحار: 75/216.

5- راجع ثواب الأعمال: 288 وكنز العمال: 16/125.

القاذورات فليستر لستر الله. من أبرز صفحاته لنا أقمننا عليه الحدّ. (1)

و من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام إذا ابتلي مبتلي [أو رأي] بفضيحة: اللهم لك الحمد علي حلمك (2) بعد علمك و معافاتك بعد خبرك و كلنا مولانا قد اقترف العائبة فلم تشهره و ارتكب الخطيئة (3) فلم تفضحه و تستر بالمساوي فلم تدلل عليه، كم من حرمة علي عينك قد انتهكناها و خطيئة من وراء الحجب قد ركبناها، كنت المطلع عليها دون الناظرين و القادر علي إعلانها فوق القادرين، كانت عافيتك لنا حجابا دون

الأبصار و ردما دون الأسماع، فاجعل ما كشفت (4) من عورته و أبرزت من دخلته (5) و أعلنت من حفيته (6) واعظا لنا عن سوء الخلوة و إسرار الخبثة، و أنب بنا إلي التوبة الماحية و الطريقة المحمودة، و قرب فيها الوقت ولا تسمنا الغفلة عنك، إنا إليك راغبون. (7)

ص: 256

1- البحار: 72/254 و تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: 178.

2- في الصحيفة السجادية: سترك.

3- فيها: الفاحشة.

4- فيها: سترت.

5- فيها: وأخفيت من الدخيلة.

6- كذا.

7- راجع الدعاء 34 من الصحيفة السجادية.

قال الحافظ:

اعلم أنّ الله عادل حكيم ومفضل كريم، فمن عدله إرادة الخير بعبده وهدايته إلي الحقّ وتكليفه طاقته وتعذيبه بكسب يده ومجازاته الحسنة بالحسنة وبالسيئة السيئة، وإيصاله الرزق إلي المحتاج وإقامة الأدلة علي الحقّ المأمور باتباعه وبتبطلان الباطل المنهيّ عن ركوبه.

قال الله تعالى: «إنّ الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون»⁽¹⁾

وقال يحكي قول القرينين اللذين يحيل أحدهما الذنب علي صاحبه، و جوابه علي سبيل العدل لهما ونهيه عن إحالة الذنب علي البريء مع تنزيه النفس الجانية: «لا تختصموا لديّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد ما يبذل القول لديّ» يقول: ما يكرّر

القول لديّ وما يثني إعظاماً لحقّي وإجلالاً للموقف الأعظم «وما أنا بظلام

للعبيد»⁽²⁾ فنفي الظلم إثبات العدل.

وفي الأثر المرويّ عن رسول الله صلي الله عليه وآلهقال: ما خلق الله علي ظهر الأرض أقلّ من العدل، وإنّ العدل ميزان الله في الأرض؛ فمن أخذه قاده إلي الجنة، ومن تركه ساقه

ص: 257

1- يونس: 44.

2- ق: 29.

وفيما روي أبو أمامة عنه عليه السلام قال: لو أن الله عذب أهل سمائه وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كان رحمته إيّاهم خيرا من أعمالهم، وإن مُت علي غير هذا دخلت النار. (2)

وقيل: لو عامل السيّد بعدله مع المذنبين لما عفي عنهم ولو بكوا إلي يوم الدين.

وبالعدل تستقيم الأسباب وتفتح الأبواب، وتعمر البلاد وتصلح العباد. وقيل: لا ملك إلا بالجيش، ولا جيش إلا بالمال، ولا مال إلا بالعمران، ولا عمران إلا

بالعدل.

و من فضل الله و كرمه تكليفه العبد دون طاقته و توفيقه للمكلف - وهو اللطف - لمن استحقّه و الزيادة في الأدلّة علي تحقيق الحقّ و بطلان الباطل و ستره العيوب عليه و عفوه عمّا جنت يده و إعطاء الشّفاة فيه و مجازاته بالحسنة الواحدة عشرا و بالسّيئة الواحدة واحدا، و البركة في الأرزاق. قال الله تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها و من جاء بالسّيئة فلا يجزي إلاّ مثلها و هم لا يظلمون» (3). و قال عزّ ذكره:

«من جاء بالحسنة فله خير منها و هم من فزع يومئذٍ آمنون و من جاء بالسّيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون» (4)

وقيل: من عامل مع الله بالجور عامل الله معه بالعدل، و من عامل مع الله بالعدل

عامل الله معه بالفضل، و من عامل مع الله بالفضل عامل الله معه بجميع وجوه البرّ.

و بالفضل يسعد العبد و يصل إلي كرامة الأبد، و فضل الله عطاؤه و ليس لعطاياه

ص: 258

1- راجع جامع البيان: 5/434 و الدرّ المنتور: 2/234. و مستدرك الوسائل: 11/317.

2- راجع سنن ابن ماجة: 1/30 و مسند أحمد: 5/185.

3- الأنعام: 161.

4- النمل: 89.

نهاية؛ لأنّها أبدية سرمدية تظهر في الأوقات فوق الأوهام والأفهام خارجة عن الوصف والعبارة، وهو سبحانه موصوف بالعدل والفضل، معروف بالبرّ والكرم، يعدل مع الأعداء ويفضل مع الأولياء، فعده حجة وفضله نعمة، وهو العادل في قضائه المفضل في عطائه، لولا إمهاله العبد ما اجتري أحد علي العصيان ولا مال إلي الطغيان.

و من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر الفضل والعدل: يا من لا يرغب في الجزاء يا من لا يندم علي العطاء يا من لا يكافئ عبده علي السوء هبتك ابتداء و عفوك تفضّل و عقوبتك عدل و قضاؤك خيرة، إن أعطيت لم تشب عطاءك بمنّ وإن منعت لم يكن منعك تعدياً، تشكر من يشكرك و أنت ألهمته شكرك و تكافئ من حمدك و أنت علّمته حمدك، تستر علي من لو شئت فضحتّه و تجود علي من لو شئت منعته، و كلاهما منك أهل الفضيحة و المنع إلا أنّك بنيت أفعالك علي التفضّل و أجريت قدرتك علي التّجاوز و تلقّيت من عصاك بالحلم و أمهلت من قصد لنفسه بالظلم، فتستظهرهم بأناتك إلي الإنابة و تترك معاجلتهم في التّوبة لكي لا يهلك عليك هالكهم و لئلاّ يشقي بنقمتك شقيهم إلاّ عن طول الإعذار إليه و بعد ترادف الحجّة عليه كرما في فعلك يا كريم و عاندا من عطفك يا حلّيم.

أنت الّذي فتحت لعبادك بابا إلي عفوك سمّيته التّوبة، و جعلت علي ذلك دليلاً من وحيك لئلاّ يضلّوا عليه، فقلت: «توبوا إلي الله توبة نصوحا عسي ربّكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم و يدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار»⁽¹⁾ فما عذر من أغفل دخول المنزل بعد فتح الباب و إقامة الدليل؟ و أنت الّذي زدت في السّوم علي نفسك لعبادك تريد ربحهم في متاجرتك و فوزهم بالزّيادة عليك، فقلت: «من جاء بالحسنة

ص: 259

1- التّحرّيم: 8.

فله عشر أمثالها و من جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها و هم لا يظلمون»(1) و قلت: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة

و الله يضاعف لمن يشاء»(2) و ما أنزلت من نظائرهن في القرآن و أنت الذي دللتهم بقولك من غيبك الذي فيه حظهم علي ما لو سترته لم تدركه أبصارهم و لم تضمّنه أسماعهم و لم تغص عليه أو هامهم، فقلت: «فاذكروني أذكركم»(3) و قلت: «لئن شكرتم لازيدنكم»(4) و قلت: «ادعوني استجب لكم»(5) و قلت: «من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له»(6) فذكروك و شكروك و دعوك و تصدّقوا لك، و فيها كانت نجاتهم من غضبك و فوزهم برضاك، ولو دلّ مخلوق مخلوقا علي مثل الذي دللت عليه عبادك منه كان محمودا، فلك الحمد ما وجد في حمدك مذهب و ما بقي للحمد لفظ تحمد به و معني يصرف إليه، يا من تحمّد إلي عباده بالإحسان و الفضل و عاملهم باليمنّ و الطول، ما أفشي فينا نعمك و أسبغ علينا منّتك و أخصّنا ببرّك، هديتنا لدينك الذي اصطفيت، و ملّتك الذي ارتضيت، و سبيلك الذي سهّلت، و بصّرتنا ما توجب الرّزفة إليك و الوصول إلي كرامتك»(7).

ص: 260

1- الأنعام: 161.

2- البقرة: 261.

3- البقرة: 152.

4- إبراهيم: 7.

5- غافر: 60.

6- الحديد: 11.

7- هذا هو الدعاء 45 من الصّحيفة السّجّادية مع التّليخيص و تفاوت في الألفاظ.

قال الحافظ:

أصل السعادة عادة الراحة لأنَّ ضدها الشقاوة قال الله تعالى: «فلا يخرجكم من الجنة فتشقي» (1) يقول: فتتعب في طلب المعيشة وأنواع المحنة. وقيل: لا تأكل رزقك إلا بعرق الجبين.

وقال عزّ ذكره: «فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقي» (2) يعني فلا يغوي في الدنيا ولا يتعب في الآخرة.

وقال لحبيبه عليه السلام: «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي» يقول لتتعب و تنهي (3) «إلا تذكرة لمن يخشي» (4) يعني عظة لمن يرهب و يخاف.

و حقيقة السعادة عادة راحة الأبرار في دار القرار، و الشقاوة تعب الفجار في محلّ البوار. قال الله تعالى: «يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقيّ وسعيد» متعوب

في العذاب و مستريح في النعمة «فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير و شهيق

ص: 261

1- طه: 117.

2- طه: 123.

3- كذا في الأصل.

4- طه: 2.

خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد»(1)

وهو كلام التأكيد والتأييد، فمن قولهم: لا أكلمك ما كثر الجديدان و اختلف العصران ما دامت السماوات والأرض. وأما الاستثناء فهو حكم وتحقيق، وقيل: الاستثناء واقع علي كون الأثقياء في الراحة قبل الوقوع في تعب الأبد. «وأما الذين

سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك». وهو واقع علي كونهم في المحنة والتعب قبل الوصول إلي الراحة الدائمة واللذة الصافية

والتعنة الكاملة وسرور الأبد ثم أوضح البيان وأزال الشبهة بقوله: «عطاءً غير مجذوذ»(2) يعني غير مقطوع، والجذء: القطع عند أهل اللسان.

والسعادة علي وجهين: سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة؛ أما في الدنيا فصحة الجسم والثناء الحسن وكثرة الجدة والرأي الأصيل والمشورة المصيبة وكمال الطاعة والنظر في العواقب، وأما في الآخرة فالنجاة من العقاب والوصول إلي الثواب والرفعة في الدرجات. والشقاوة علي ضد ما ذكرنا.

وروي الصادق عن أبيه عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول الله صلي الله عليه وآله: أربع خصال من الشقاء: جمود العين و قساوة القلب و بعد الأمل و حب الدنيا(3)

وبغير هذا الإسناد فيما روي عنه عليه السلام قال: أربعة بالمرء سعادة: أن تكون له زوجة موافقة، وإخوانه صالحين، وأولاده أبراراً، وأن يكون رزقه في بلده(4).

دلّ الخبران علي أنّ السعادة هي الأفعال السنيّة من أداء المأمور به واجتناب

ص: 262

1- هود: 105.

2- هود: 107.

3- تحف العقول: 12.

4- راجع نواذر الراوندي: 110 و الجامع الصغير: 1/141 و كنز العمال: 11/93 وتاريخ دمشق: 54/178 وفي كلهم: أربع من سعادة المرء.

المنهية عنه، وغايتها راحة الدارين.

وفيما يؤثر عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه، وكل ميسر لما خلق له وقد جري القلم وفرغ ممّا هو كائن إلي يوم القيامة، وإنّ العبد ليعمل حيناً من دهره أعمال أهل السعادة حتّى يقال هو منها، فيدركه الشقاء بما كتب عليه، وكذلك الشقي(1)

وأصل السعادة والشقاوة: الراحة والتعب، وإنّما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله علي تقارب الحال.

ومّا يدلّ علي أنّ السعادة والشقاوة يتعلّق بالأفعال، قول رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ أشقي الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود ومن يخضب هذه من هذه(2) يعني ابن ملجم المرادي الذي ضرب سيّد الأوصياء عليه السلام بسيفه المسموم فاحمرت لحيته من دمه، فأخبر عليه السلام أنّ أشقي الخلق من قتل أفضل البشر بعد أفضل الرسل صلى الله عليه وآله.

ومّا يحقّق هذا دعاء الأمين جبرئيل وتأمين المصطفي عليهما السلام حين رقا المنبر

فقال: شقي عبد أدرك شهر رمضان فلم يُغفر له، وشقي عبد أدرك أبويه فلم يرضهما، وشقي عبد ذكرت عنده فلم يصلّ عليك، في كلّ ذلك يقول المصطفي صلى الله عليه وآله: آمين(3) فجعل الشقاوة ترك المفروض عليه وارتكاب المنهية عنه دلّ [علي] أنّها الأفعال

السنيّة والدنيّة.

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام إذا رفع عنه ما يحذر: اللهم لك الحمد علي حسن قضائك ما صرفت عني من بلائك، فلا تجعل حظّي من رحمتك ما عجّلت لي من عافيتك فأكون قد شقيت بما أحببت وسعدت غيري بما كرهت، وأن يكون ما ظللت

ص: 263

1- راجع التوحيد للصدوق: 356 والمعجم الكبير: 10/223.

2- راجع الخصال: 607 وعيون أخبار الرضا عليه السلام: 2/266.

3- راجع فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق: 114.

فيه أوبت من هذه العافية بين يدي بلاء لا ينقطع ورزء لا يرتفع، فقدّم لي ما أّخرت وأّخر عني ما قدّمت، فغير كثير ما عاقبته الفناء وغير قليل ما غايته البقاء(1).

ص: 264

1- هذا هو 18 من الصّحيفة السّجّادية مع تفاوت يسير.

ذكر الحقّ و معناه

قال الحافظ:

الحقّ اسم لما صحّ وجوده و تحقّق كونه وحدّه ما أمر بالتّباعه و دعي إليه، و ضدّه الباطل و هو ما نهى عن ركوبه و زجر عنه. و الحقّ منصور بالحجّة و الدّلالة، و الباطل

مقهور. قال الله: «بل نقذف بالحقّ علي الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»⁽¹⁾

وقال: «وقل جاء الحقّ» يعني ظهر و غلب «وزهب الباطل» يعني هلك و اضمحلّ «إنّ الباطل كان زهوقاً»⁽²⁾ يعني هالكا مضمحلّاً.

و قال دلالة علي هذا المعني: «قل إنّ ربّي يقذف بالحقّ» يعني يأتي به و يظهره «علّام الغيوب»⁽³⁾

و قال تعالي: «فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا» يعني المصطفي من عندنا، هذا قول ابن عبّاس رضي الله عنه و المراد تحقيقه، ثمّ قال زيادة في البيان: «قل جاء الحقّ» يعني ظهر المصطفي و الدّين «و ما بيدئ الباطل و ما يعيد»⁽⁴⁾ يعني ما يوجد الشّيطان المبطل شيئاً و ما يعدمه.

ص: 265

1- الأنبياء: 18.

2- الإسراء: 81.

3- سبأ: 48.

4- سبأ: 49.

وذكر أنّ الحارث بن حوث(1) قال لأميرالمؤمنين عليه السلام: أنظرَ أنّك علي الحقّ وأنّ طلحة والزبير و معاوية علي الباطل؟ قال: مه يا حار(2)، إنّ الحقّ لا يعرف بالرجال، اعرف الحقّ تعرف أهله، و اعرف الباطل تعرف أهله(3)

كلمة حقّ صدرت عن لسان صدق علي سبيل التبيين و حدّ التنبيه، مقرونة بالنصح دالة علي كمال الفطنة و علوّ الهمة، لو فهمها السّامع لاهتدي إلي محلّ الوصاية و عرف وجوب الولاية لكن من عمي عن الحقّ و الدليل ضلّ عن الهدى و السبيل.

و ذكر عن ابن مسعود قال: من أتاك بحقّ فاقبله و إن كان بغيضا بعيدا، و من أتاك بباطل فاردده و إن كان حبيبا قريبا(4)

و ذكر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: من جمع ستّ خصال لم يدع للجنة مطلبا و لا عن النار مهربا؛ أوّله عرف الله فأطاعه، و عرف الشيطان فعصاه، و عرف الحقّ فاتّبعه،

و عرف الباطل فاتّاه و عرف الدنيا فرفضها، و عرف الآخرة فطلبها.(5)

و للحقّ معانٍ:

منها الهلاك، قوله: «قال ربّ احكم بالحقّ»(6) يعني بالهلاك.

و منها الوجوب، قوله حكاية عن أهل النار: «فحقّ علينا قول ربّنا»(7) يعني وجب.

و منها الحظّ و النصيب، و ذلك [قولهم:] لا حقّ لك في هذا، و حقّي واجب،

ص: 266

1- في الأصل: حوط، و الصحيح ما أثبتناه.

2- حار: ترخيم لاسم الحارث.

3- راجع نهج البلاغة: 262 من الكلمات القصار و الأمالي للمفيد: 5 و الأمالي للطوسي: 626.

4- راجع كنز العمال: 15/864 و المعجم الكبير: 9/102.

5- راجع جامع الأخبار: 295 و تنبيه الخواطر: 1/135.

6- الأنبياء: 112.

7- الصفات: 31.

و مهر المرأة حقها.

و منها الأولي، و هو قولهم: أنا أحق لهذا الأمر منك، و فلان أحق من فلان.

و منها الصدق، و هو قولهم: حقاً قلت و قلت حقاً. و في المثل المضروب: الصدق حق و الكذب باطل.

و رأي رسول الله صلي الله عليه و آله رجلاً من الأنصار يقال له: حارثة، فقال: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا و لذتها، فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري، و لكأني أنظر إلي عرش ربي بارزا و لكأني أنظر إلي أهل الجنة يتزاورون و إلي أهل النار يتعادون. فقال النبي صلي الله عليه و آله: عبد نور الله قلبه، فالزم. (1)

وقيل: نور الحق مشرق مضي، و ظلمة الباطل مستتر خفي.

و الحقوق مختلفة:

منها حق الله، و هو اعتقاد وحدته و إثبات ربوبيته و أداء أمره و اجتناب نهيه و الرضا بحكمه و نشر آلائه و ذكر نعمائه و موالاة أوليائه و معاداة أعدائه و التفكر في عظمته و الاعتبار.

و منها حق الملائكة الموكلين، و هو تعظيمهم عند الذكر و تنزيههم عن صفات البشر و تبيدهم عن مجالس الباطل و إملاء الحسنات عليهم و ترك السيئات بحضرتهم و حفظ اللسان عن الخناء إعظاماً لأمرهم و إحضارهم مجالس الخير و معادن الفضل.

و منها حق الرسل، و هو تصديق نبوتهم و تحقيق رسالتهم و تنزيههم عن القبائح

ص: 267

1- راجع الكافي: 2/53 و المحاسن للبرقي: 1/246 و كنز العمال: 13/353.

و تبيدهم عن التهم وإثبات محاسنهم ونشر فضائلهم وتحديد(1) أسمائهم وذكر

آيائهم وعرض آثارهم والإبانة عن أحوالهم.

ومنها حقّ المصطفى سيّد الرّسل عليه الصّلاة والسلام، وهو تقديمه علي البشر وتفضيله علي الملائكة وتمييزه عن الخلق وذكر خصائصه وإحياء سنتّه وحفظ شريعته ومحبة أصحابه وتقديم وصيّيه وموالاته عترته والدّلالة علي أحواله والصّلاة

عليه عند ذكره وإظهار معاجيزه، وحبّ العرب إعظاما لقدره وتعظيم قريش إجلالاً لحقّه.

ومنها حقّ وصيّيه سيّد الأوصياء، وهو معرفة وصايته وإثبات خلافته وتحقيق إمامته واعتقاد ولايته وعقد بيعته وإظهار دلائله والنزول عند حكمه والإحسان إلي ذرّيته والبراءة من أعدائه.

ومنها حقّ الصّحابة من أهل الهجرة والنّصرة، وهو ذكر محاسنهم ونشر فضائلهم وإقالة عثرتهم وستر عوراتهم وتعظيم أحوالهم وإظهار آثارهم والاستغفار لسابقهم وحسن الظّنّ [بهم] وحفظ اللسان عمّا يشينهم.

ومنها حقّ الأئمة، وهو الدّعاء لهم بالغيب والشّفقة عليهم في السّرّ والاستغفار لذنوبهم دائماً والمواساة لهم بالمال وإرادة الخير بهم وحفظ اللسان عن أعراضهم وذكرهم بالجميل.

ومنها حقّ الأقرباء، وهو وصل أرحامهم ولطف آيتامهم والتعطف علي أراملهم وتوقير كبارهم وإغاثة ضعفائهم واستشارة عقلائهم وبرّ أطفالهم ومراعاة نسائهم وعبادة مريضهم وتشجيع جنائزهم وتعزية مصابهم وتنبههم من الغفلة وداللتهم علي البرّ وتزهيدهم في الدّنيا وترغيبهم في العقبى.

ص: 268

1- كذا. ولعلّ الصّحيح: تجديد.

و منها حقّ الامام العادل بيضة الإسلام و منار الأحكام و نجم الأنام و مفرع الصّدّ عفاء و ملاذ(1) الحنفاء، و هو بذل المهجة له بشرائط الطّاعة و مناصحة أهل ولايته و منابذة أهل عداوته، و الجهاد بين يديه و الدّعوة إليه و تصفية العقد و التّسليم لأوامره و ترك الصّغائن و الحقد عليه عند إقامته الحدود و تنفيذ الأحكام، و يعلم أنّ طاعته طاعة الله و معصيته معصية الله، فأوجب له السّمع و الطّاعة علي نفسه

و وقف عند بيانه و استكشف السّبب الوارده عليه من عنده و اغترف بكفّ الافتقار من بحار علمه و شرب بكأس الصّدّفاء عن أنهار حكّمته و اغتسل بماء الحياة في عيون قدسه و استظلّ بالأنس تحت أشجار عطفه و جني بيد الآداب ثمار لطفه و نشر بلسان الصّدق محاسن أيامه و اعتقد بنور اليقين خصائص أحواله و حقّق بكمال الحسبة غاية آماله؛ لأنّ الإمام العادل هو ثالث الثلاثة في نظام الطّاعة، لا يقبل عذر

من جهله و لا- يرفع عمل من رده، و نسأل الله أن يعيننا علي قضاء الحقوق و القيام بالفرائض و لزوم الآداب، و إنّ الآخرة خير من الأولى و ما عند الله أفضل و أبقي.

ص: 269

1- في الأصل: ميلاد.

قال الحافظ:

أولياء الله من وافق الله في السرّ والعلانية وتمسك بطاعته في الرّخاء والشدة واعتصم بحبله في الأنس والوحشة والي أهل الحقّ في الذلّ والمحنة وعادي أهل الباطل في العزّ والرّفعة. وأعداؤه من أعرض عن أوليائه مستكبرا وأقبل علي أعدائه مفتخرا، وآثر الدنيا حرصا ورفض العقبي سهوا وعادي الحقّ جهلاً واتبع الباطل كبرا.

وقيل: صفة الأولياء الافتخار بالله والافتقار إلي الله والتوكّل علي الله والتفويض إلي الله والسكون مع الله. وصفة الأعداء نسيان منّة الله والإعراض عن طاعة الله والغفلة عن ذكر الله والسخط عند قضاء الله والعدول عن حقّ الله والتكبر علي أولياء الله.

وذكر صاحب كتاب الميزان: إنّ الفقر للأولياء كرامتهم، وطاعة الله حلاوتهم، وحبّ الله لذّتهم، وإلي الله حاجتهم، والله حافظهم والتّقوي بضاعتهم، ومع الله تجارتهم وعليه اعتمادهم، وبه أنسهم وعليه توكلّهم، والجوع طعامهم والزهد ثمارهم، وحسن الخلق لباسهم وطلاقة الوجه حلّيتهم، وسخاوة النفس حرفتهم وحسن المعاشرة صحبتهم، والعلم قاندهم والصبر سائقهم، والورع زادهم الهدى

ص: 270

مركبهم، و القرآن حديثهم و الشكر زينتهم، و الذكر نهمتهم(1) و الرضا راحتهم،

و القناعة مالهم و العبادة كسبهم، و الشيطان عدوهم و الدنيا مزابلهم، و الحياء قميصهم و الخوف سجنهم، و الليل فكرتهم و النهار عبرتهم، و الحكمة سيفهم و الحق حارسهم، و الحياة مرحلهم و الموت منزلهم، و القبر حصنهم و يوم القيامة عيدهم، و في ظل العرش مجلسهم و الفردوس مسكنهم، و النبيون رفقاؤهم.

و ذكر عن ذي النون بن إبراهيم المصري قال: بينا أنا سائر علي شاطئ النيل إذ سمعت تغطط(2) اليم و تلاطم الأمواج فهالني ذلك و رجعت إلي ورائي فإذا أنا بسلام قد نحل جسمه و دق عظمه ورق جلده و قد أتز بمنز الحياء و توشح بوشاح المراقبة، و إذا بيده عكازة عليها مكتوب:

من كانت همته الدنيا ليعمرها

فسوف يوما علي رغم يخليها

لا دار بعد الموت يسكنها

إلا لمن كان قبل الموت بانها

فإن بناها بخير كان مغتبطا

و إن بناها بشرّ خاب بانها(3)

فقلت: السلام عليك يا أبا عبد الله. قال: و عليك السلام يا ذا النون المصري. قلت له: حبيبي من أين عرفتي و لم ترني و لم أرك؟ قال لي: يا بطال عرفت روحي لروحك بفسخ رتق عميق، أنس المحبة فخرقت المحبة عمق آماق أحداق القلوب فعرفتك بمعرفة الجبار. فعلمت أن الغلام حكيم فقلت له: متي يستوجب العبد

ص: 271

1- التهمته: بلوغ الهمة والشهوة في الشيء.

2- تغطط البحر: علت أمواجه واشتدت.

3- وفي الشعر المنسوب الي أمير المؤمنين علي عليه السلام. النفس تبكي علي الدنيا و قد علمت إن السلامة فيها ترك ما فيها لدار لمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت بانها فإن بناها بخير طاب مسكنها و إن بناها بشرّ خاب بانها إلي آخر الأبيات، انظر الديوان المنسوب إليهم كتاب أنوار العقول من أشعار وصي الرسول للكيدري.

الولاية؟ قال: إذا نشر عليه ثوب العناية وقدر بسيف الكفاية وعقد له رايات بنور تلك الهداية، فيا لها من ولاية ما أنهاها من ولاية. ثم ولي عني و أنشأ يقول:

حبّ عبد بحبّ مولاه

إذا خلا بالجليل لبّاه

قد كشف الحجب عن بواطنه

فنور مولاه قد تغشاه

قد ادّعي حبه فأحزّنه

كفي بذى العبد صدق دعواه

يقول يا غايّتي و يا أملي

ما خاب عبد تكون مولاه

وللأولياء درجات: أولها التوكّل على الله، ثم الرضا بما صنع، ثم الشكر بما أنعم،

ثم الإخلاص بما أمر في أوقاته وحدوده، ثم مشاهدته فيه.

وقيل: وليّ الله صدره مشروح، وبدنه مطروح، وهواه مذبوح.

ووليّ الله من والي وليّه وعادي عدوّه، ولا يواليه إلا بعد النظر الثاقب بعين

الإنصاف في كتابه المنزل على نبيّه، قال الله تعالي: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» (1) فإذا نظر في الكتاب وعرف الولي من العدو ووالاه استحقّ الولاية من الله والبشري في الدنيا والآخرة.

قال الله عزّ ذكره: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» قيل: الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تري له. وقيل: هي البشارات التي في القرآن وما يبشّره الملاك به عند قبض أرواحهم وتجيّبهم به في القيامة إلي أن يدخلوا الجنة آمنين مكرّمين في مقاعد الصّدق «لا تبديل لكلمات الله» يقول: لا تغيير لحكمه ولا خلف لمواعيده «ذلك هو الفوز العظيم». (2)

ص: 272

فينبغي للعبد أن يصل ولايته بولاية وليّ الأمر الذي هو الوسطة بين الرسول و الأمة و المفزع في الأحكام و الشريعة، و ولاية وليّ الأمر بولاية الرسول الذي هو صاحب الشريعة و سيّد البرية و عمود الدين، و ولاية الرسول بولاية الله الذي هو المعبود علي الأحوال و المقصود في الآمال، فإذا اتّصلت الولايات ظهرت العنايات و حسنت الرعايات و تمّت الكرامات، قال الله تعالى: «اللّٰه ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور» يعني ظلمات الشّبه إلى نور الأدلّة. و قال بعض المحقّقين: ظلمات الأنانيّة إلى نور الوحدة «و الذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات» يعني من نور الأدلّة إلى ظلمات الشّبه بالأباطيل المزخرفة «أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون».(1)

ص: 273

1- البقرة: 257.

قال الحافظ:

الدار داران:

دار صفوة وجزاء، وهي الآخرة التي هي مجمع الأولين والآخرين، فيها تزول محن الأخيار وتظهر حقائق الأسرار وتبلي سرائر الأخبار وتحصل ضمائر القلوب وتدرك بواطن الغيوب.

و دار المحنة، وهي الدار التي جعلت أولها بكاءً وأوسطها عناءً وآخرها فناءً، ميسورها مع معسور وسرورها ممزوج بغيرور، لا تخلو حجة من شبهة ولا صحة من سقم، حقوقها رصد وعيشها نكد وبؤسها لازم، فيها محن المؤمنين ومهل الكافرين ووحشة المريرين، ومنها زاد المطيعين، صفتها البين و نعتها الحين.

و ذكر عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: سمع أمير المؤمنين 7 رجلاً يذم الدنيا فأطنب في ذمها، فصرخ به علي عليه السلام فقال: أيها الذام للدنيا، أنت المجترم عليها أم هي المجترمة عليك؟ فقال الرجل: لا بل أنا المجترم عليها يا أمير المؤمنين. فقال: ويحك فبم تدمه؟ أليست بدار صدق لمن صدقها و(1) دار عناء لمن تزود منها و دار عافية لمن فهم عنها، هي مسجد أحبب الله و مهبط وحيه و مصلي أنبيائه و متجر أوليائه، اكتسبوا

ص: 274

فيها الراحة وريحوا فيها الجنة. فمن ذا يذمها وقد أذنت بانقطاعها ونادت بينها ونعت (1) نفسها وأهلها، فمثلت ببلائها البلاء وشوقت بسرورها إلي السرور وراحت بفرجة وابتكرت بعافية تحذيرا وترغيبا، فذمها أقوام غداة الندامة وذكّرتهم فلم

يذكروا وحدثتهم فلم يصدقوا وحدثتهم فلم يحذروا، وحمدوا آخرون حدثتهم فصدقوا وذكّرتهم فتذكروا وحدثتهم فخافوا.

فأيها الدّام للّدينا المغترّ بتغيرها المتخدّع بباطل آمالها، متي استدّمت إليك أو متي غرّتك؟ أبمصارع آبائك من الثري أم بمضاجع أمهاتك من البلي أم بطوارق النّعي من إخوانك أم ببواكي الصّريع من أحبّائك؟ كم علّلت بيديك وكم مرضت بكفّيك تبغي له الشّفاء وتستوصف له الأطباء لم تنجح له بطلبتك و لم تدفع عنه باستقامتك، مثّلت لك (2) الدّنيا مصرعه بمصرعك و مضجعه بمضجعك، هيهات حين لا يغني عنك بكاؤك و لا ينفعك أحبّاؤك. (3)

قال الله تعالى: «إنّما مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السّماء» يعني أنّ صفة الحياة الدّنيا كمطر نزلت من السّماء أيّام الرّبيع «فاختلط به نبات الأرض» يعني

بالماء «مما يأكل النّاس» مثل الحنطة و ما يعيش به بنو آدم «و الأنعام» مثل التبن و الشّعير و ما جعل غذاء لهم «حتّي إذا أخذت الأرض زخرفها» يعني زينتها عند ظهور النّبت «و ازّينت»

يعني و تزّينت بألوان الحسن «و ظنّ أهلها» يعني الأرباب

«أنّهم قادرون عليها» يعني علي تحصيل منافعها «أناها أمرنا» بالإهلاك (ليلاً أو

ص: 275

1- في الأصل: تغرّ.

2- في الأصل: له.

3- راجع نهج البلاغة خ 131 والبيان والتبيين: 2/219 وتاريخ يعقوبي: 2/208 والإرشاد للمفيد: 141 وانظر مصادر نهج البلاغة 4/118 واختلاف ما نقله المؤلّف مع ما نقل في هذه الكتب يدلّ علي أنّ مصدر مؤلّفنا غير تلك المصادر.

نهارا فجعلناها حصيدا) يعني ذاهبا زائلا (كأن لم تغن بالأمس) إذا جري عليها حكم الفناء و الزوال (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (1) يقول: كما بيّننا هذا المثل المضروب يتبين الدلائل علي فناء الدنيا لمن تفكّر فيها وأبصرها.

فأيّ دار أكثر محنة وأعظم مصيبة من دار لا يسكن أهلها علي حالة إلاّ و يرد عليه ما يكدرها وينغصها، غناؤها بلاء و بناؤها خراب و صاحبها متعوب و طالبها مكروب و ملكها هلك و وصلها فصل و نوالها زوال و نيلها ويل [و] قربها بعد و طربها كرب و فرحها قرح و عزّها ذلّ و صحّتها سقم و شبابها هرم و حبرتها (2) حسرة و نعمتها

شدّة و صفوها كدر و حلوها مرّ، و ابن آدم منها علي خطر؛ إمّا زوال نعمة أو حلول نقمة أو نزول بليّة. محنها أكثر من نبات الأرض و مصائبها أعظم من الجبال الرواسي، لا يغترّ بها إلاّ الجهال و لا يركن إليها إلاّ الرذّال، متاعها عارية و لذّتها فانية و أنفاسها معدودة.

هي كما قال الله تعالي في التّوراة: يا ابن آدم، القصر الّذي بنيت له للخراب، و عمرك عارية و جسدك للردّي و الدّيدان، و مالك الّذي جمعت للورثة و الأكل و المهناً لغيرك و العرض و الحساب عليك و الحسرة و التّدامة لك و صاحبك في القبر العمل الصّالح و الشرّ. (3)

و قد قال في القرآن ما فيه عبرة لأولي الأبصار و عظة لذوي الأنوار: «من كان يريد

العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها مذموما مدحورا و من أراد الآخرة و سعي لها سعيها و هو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا». (4)

ص: 276

1- يونس: 24.

2- كذا. و الحبرة: السّرور و التّعمة و كلّ نعمة حسنة.

3- في الأصل: الستر.

4- الإسراء: 19 - 18.

فالعقل عاجز عن وصف عيوبها و ذكر محنها، فليس له إلاّ الإعراض عنها و الاستخفاف بها و رفض أسبابها، فإنّ عاقبتها الفوت و غايتها الموت.

ص: 277

ذكر المحنة

قال الحافظ:

المحنة ما يمتحن به العبد من سلب مالٍ أو موت ولد أو شدة مرض أو حلول زمانة أو فقد أنيس، وغير ذلك ممّا يؤجر عليه ويعوّض عنه، و ذلك لأغراض شتى:

إمّا لتقييد عن الإقدام علي غير الواجب و الوقوع في بليّة.

وإمّا لتطهير من زلل مضت و ذنوب سلفت.

وإمّا لتنبيه من غفلة.

وإمّا لتعظيم نعمة.

وإمّا لتفضيل علي الجنس.

وإمّا لتعويض الأفضل من الحالة الأولى.

وإمّا لزيادة درجة.

وإمّا لتحقيق دعوي، أو لتعريف النفس فرط التّقصير.

قال الله تعالى يعاتب أصحاب المصطفى

صلي الله عليه و آله لما ضجروا تحت أثقال المحن: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم» يقول: أظننتم أن تستحقّوا الثّواب الأعظم و تصلوا إلي الجنة الدائمة و تنزلوا الدّرجات العلي و لم تصبكم شدائد المحن مثل الذي أصاب من تقدّمكم من الأمم السّالفة. ثمّ أبان عنها

ص: 278

بما يكشف عن حقائقها، فقال: «مسّتهم البأساء والصدّراء» والبأساء الفقر، وهو شعار الأحرار: والصدّراء المرضى، وهو محنة الأخيار - و
زلزلوا - يعني وحرّكوا بأنواع البلايا

والمحن «حتّي يقول الرّسول» المبعوث إليهم «والّذين آمنوا معه» بالإخلاص استعجالاً للفرج وانتظاراً له «متي نصر الله» علي سبيل
الاستخبار من الملائكة وهو خطرة خطرت علي قلوبهم حكي الله ذلك عنهم علي سبيل القول، فأوحى الله إلي الرّسل. أو هو كلام مبتدأ
في الكتاب المنزل علي سيّد الرّسل «ألا إنّ نصر الله قريب» (1) لمن صبر علي المحن وقاسي البلايا واستسلم لواردات المشيئة بصدق
اليقين.

وقال يخبر عمّا خطر علي القلوب عند شدّة الامتحان: «حتّي إذا استتيس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يرّد
بأسنا عن القوم المجرمين» (2). يقول: كادت الرّسل أن يياسوا تحت أمواج المحن من إهلاك أعدائهم وتوهم القوم أن الوعد بالتّصر كاذب
وتحقّقت الرّسل التّكذيب منهم، فتحقّق الوعد

و ظهر التّصر ونجّي المؤمنون الممتحنون ولم يتأخّر العقوبة عن المستوجبين للهلاك.

وقال عزّ من قائل: «الم أحسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون» يعني أظنّ النّاس أن يعافوا من البلايا والمحن بعد إظهارهم
دعوي الإيمان ولا يمتحنون بعظيم التّوازل ونائب الحدثان؟! ثمّ بيّن غرض الامتحان فإنّ المحنة لم تزل جارية في الأيام والأزمان، و
قال: «ولقد فتّنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين» (3) يقول: امتحنّا المتقدّمين قبلكم لتبيين الصّادقين وإظهار

ص: 279

1- البقرة: 214.

2- يوسف: 110.

3- العنكبوت: 2.

وقال: «و لنبلونكم حتّي نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلو أخباركم»⁽¹⁾ و لنختبرنكم بشدائد المحن حتّي يتميّز الصادقين في الجهاد منكم و الصابرين علي البلايا و يظهر أخباركم لمن بعدكم و يطّلع علي أسراركم من شاهدكم.

و فيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه و آله أنّه قال: إذا أحبّ الله عبدا ضرب وجهه بالبلايا كما تضرب الغريبة من الإبل عن حياض الماء، فيكون صوته مرحوما في أهل السّماء.

و ذكر عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: إنّ الله إذا أبغض عبدا بعث إليه ملكا فقال: اترفه و صحّحه و ظاهر عليه النعم، فإتّي أبغضه و أبغض صوته و أبغض أن يسألني أو يدعوني. و إذا أحبّ عبدا بعث إليه ملكا فقال: شدّد عليه البلايا و تابع عليه المصيبات فإتّي أحبّه و أحبّ صوته و أحبّ أن يسألني و يدعوني.⁽²⁾

و صحّ في المأثور عنه عليه السلام أنّه قال: إنّ أشدّ البلايا في الدّنيا للأنبيا ثمّ الأمثل فالأمثل حتّي أنّ الرّجل ليبتلي علي حسب دينه، فإن كان في دينه صلب ابتلي علي حسب ذلك و إن كان في دينه رقّة ابتلي علي حسب ذلك.⁽³⁾

و قال أمير المؤمنين عليه السلام: القتل و الفاقة أسرع إلي شيعتي من ركض البراذين.

[و] قال: من أحبّني فليعدّ عدّة للبلاء.⁽⁴⁾

و كان أمير المؤمنين عليه السلام محنة هذه الأمة من وجهين في الدّين و النّسب.

أمّا الدّين، فقد قال رسول الله صلي الله عليه و آله لا يحبّك إلاّ مؤمن و لا يبغضك إلاّ منافق، فلو

ص: 280

1- محمّد صلي الله عليه و آله: 131.

2- راجع كتاب المؤمن: 26 و التّمحيص: 56.

3- راجع سنن ابن ماجه: 2/1334 و سنن التّرمذي: 4/28.

4- راجع مشكاة الأنوار: 506 و التّمحيص: 30.

نثرت الدرّ علي المنافق ما أحبتك، ولو ضربت خيشوم المؤمن ما أبغضك. (1)

وأما النسب، فما رواه ابن عمر عن رسول الله صلي الله عليه وآله أنه قال لعليّ بن أبيطالب عليه السلام يا علي لا يبغضك من الرجال إلاّ دعوي ولا من النساء إلاّ سلقلي (2) ولا من الأعراب إلاّ يهودي ولا من العجم إلاّ سفّاح (3)

وقد قال أبو بكر الصّدّيق لسيدة النّسوان فاطمة بنت رسول الله صلي الله عليها وأبيها وبعلمها وبنيتها: لا يحبّكم إلاّ عظيم السّعادة، ولا يبغضكم إلاّ رديّ الولادة. (4)

فحبّ العترة الطّاهرة محبّة إمامة المرتضي، وحبّ المرتضي محبّة نبوة المصطفي، وحبّ المصطفي محبّة شرائط التوحيد.

وقد قيل: البلوي محنة الدّعوي، فإذا اشتغل العبد بالدّعوي اضطرب عليه المعني لأنّ الدّعوي حجاب المعني.

وذكر عن جنيد بن محمد قال: الدّعوي محنة والمعني راحة. من تفكّر في برّ المعبود هانت عليه خدمته. إذا جاء أمر الله وأمر رسوله فقد خرج من باب التّقويض،

إنّما التّقويض في الإباحات. حسن الظنّ بالله من صنيعه الأبرار. ليس للعارف إلاّ غمّ

واحد، والعالم في شغل شاغل. المرید يعبد علي الرّجاء والعارف علي الرّضا والعالم علي الحياء، وهو في وجع شديد الله أعلم بحاله. كتمان الحاجة من كنوز البرّ

ويورث التّوكّل والقناعة واليقين وأشباه ذلك.

وقيل: جفّت الأقلام بعسر الأحرار، وجرّت المقادير بمحنة الأخيار.

وقيل: المحنة جوهرة الخبرة؛ تظهر الدّفائن وتبرز الكوامن، وتحتها مرآتان: مرآة

ص: 281

1- راجع البحار: 39/280 ونهج البلاغة: 45 من الكلمات القصار وبشارة المصطفي: 153 و 272.

2- السّلقة: المرأة السليطة الفاحشة.

3- راجع علل الشرائع: 1/143 و مناقب آل أبي طالب: 2/102 وشواهد التنزيل: 1/448.

4- راجع البحار: 29/230 و مناقب الخوارزمي: 297.

تُري الجاهل جهله وذلّه وحقارة نفسه، و مرآة تُري العالم تقصير عمله و نسيانه و عيوب نفسه.

و ذكروا عن جنيد بن محمد قال: ثلاثة مقرونة بثلاث: الفتنة مقرونة بالتمني، و المحنة مقرونة بالاختبار، (1) و البلوي مقرونة بالدعوي.

و أصل المحنة عند الحكماء: ورود الشبه به علي الخواطر و وساوس الشيطان و دعوة الهوي و هيجان الشهوات و غلبة الأعداء علي الأولياء دون الأشرار و التباس الآثار و راحة الجاهل و تعب الحكيم و أشكالها ممّا يدانها وصفا و حكما.

و المحنة و البليّة و الامتحان و الابتلاء و الممتحن و المبتلي واحد، و إنّ الله تعالي

جعل تعظيم المصطفى صلي الله عليه و آله [و] التسليم لحكمه و النزول عند أمره دلالة المخلصين و أعلام الصادقين، و آثار المتقين فقال عزّذكره: «إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله» إجلالاً لحقه و إعظاماً لأمره «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوي» يعني أخلص قلوبهم لحقائق ما فيه التقوي و لزوم ما هو شروط الأتقياء «لهم مغفرة» لذنوبهم في الدنيا «و أجر عظيم» (2) في العقبى.

فعلي العبد أن يقابل المحن بالصبر و التسليم حتّي تنقضي أيامها فإنّها إذا أقبلت (3) أعيت الحيل دونها.

و قد قال أمير المؤمنين عليه السلام: لكلّ أمر من الأمور نهاية، فمعالجته قبل نهايته زيادة في المحنة.

و قد قال الصادق سلام الله علي ذكره: الممتحن كالمتوحّل، كلّما ارتاد

ص: 282

1- في الأصل: بالاختيار.

2- الحجرات.

3- في الأصل: انقلبت.

وليس من آثار العقلاء دفع المحن بالحيل الباطلة، فإنّ أسباب القضايا إذا وردت من قاضيتها العادل الحكيم استسلم لها العبد المنيب و فوّض الأمر إليه العالم الأريب [و] خضع لحكمه الفاضل النجيب إيقاناً بالثواب العظيم و طلباً للأجر الكريم و أسوة بالعبد الحكيم و يعتبر بما جري علي الأنبياء و المرسلين و الأوصياء الصديقين لاسيّما علي سيّد الأولين و الآخرين أولاً من موت الأبوين (2) و ابتلائه بالغرابة و تحمّله أثقال التّبوة مع قلة عدده و ضعف شوكته و حبسه في الشّعب و استتاره عن أعدائه و إخفائه الدّعوة التّبويّة أعواماً من وحيه و مفارقتة الأوطان علي كبر سنّه و منابذته

الأقرباء إظهاراً لدينه و مبارزته العظماء إعلاناً لدعوته و تقريبه الفقراء و ترحيبه بالصّدّ عفاءً أسوة بإخوانه من الرّسل و إثارة الأبعدين علي صحبة الأقربين ابتغاءً لرضا

الله و ائتماراً لأمره مع سائر محنه التي لا تحصي بذكره. و ما جري علي [سيّد] الأوصياء من نكث بيعته و بخس حقّه و منع الرّهراء إرث أيها بحضرته و استبداد القوم بآياتهم (3) دون مشورته و قتل ابن ملجم في صلاته. و يتعظ بما أصاب المسموم المرحوم و الشّهيد المظلوم سبطي المصطفي و شبلي المرتضي، و ما امتحن به العترة الطاهرة و الذريّة الهادية من الطرد و التّبعيد و الحبس و التّقييد و الضّرب

و التّشديد (4) و القتل و الصّلب و الحرق و السّبي، و يأبي الله إلاّ أن يظهر دينه و يُعلي كلمته و ينصر أوليائه و يخذل أعداءه، فعن قريب يخلّي الدّار عن الظّالمين و يجعل اللعنة علي الفاسقين، و يورث الأرض عباده الصّالحين، إنّ في هذا لبلاغاً لقوم

ص: 283

1- وفي شرح النهج لابن أبي الحديد: 20/291: الممتحن كالمختق، كلّما ازداد اضطراباً ازداد اختناقاً.

2- في الأصل: أبويه الأبوين.

3- كذا، ولعلّ الصّحيح: بأرائهم.

4- ولعلّ الصّحيح: التشريد.

عابدين، ولله الحجة البالغة علي العالمين، وما عند الله خير للمتقين.

ص: 284

ذکر الدولة

قال الحافظ:

الدولة علي وجهين: دولة الحقّ و دولة الباطل.

فدولة الحقّ غلبة الأبرار علي الفجّار و ظهور العدل و خمود الجور و إحياء السنن و إماتة البدع و عزّ العلماء و ذلّ الجهّال و إقامة الحدود و تنفيذ الأحكام و الأمر

بالمعروف و التّهي عن المنكر.

و في دولة الباطل قهر الأبرار و قوّة الفجّار و إظهار الجور و إطفاء العدل و إماتة السنن و إحياء البدع و تبديل الأحكام و تعطيل الحدود و ذلّ العلماء و عزّ الجهّال و ترك المعروف و ارتكاب المنكر.

و قيل: للباطل صولة، و ليس له دولة.

فالأيّام دول، قال الله تعالي: «و تلك الأيّام نداولها بين النّاس».(1)

و قيل: صاحب الدولة بالغ غايته، فمن ساءه فليصبر.

و قيل: الدّنيا دول، فما كان منها لك أتك علي ضعفك؛ و ما كان منها عليك لم تدفعه بقوّتك و الشّماتة يعقّب.

و قيل: عند اختلاف الدّول تظهر اخطار الرّجال.

ص: 285

1- آل عمران: 140.

واعلم أنّ دولة آل إبراهيم عليه السلام ظهرت بالصدّيق يوسف عليه السلام واستقامت بالكليم عليه السلام وتمّت بسليمان عليه السلام ففي أيامه عزّ بنو إسرائيل واستقامت أسبابهم، ودولة آل المصطفى صلي الله عليه وآله يستقيم بظهور القائم عليه السلام وليس في الأرض دولة أعظم من دولته، فإنّ فيها تصديق التّبوّات وتحقيق الرّسالات وظهور البركات وتمام البشارات

وعلوّ الكلمة الطّيبة وصعود الدّعوة الباقية إلي الملكوت وهلاك الظّالمين وفرح

المؤمنين و سرور المتّقين وعيد المطيعين ونصب أعلام الهدى ونكس أعلام الضّلالة وعقد رايات الحقّ لأربابه وتشريف البيت المعمور وتزيين الحرم المشهور وإظهار النّور المستور وانطلاق السنة الحكمة وافتتاح عيون الاعتبار وكشف شبه القلوب وثبوت أقدام الصّدق وإشراق الأرض بنور العدل وتسليم الأمر إلي أهل الفضل وأمن أرباب النعم وموت إبليس اللعين وانهزام جنود الشياطين وانتهاء دعوة الخليل وكمال شرف الحبيب.

وهيئات لو شاهدته لرأيت أمرا عجيبا وعبدا منيبا وأياما ناضرة ووجوها زاهرة وأنوارا باهرة، عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك وشرف الخلفاء ونور الأوصياء، شبيه المصطفى خلقا وخلقاً وعديلا المرتضى فهما وعلما، عيناه تشبه عيني فاطمة الزّهراء عليها السلام عليه درع رسول الله ومع سرجه وقضيبه ورداؤه وعمامته وعصا موسى وخاتم سليمان عليه السلام يسير أمامه التابوت، والخضر عن يمينه وإلياس عن يساره والمسيح يحارب عنه بأمر ربّه، وجبرئيل يسدّده وميكائيل يؤيّده، ابن سيّد التّبیین وابن سيّد الوصیّین وابن سيّدة نساء العالمين من نسل الأكرمين وفرع

الأطهرين والقائم بأمر ربّ العالمين.

قال الله تعالى: «و لقد كتبنا في الرّبور من بعد الذّكر أنّ الأرض يرثها عبادي

الصّالِحون» (1) يقول: كتبنا في كتاب داود من بعد التّوراة أنّ الأرض يملكها أصحاب القائم، وهم الصّالِحون في الدّين و المشفقون علي المؤمنين.

وإنّه تعالي أوحى إلي داود عليه السلام [يا] داود بي فافرح و بذكرى فتنعم، فعن قريب أحلّي الدار عن الظالمين و أجعل لعنتي علي الفاسقين. (2)

وذلك عند أهل التّحقيق في دولة المهديّ خاتم الخلفاء و بشري الأنبياء عليهم السلام.

ولقد قلت في بعض كلامي: أصل الدّولة استقامة الأسباب و انفتاح الأبواب و قهر الأعداء و نصر الأولياء و وجود المني و مساعدة الأنام (3) بعد جري الأفلام.

و اغتنم دولتك فإنّها رياح تهبّ أيّاما و تسكن أعواما، و ربّما تساعد سخيّفا و تخالف شريفا لا اعتماد عليها و لا ثقة بها، فإنّها عن قريب تزول إمّا بالفوت أو بالموت.

ص: 287

1- الأنبياء: 105.

2- راجع الأمالي للصّدوق: 264 و روضة الواعظين: 461.

3- كذا، ولعلّ الصّحيح: الأيّام.

ذكر الرزق و سببه

قال الحافظ:

الرزق اسم المنافع التي بها بقاء الأشباح وقوة الأرواح، وربما ضاق علي العاقل و اتسع علي الجاهل، وهو في خزائن الغيب يصل إلي العبد كما سبق في التقدير، فالأشباح غذاها وبقاؤها بالمطاعم و المشارب و الأرواح قوتها بالعلوم و الحكم.

وقد قال بعض الحكماء: وجدت الحكمة ربيع الأرواح و الأطعمة ربيع الأشباح، بل الحكمة أسرع في قوة الأرواح من الأطعمة في قوة الأشباح.

وإن الله تعالى ذكر أربعة أشياء في كتابه لا يمكن واحدا من الخلق أن يزيد في ثلاثة منها أو ينقص، وهي الخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة. قال الله عزّ ذكره: «اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ»⁽¹⁾ فلما عجز الخلق عن الزيادة في الثلاث المذكور في الآية فهمّ علي الزيادة في الرابعة، وهو الرزق المقرون بالخلق.

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: لو أنّ إنسانا هرب من رزقه لطلبه رزقه كما يطلبه الموت⁽²⁾.

ص: 288

1- الروم: 40.

2- راجع علل الشرائع: 2/417 و عيون أخبار الرضا عليه السلام: 2/255 و كنز العمال: 1/130.

وقال: الرزق مقسوم مفروغ وهو يأتي ابن آدم علي أي سيرة سارها، ليس بتقوي المتقي بزائد ولا بفجور فاجر بناقص. (1)

وقال الله تعالى: «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله» يعني ضرورة «فقل أفلا تتقون» (2) إضافة الأسباب والأرزاق إلي رزقها ومسببها

ألزمهم الحجّة بما خرج عن قدرتهم (3) وقرن به الرزق وابتدأ بذكره عند التقرير.

وقال عزّ ذكره: «يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو» يعني لا خالق ولا رازق علي الحقيقة إلا هو «فأني توفكون» (4) يعني من أين تصرفون عن باب الخالق وخزائن الرزاق؟

وإنّ الله خلق الخلق للعبادة وضمن أرزاقهم فضيّعوا ما أمرهم به وكلفوا ما وضعه عنهم وعبوا في طلبه جهلاً منهم بالأسباب وشكاً في الأقدار، فقال عزّ من قائل: «وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إنّ الله هو الرزاق ذو القوّة المتين» (5)

وقال تعالى ما فيه كفاية للعقلاء ودلالة للحكماء وتذكرة للبصراء: «وما من دابة في الأرض إلا علي الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها» فمستقرّها في الأرحام ومستودعها في الأصلاب. وقيل: مستقرّها حيث تأوي إليها بالليل، ومستودعها

ص: 289

1- راجع البحار: 26/275 ومستدرك الوسائل: 13/31 وعلل الشرائع: 2/417 وعيون أخبار الرضا عليه السلام: 2/255.

2- يونس: 31.

3- في الأصل: قدرهم.

4- فاطر: 3.

5- الدّاريات: 58.

حيث تموت و تدفن «كلّ في كتاب مبين»(1)

وقال عزّ جلاله ما فيه تسكين القلوب المضطربة: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» يقول: لو أعطوا ما تمنّوا و وجدوا ما أرادوا لطلبوا ما ليس لهم «و لكن ينزل بقدر ما يشاء» في الأوقات علي حسب المصالح «إنّه بعباده خير بصير»(2)

و الرزق علي وجهين: عاجل و آجل .

أمّا العاجل، فالدنيا و أقسامها يشترك فيها البرّ و الفاجر و يأكل فيها المؤمن و الكافر لأنّها أغراض زائلة و أسباب فانية .

و أمّا الآجل، فهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة لا- يجدها إلاّ- المخلصون و لا- ينالها إلاّ المتّقون، قال الله تعالى: «و رزق ربّك خير و أبقي»(3) يعني الجتّة. و قيل: هو القوت الحلال.

فالعاقل اللبيب لا يتعب نفسه في طلب موضوع عنه غير موكول إليه و لا مأمور به و هو في عيبة(4) مسدود بابه لا يقف عليه إلاّ بعد ظهوره.

و قد قال الصّادق عليه السلام: ما أجمل في الطّلب من ركب البحر(5)

و ذكر عن الحسن البصري قال: لا تجاهد الطّلب جهاد المغالب و لا تتكل علي القدر اتكال المستسلم، فإنّ ابتغاء الفضل من السّنّة و الإجمال في الطّلب من العفّة،

فإنّ العفّة ليست بدافعة رزقا و الحرص ليس بجالب فضلاً، و لكنّ الرّزق مقسوم. و في استعمال الحرص اكتساب المآثم، فأرزاق الدنيا لا تجري علي الاستحقاق لكنّها

ص: 290

1- هود: 6.

2- الشّوري: 27.

3- طه: 131.

4- في الأصل: غيبة.

5- الكافي: 5/256 و الفقيه: 1/460.

تجري علي الامتحان، فلربما تري مسعودا في الدّين مكدودا في الرزق، وكثيرا ما تري محدودا في الدين مجدودا في الرزق، وذلك لأنّ الدّنيا قناطر جعلت للعبور وبنيت للامر تحال و دول قرنت بالزّوال، و العاقل لا يركن إليها و لا يطمئنّ بها و لا يطلبها إلاّ من وجهها، فإنّ حلالها و إن قلّ أفضل عنده من الحرام و إن كثر، و لا يهتمّ لرزق غده و لا يضيّع مفروضا في طلبه.

فقد قيل: اهتمامك للرزق يذهلك عن الحقّ و يلجئك إلي الخلق .

و أفضل الأرزاق ما قلّ تعب و خفّ حسابه و أخرج حقّ الله منه إلي العبد عفوا. قال الله تعالى: «و من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب»(1)

و في المأثور عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: أبي الله أن يجعل أرزاق المتّقين إلاّ من حيث لا يحتسبون(2)

و من دعاء الصّالحين في الرّزق: اللهمّ سبّبه لي حلالاً و اكفني مؤونته، و أعني علي أداء شكره.

و سبب الأرزاق قسمة القسّام و جري الأقلام و حكم المشيئة و سبق القضيّة و حضور الوقت.

و كان من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في الرّزق: اللهمّ إنك ابتليتنا في أرزاقنا بسوء الصّبر(3) و في آجالنا بطول الأمل حتّي التمسنا أرزاقنا من عند المرتزقين و طمعنا بأمالنا في أعمار المعمرين، فهب لنا يقينا صادقا تكفينا به مؤونة الطلب و ألهمنا ثقة

خالصة تعفينا به شدة النّصب، و اجعل ما صرّحت به من عدتك في وحيك و أتبعته من قسمك في كتابك قطعاً لا اهتمامنا بالرّزق الّذي تكفّلت به و حسما للاشتغال بما

ص: 291

1- الطلاق: 3.

2- الكافي: 5/83 و الأمالي للطوسي: 300 و عدّة الدّاعي: 84 و قصص الأنبياء للراوندي: 231.

3- في الصّحيفة السّجّادية: بسوء الظنّ.

ضمّنت الكفاية له، فقلت وقولك الأصدق وأقسمت وقسمك ليس إلاّ وفي: «وفي السّماء رزقكم و ماتوعدون فوربّ السّماء والأرض إنّه
لحقّ مثل ما انكم تنطقون».(1)

ص: 292

1- الآية في سورة الذّاريات: 22 والدّعاء هو الدعاء 29 من الصّحيفة السّجّادية مع تلخيص وتفاوت يسير.

ذکر التوکل و التفویض و التسلیم

قال الحافظ:

التوکل دأب الأنبياء و سرائر الأولياء و آثار الأصفياء، به استقام المرید علي باب ربّه و رقي المدارج إلي قرب سيّده و عبر القناطر إلي جوار مولاه و فاز بحظّه في أولاه

و أخراه و ظفر ببغيته في مبدئه و منتهاه.

و التوکل علي وجهين: توکل المؤمنین، و هو عامّ لمن شمل اسم الإيمان. قال الله عزّ ذكره: «و علي الله فليتوکل المؤمنون» (1) و توکل المتوكلين، و هو لمن بلغ التّهایة و شاهد الملكوت و اطلع علي المغيبات. قال الله يحكي قول الرّسل صلوات الله عليهم: «و ما لنا ألاّ نتوکل علي الله و قد هدانا سبلنا و لنصبرنّ علي ما آذيتمونا» بأنواع البليّة «و علي الله فليتوکل المتوكلون» (2)

و فيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه و آله: لو اتّكلتم علي الله حقّ توكله لأكلتم رغدا غير زراعين و لا أشقياء. (3)

و قال بأبي و أمي صلي الله عليه و آله: من توکل و قنع و رضي، كفي الطّلب. (4)

ص: 293

1- آل عمران: 160.

2- إبراهيم: 12.

3- راجع الجامع الصّغير: 2/17 و المعجم الكبير: 8/209.

4- راجع الجعفریات: 424 و مستدرک الوسائل: 15/231 و الدّر المنثور: 6/234.

و اختلفوا في حقيقة التوكل و معناه، فسئل أبو هاشم بن أبي عليّ الجبائي (1) عن التوكل قال: الا يتمار بما أمر و الثقة بما وعد.

و قال جنيد بن محمد: التوكل اعتماد جواهر القلوب علي الله بإزالة الأطماع عمّا سواه.

و سئل بعضهم فقال: استعمال السبب مع ترك الاختيار.

و سألت مشايخ الصوفية عنه، فقالوا: الأخذ عن الله و السكون تحت الحكم.

و أصله عندي ذكر وفاء الصّدّ مان، و هو أن يذكر بقلبه أنّ الله يفي للعبد ما ضمن له من المصلحة طلب أو لم يطلب، عمل أو لم يعمل، ملك أو لم يملك، و ليس للمؤمن أن يتوكل علي ضيعة عامرة أو غلة مشمرة أو كنز مدّخر أو أب شفيق أو صديق حميم أو سلطان قاهر أو غنيّ كريم، فإنّ الأشياء و مالكيها تحت أسباب العجز تهبّ عليهم رياح الفناء [و] تضربهم أمواج البلاء (2) أمّا الأحياء فعقباهم الموت و أمّا الأموال فغايبتها الفوت، فعار للمريدين التوكل علي شيء سوي المعبود الذي بيده مفاتيح الأقدار و خزائن الأرزاق و أسباب القضاء، قال الله تعالي لنبية صلي الله عليه و آله: «و توكل علي الحيّ الذي لا يموت و سبح بحمده» (3) عزّفه بطلان الثقة بمن دونه.

و قال عزّ من قائل: «فإن تولّوا» يقول: فإن عرضوا عن قبول ما جئت به «فقل حسبي الله» يعني ثقني بالله «لا إله إلا هو» يقول: لا معبود علي الاستحقاق و لا مفزع في الثّابّات إلا هو «عليه توكلت» يعني علي حفظه اعتمدت و بفضله وثقت «و هو

ربّ العرش العظيم» (4) ربّ الملك الكبير. فأمره عند إعراض الخلق عنه بالتوكل علي

ص: 294

1- أبو هاشم وأبوه أبو عليّ الجبائيان من أكابر المعتزلة، مات الأب في سنة 303 والابن في 321 للهجرة.

2- في الأصل: البلاء.

3- الفرقان: 58.

4- التوبة: 129.

خالقه و التّقه به و السّكون إليه.

وقيل: حسبك من التّوكل على الله إذا لم تطلب لنفسك نصراً غيره و لا لرزقك خازناً غيره و لا على عملك شاهداً غيره.

وقد أزال الله سلطان الشّياطين عن المتوكّلين و قطع أطماعهم عن المؤمنين فقال: «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا و علي ربّهم يتوكّلون» (1).

و من أشكال التّوكل التّفويض، و هو ترك التّدبير على المدبّر الحكيم.

وقيل: هو التّبّري (2) عن الحول و القوّة و هو ترك الاختيار ليختار الحكيم ما هو أصلح للعبد و أولي به.

وقيل: فوّض الأمر إلى الله تسترح.

وقد دفع الله البلاء عن المفوّض. قال الله يحكي قول العبد الصّالح: «فستذكرون ما أقول لكم و أفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا» (3).

و من فوّض الأمر إلى سيّده و رضي باختياره و سكن مع حكمه، هبّت رياح النّصر عليه، و ألبسه سيّده لباس الوفاء و مدّه بكفاية الأصفياء، و نجا من كدورة اختياره و قطع مفاوز الصّبّر بنور اليقين و أتكى في بستان الرّضا على سرر الدّين، و أبصر بقلبه

ما حُجب عن العالمين و سلّم نفسه و ملكه إلى مالك السّماوات و الأرضين، و لزم بأصمّ الفقر على بساط التّسليم آخذاً بعنان الاضطرار يسبح في بحار الفضل بقوّة المتوكّلين و يرتع في رياض المجد على مراكب العناية، مُستظلاًّ تحت أشجار اللطف، مُبصراً أنوار الإفضال بسرج المفوّضين.

ص: 295

1- التّحل: 99.

2- وفي كلام أمير المؤمنين عليّ صلوات الله عليه: التوكّل التّبّري من الحول والقوّة وانتظار ما يأتي به القدر. انظر عيون الحكم والمواعظ للواسطي: 57.

3- فاطر: 40.

وإذا بلغ هذه الرتبة فقد بلغ أقصى غاية المتوكلين، وهو درجة التسليم مقام الخليل إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه: «أسلم قال أسلمت لرب العالمين»⁽¹⁾ ولما ألقى في النار تمثل له الأمين فعرض عليه النصر، فسلم الكل إلي مبتدع الكل وسلم من محن الاختيار وسخر له النار.

وهو زينة الحبيب لما بلغ القوسين وجاوز الكونين وكشف له أنوار الملكوت فأطلع علي أسباب الجبروت، سلم النفس إلي مبدعها والروح إلي منشئه ورأي بقلبه ما لا عين رأته ولا أذن سمعت ولا لسان وصف ولا خطر علي قلب بشر.

وغاية التسليم معاينة الاضطرار والخروج عن حد الاختيار والنظر إلي النفس بعين الاحتقار ورؤية اللطف في ميدان الافتقار⁽²⁾ والتبري بالسر من أسباب الاقتدار، فهناك يمد بكفاية المتوكلين ونصرة المفوضين وبصائر أهل التسليم لرب العالمين.

ص: 296

1- البقرة: 131.

2- في الأصل: الافتخار.

قال الحافظ:

الإخلاص سبب القبول، و القبول سبب الثواب، و الثواب سبب القربة، و به تقبل الأعمال و تحقّق الآمال، قال الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه»(1) و هو الإخلاص، هكذا روي عن ابن أبي عيينة.(2)

وقال عزّ من قائل: «فمن كان يرجو لقاء ربّه» يعني من خاف المقام في الموقف(3) الأعظم «فليعمل عملاً صالحاً» يعني خالصاً لا يشوبه رياء و لا عجب و لا كبر «و لا يشرك بعبادة ربّه أحداً»(4) يقول: و لا يُرائي بطاعة ربّه أحداً من الخلق.

و ليس للعبد عمل أفضل من الإقرار بوحدانيّة الله و إثبات ربوبيّته و تصديق التّبوءة و تحقيق الرّسالة [و] إذا لم يقرنها الإخلاص كانت مردودة [و] صاحبها في أشدّ

العقوبات و أسفل الدّركات.

قال الله تعالى يصف من خالف باطنه ظاهره: «إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار و لن تجد لهم نصيراً إلاّ الذين تابوا» يعني من الكفر «و أصلحوا» الفاسد من

ص: 297

1- فاطر: 10.

2- راجع تفسير القمي: 2/208 و البحار: 69/64.

3- في الأصل: المواقف.

4- الكهف: 110.

أحوالهم «واعتصموا بالله» يعني تمسّكوا بدين الله بصدق الاعتقاد «وأخلصوا دينهم لله» ختم به الوصف إذ هو أشرف الأعمال «فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً». (1)

وقد أمر الله بالإخلاص في غير موضع. فقال عزّ ذكره: «فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص». (2)

وقال: «قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين». (3)

وقال: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله» يعني ليوحّدوه «مخلصين له الدين» يعني مفردين له الدّعوة «حنفاء» يعني خالصاء مائلين عن الأديان كلّها إلي الإسلام «ويقيموا الصلاة» يعني يديمونها عقداً وقولاً وفعلاً «ويؤتوا الزكاة» يعني يعطونها أربابها بطيبة النّفس «وذلك دين القيمة» (4) يعني الفائزين بالدين المتمسّكين به الثّابتين عليه.

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله أنّه قال لرجل: أخلص دينك لله، يكفك القليل من العمل (5)

وقال فدته نفوس العالمين وعليه سلام المؤمنين: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً

دخل الجنّة. (6)

وروي عن الحسن البصري عن رسول الله

صلي الله عليه وآله قال: من أخلص العبادة لله أربعين

ص: 298

1- النّساء: 146.

2- الزّمر: 2.

3- الزّمر: 11.

4- البيّنة: 5.

5- راجع المستدرک للحاكم: 4/306 والجامع الصّغير: 1/49.

6- راجع المعجم الكبير: 20/48 والكامل لابن عدّي: 3/334 والتوحيد للصدوق: 27.

صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علي لسانه.(1)

وذكر عن ربيع بن أنس: علامة الدّين الإخلاص لله و علامة العلم خشية الله، و علامة حبّ الله كثرة ذكر الله، فإنك لا تحبّ شيئا إلاّ و أكثرت ذكره، و علامة الشّكر التّسليم لله.

و اختلفوا في معني الإخلاص، فقال بعضهم: هو سرّ مجرد في القلب مع الحقّ ياسقاط الخلق.

وقال قوم: هو تمييز العمل من العيوب تمييز اللبن من بين فرث و دم. و قال الله تعالى: «وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه من بين فرث و دم لبنا خالصا سائغا للشاربين»(2). فكما أخرج لهم لبنا ليس فيه لون الدّم و لا رائحة الفرث، أراد منهم عملاً ليس فيه ذكر الخلق و لا إرادة الدّنيا و لا محبة العقبى و لا غبار العجب و لا ظلّمة الكبر و لا كدورة الرّياء و لا دلال الإعجاب.

وقيل: هو الوحشة علي المؤانسة، و هو نسيان الخلق و ما استأنسوا به و ركنوا إليه من الأسباب.

وقيل: هو إرادة البقاء بعمل الخير. قال الله تعالى: «و من أراد الآخرة و سعي لها سعيها» يقول: و عمل لها عملها الآذي يوجبها «و هو مؤمن» يعني مصدّق بثواب الله «فأولئك كان سعيهم مشكورا».(3)

و ضدّ الإخلاص الرّياء و هو إرادة الدّنيا بعمل الخير و التّجاة من عقوبتها(4) و الثّناء من الخلق و طلب رؤيتهم للأعمال الصّالحة دون ذكر الثّواب و إرادة التّجاة من

ص: 299

1- راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام: 1/74 و البحار: 53/326 و الجامع الصّغير: 2/560.

2- النّحل: 66.

3- الإسراء: 19.

4- أي عقوبة الدّنيا.

العقاب(1)قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون علي شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين»(2)

دلّت الآية [علي] أنّ الرّياء يبطل الأعمال، وهو في عدم الانتفاع بعمله كالحجر الصّلب الشّديد الأغبر يغسله الوابل من القطر(3) فيبقي نقيّاً أجرد لا شيء عليه، كذا المرائي يجد بعمله ثناءً حسناً وذكراً جميلاً في دار الفناء ويدركه الموت فيحصل له ندامة الأبد، وبقي في ظلمة القبر معدّباً روحه، متعوباً جسده، محجوباً عن الكرامة ومبشّراً بأنواع العقاب إلي يوم البعث والحساب، فيحشر مع أعداء الله إلي النار الكبرى مخلّداً فيها أنسا من الرّحمة.

هذا صفة من أراد بعمل الخير منافع الدّنيا ورضا الخلق وسلامة البدن في العاجل دون النّجاة في الآجل.

ثمّ قال علي أثر الصّفة الذّميمة للمرائي بعمله: «و مثل الذين ينفقون أموالهم» يعني يبذلون أموالهم «ابتغاء مرضات الله» يعني طلب رضوانه وإرادة ثوابه. وأضاف الأموال إليهم دلالة علي أنّ من أنفق مال غيره في طاعة الله لا يحصل له في

دار البقاء ثواب. وهو ما قال الثّوري: من أنفق الحرام في طاعة الله فهو كمن طهّر ثوبه بالبول، و الثّوب لا يطهّره إلاّ الماء، فكذلك الدّين لا يكفّوه(4) إلاّ الحلال «و تثبّتا من

ص: 300

1- أي عقاب الأخرى.

2- البقرة: 264.

3- المطر.

4- كذا.

أنفسهم» ذكر عن الحسن قال: كانوا يثبتون حيث يضعون صدقاتهم(1) و ذكر عن ابن جريج قال: ما وافق الحق فهو تثبيت. وقيل: تصديقا بجزائه و ثوابه. وقيل: و توطينا من أنفسهم علي طاعة الله في نفقاتهم. وقيل: و إخلاصا من أنفسهم. و كل ما تقدّم من أشكال الإخلاص لأتّها أسباب باطنة.

ثمّ ضرب مثلا لأعمال المخلصين في ارتفاعها عند الله و صعودها إليه و قبولها لديه، فقال: «كمثل جنة بربرة» و هي المكان المرتفع «أصابها وابل» يعني المطر

الشديد «فأتت أكلها ضعفين» يعني فأعطت ثمرتها مرّتين «فإن لم يصبها وابل فطلّ» و هو الرّذاذ(2) من المطر «و الله بما تعملون بصير»(3)

دلّت الآية [علي] أنّ الإخلاص سبب قبول الأعمال و تضعيف الجزاء، و أنّ عمل المخلص لا يضيع في الدّنيا و الآخرة، و الانتفاع به حاصل في الفناء و البقاء.

و قال تعالي ذكره: «و الذين ينفقون أموالهم رياء الناس و لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر» ثمّ أعرض عن الجواب إعظاما للحال، ثمّ ابتداء فقال: «و من يكن الشّيطان له قرينا فساء قرينا» ثمّ استأنف الرّجر عن ذميم الفعل و التّعير علي خبث السّعي و اللوم علي ترك الواجب، فقال: «و ما ذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر» يعني

أيقنوا و صدّقوا «و أنفقوا ممّا رزقهم الله» إرادة الثّواب و التّجاة من العقاب «و كان الله بهم عليما إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة» يعني لا يبطل من أعمال العبد وزن ذرّة، و هي أصغر شئ في الوجود «و إن تك حسنة» يعني خالصة لله من كدر الرّياء و غبار العجب «يضاعفها» يعني يزيدها ذكرا و اسما و ثوابا «و يؤت من لدنه أجرا

ص: 301

1- راجع التبيان للطوسي: 2/338.

2- أي الضّعيف.

3- البقرة: 265.

وقد نهى الله تعالى عن الأسوة بالمرائين، فقال: (و لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا و رثاء الناس و يصدّون عن سبيل الله و الله بما يعملون محيط)»(2)

ثم كشف عن ذميمة عاقبة المرائي و ما يحلّ به من التّدّم، فقال: «من كان يريد

الحياة الدّنيا و زينتها» يقول: بعمله الذي فرضنا عليه «نوفّ إليهم أعمالهم فيها» يعني نعبّجّلهم ما طلبوا و نوصل إليهم ما أرادوا بأعمالهم «و هم فيها» يعني في الدّنيا

«لا يخسون» يعني لا ينقصون به مطلوبهم. و قيل: لا ينقص عقوبتهم في الآخرة، ثمّ صرّح البيان فقال: «أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار» علي خبث سرائرهم و فساد ضمائرهم «و حبط ما صنعوا فيها» و هو عدم الانتفاع بما عملوا في دار الدّنيا إرادة الثّناء «و باطل ما كانوا يعملون»(3)

و قال في صفة المنافقين: «إنّ المنافقين يخادعون الله» باظهار مالم يضمروا (و هو خادعهم) يعني مجازيهم علي الخداع «و إذا قاموا إلي الصلاة» يقومون إليها

بأبدانهم دون إقامتها بقلوبهم «قاموا كسالي» يعني متثاقلين غير معتقدين لها بالقلوب «يراؤون الناس» يظهار الخيرات «و لا يذكرون الله إلاّ قليلاً»(4).

ذكر عن ابن عبّاس رحمه الله قال: لو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا(5)

و قال عزّ من قائل: «فويل للمصلّين الذين عن هم صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون»(6) و الويل هو الشّدّة من العذاب مُعدّة لأهل السّهو و الرّء.

ص: 302

1- النّساء: 40 - 39.

2- الأنفال: 47.

3- هود: 15 - 14.

4- النّساء: 142.

5- انظر زاد المسير لابن الجوزي: 2/210.

6- الماعون: 4 - 3.

وفي المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الشِّرك أخفي في أمّتي من ديبب النملة السوداء علي الصخرة الصماء في الليلة الظلماء (1)

أراد بالشِّرك الرياء لأنّه يشرك في الإرادة. قال الله تعالى: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (2)

قيل: في الإرادة. وفيما يؤثر عنه عليه السلام قال: من صلّى رءً فقد أشرك، و من صام رءً فقد أشرك، و من تصدّق رءً فقد أشرك (3)

وقال عليه السلام: إن يسير الرء شرك. (4)

وقال بأبي وأمّي صلى الله عليه وآله: ويل للصائم، ويل للقائم، ويل لصاحب الصّوف. قيل يا رسول الله، إلا من؟ قال: إلا من تنزّه عن الدنيا وأبغض المحمّدة واستحبّ المذمّمة. (5)

وقال فدته نفوس العالمين، عليه صلوات المؤمنين: من أجاع بطنه ولبس الصوف واستطال بذلك علي من دونه، برئت منه يوم القيامة و يلجأ إلي أمّتي

و من أشكال الرياء العجب، و هو رؤية العمل من التّفنّس أو من الخلق أو من الشّيء مع نسيان المنة.

وقيل: هو استكبار العمل مع نسيان التّعمة.

و عن المسيح عليه السلام قال: كم من سراج أطفأها الرّيح، و كم من عالم أفسده العجب. (6)

و ذكر عن الصادق عليه السلام قال: القصد إلي الله بالقلوب أفضل من القصد إليه بالأبدان،

ص: 303

1- راجع تحف العقول: 487 و الجامع الصّغير: 2/85.

2- يوسف: 106.

3- راجع تفسير العيّاشي: 2/352 و عدّة الدّاعي: 203 و مستدرک الحاكم: 4/329 و مسند أحمد: 4/126.

4- راجع نهج البلاغة الخطبة 86 و تحف العقول: 151 و سنن ابن ماجة: 2/1321.

5- راجع جامع السّعادات: 2/284.

6- راجع عدّة الدّاعي: 223.

و حركات القلوب أبلغ من حركات الأعمال.(1)

وقيل: دوام الفقر إلى الله مع التخليط أفضل من دوام الطاعة مع العجب.

وقال بعض المريدين: ذنب أفتقر به إليه أحب إلي من طاعة أفتخر بها عليه.

وقال عبدالواحد بن زيد(2): كان الحسن(3) يجلس للناس في علم الظاهر فإذا خلا بأصحابه قال: هاتوا انشر النور النظر(4) في فساد الأعمال.

وقيل: الإبقاء(5) على العمل أشد من العمل(6) وكيف يقلّ عمل مقبول.

فعليك بإخلاص الأعمال و تصفيتها من الرياء و تبعيدها من العجب و الاستقامة عليها بالصفاء و تسليمها إلى الله بالفقر و طلب ثوابها من الله باليقين، فإن الله يجزي العبد بما سعي، إن أحسن فله الحسني وإن أساء فله السوءي، و ما عنده أفضل و أبقي، و هو الملك الأعلى.

ص: 304

1- مشكاة الأنوار: 448.

2- جاء بعض كلامه وقصصه في الرسالة القشيرية وكان يعيش في القرن الثالث أو الرابع.

3- أي الحسن البصري.

4- كذا في الأصل.

5- الإبقاء.

6- انظر ربيع الأبرار للزمخشري [باب الصبر والاستقامة] وعزاه إلي محمد بن واسع.

ذکر الزهد و الرغبة و صفة الزاهد و الراغب

قال الحافظ:

الزهد كراهية وجود الدنيا و ثقلها علي قلب العبد، و ضده الرغبة، و هي الميل إلي الدنيا و حلاوتها في قلب العبد. قال الله تعالى يصف يوسف، و إخوته: «و شروه بثمن بخس» يعني و باعوه بثمن طفيف ناقص القيمة «دراهم معدودة» غير موزونة «و كانوا فيه من الزاهدين»⁽¹⁾ يقال: زهد في الشيء: إذا رغب عنه. و ذلك إعراضهم عنه بالقلب و كراهية كونه عند أبيه.

و قال ابن أبي الحواري⁽²⁾: قلت لعبد الملك الشامي: أي شيء الزهد في الدنيا؟ قال: خلع الراحة و بذل المجهود و قطع الآمال و صدق الكلام و الهرب من العز.

و قيل: هو ترك الدنيا و التهاون بأسبابها و إثثار شوائبها و إرادة الخروج منها إلي دار الكرامة و محلّ التعمّة.

و الزهد علي ثلاثة أوجه: زهد في المحرّمات و هو مقام التائبين، و زهد في المكروهات بعد المحرّمات و هو منازل المتّقين، و زهد في الإباحات و هو درجة

ص: 305

1- يوسف: 20.

2- أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري من أهل دمشق مات سنة 230 للهجرة، و كانت زوجته «رائعة» في الزهد و العبادة مثل رابعة العدوية، بل أبلغ.

قال: وللزّاهد علامات: الاكتفاء بالقوت، وترك الفضول، والتّنزّه عن الشّهوات، وإيثار القناعة، وسخاوة النّفس، والشّفقة علي الخلق، و إدمان الدّكر، وفراغة العبادة، ولزوم الخلوة، والهرب من النّاس، وحبّ الحكمة، وصحبة الحكماء، وطلب العلم، وتوقير العلماء، و رياضة النّفس، وقصر الأمل، وأشكال ذلك من آثار الصّالحين وأخلاق المتّقين.

وقيل: الزّاهد قوته ما وجد، و مسكنه حيث أدرك، و لباسه ما ستر. الدّنيا سجنه و الفقر محبته(1) زعموا أنّ من أحبّ عليًا ظلّ للفقر لابسًا جلبابًا كذبوا كم أحبّه من فقير فتحلّي من الغني أثوابًا حرّفوا منطق الوصيّ بمعنيّ خالفوا إذ تأوّلوه الصوابًا ثمّ قولهُ ارفضوا عنكم أدن - يا إذا كنتم لنا أحبّابا و الخلوة مجلسه و الشّيطان عدوّه و القرآن حديثه و الله أنيسه و الدّكر رفيقه و الجوع إدامه و البكاء نديمه و العبادة حرفته و الحكمة آتته و العلم كنزه و العقل حرزه و الوجل شعاره و الحزن دثاره و الوفاء سيرته و الصّفاء سريره و الحقّ

شريعته و الصّدق طبيعته و التّقوي زاده و الهدى مراده و العبرة ظاهره و الفكرة باطنه

و اليقين قوته و الإخلاص حجّته و الصّبر مركبه و القناعة سرجه و الخوف لجامه و الحياء ركابه و الشّكر زينته و الرّضا نزهته و الجود منيته و التّوكّل تاجه و التّقويض

منهاجه و التّوفيق قائده و التّسديد سائقه و الدّنيا مفقوده و العقبي موجوده و الثّواب

مقصوده و الله معبوده، و طويبي له و حسن مآب.

و للزّاغب علامات: طلب الرّئاسة و اتّباع الهوي و ركوب الشّهوات و الطّمع في

ص: 306

1- كذا في الأصل، ولعلّ الصحيح: والفقر جلبابه. وفي الحديث: من أحبّنا أهل البيت فليعدّ للفقر جلبابا. أي يتخذ قميصا للفقر إلي الله سبحانه و تعالي. نقول: ينبغي هنا أن نذكر أبياتا للشاعر الفحل الشيعي كشاجم المتوفّي عام 360 للهجرة:

الخلق وحبّ الغني و صحبة الأغنياء و عمارة الدّنيا و جمع المال و طول الأمل و نسيان الأجل و اختيار الرّاحة و الغفلة عن العواقب و حفظ الرّسوم و رفض السنن و الطّغيان في النّعمة و الرّكون إلى الظّلمة و كثرة الأكل و كثرة الضّحك و كثرة النّوم

و التّكبر علي الفقراء و التّواضع لأبناء الدّنيا، و أشباه ذلك من آثار الجبارة.

وقيل: الرّاهد في الدّنيا نظره بالعبرة و سعيه بالتّقويض و نفقته بالافتصاد و نيّته العدّة و غمّه من وفاء النّعمة و طول المحاسبة.

و الرّاغب في الدّنيا نظره بالشّهوة و سعيه بالطّمع و نيّته التّمتمّع و نفقته بالتّبذير

و غمّه من فوت (1) النّهمة.

وقيل: الرّهد في الدّنيا يريح القلب و البدن، و الرّغبة فيها تكثر الهمّ و الحزن (2)

وقيل: الرّاهد يأكل بغير طمع و يعيش بغير أمل و يملك بغير جند و يعرف بغير عطية و يعبد بغير رياء و يموت بغير حسرة و يقوم بغير ندامة و يدخل الجنّة بغير حساب.

و ذكر عن شقيق بن إبراهيم (3): قال: مسكين صاحب الدّنيا، يجمع بالحرص و يمنع بالشكّ و ينفق بالرّياء و يتكلّم بالعداوة و يموت بالحسرة و يقوم بالنّدامة و يتعلّق

بالحساب يوم القيامة.

و ذكر عن إبراهيم بن الأدهم: قال: أقرب الرّهّاد من الله أشدهم له خوفاً، و أحبّ الرّهّاد إلى الله أحسنهم له عملاً، و أكرم الرّهّاد علي الله أتقاهم له، و أفضل الرّهّاد عند الله نصيباً أعظمهم فيما عنده رغبة، و أتمّ الرّهّاد زهداً أسخاهم نفساً و أسلمهم صدراً، و أكمل الرّهّاد زهداً أكثرهم يقيناً.

ص: 307

1- في الأصل: فوق.

2- أورده الراغب في محاضرات لأدباء [باب راحة القنع و عزّته] و عزّاه إلى الرسول الأكرم صلي الله عليه و آله.

3- أبو عليّ شقيق بن إبراهيم البلخي، من مشاهير الصوفية و كان معاصراً للمأمون العباسي.

وروي الجريري عن أبينصرة عن أبيسعيد الخدري قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم علي أصحابه، فقال: هل منكم من يريد أن يعطيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية؟ هل منكم من يريد أن يذهب عنه العمي ويجعله بصيرا؟ ألا إنّه من زهد في الدنيا و قصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية. ألا إنّه من رغب في الدنيا و طال فيها أمله أعمي الله قلبه علي قدر ذلك. ألا إنّه سيكون

بعدكم زمان لا يصلح فيه الملك إلا بالقتل و التّجبر، و لا يصلح فيه الغني إلا بالبخل،

و لا يصلح فيه المحبّة إلا بالاجتراح في أمر الدّين و اتّباع الهوي، فمن أدرك منكم

ذلك الزّمان فصبر علي الذلّ و هو يقدر علي العزّ و صبر علي الفقر و هو يقدر علي الغني و صبر علي البغضة و هو يقدر علي المحبّة لا يريد بذلك إلا وجه الله، أثابه الله ثواب سبعين صديقا. (1)

وللّزاهد مقامات و أحوال و درجات و أوصاف و علامات لو استقصيناها لطال الكتاب، و فيما ذكرنا كفاية لأولي الألباب و الله الموفّق للصّواب.

ص: 308

1- راجع تحف العقول: 60 و الدرّ المنثور: 1/67 و كنز العمّال: 3/209. و رواه الإمام المشرشد بالله الجرجاني في أماليه [باب ذمّ الاقتصار علي الدنيا و جمع المال] عن عبد الكريم بن عبدالواحد الحّسن أباضي.

ذکر الرضا و السخط

قال الحافظ:

إنَّ الله تعالى أوجب الرضا بقضائه لأنَّه عادل لا يظلم مثقال ذرَّة ولا يرضي لعباده الجور، بل يكرهه و ينهي عنه. قال الله تعالى: «إنَّ الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذيالقربي و ينهي عن الفحشاء و المنكر و البغي يعظكم لعلَّكم تذكرون» (1).

فإذا كان القاضي عادلاً و الأمر حكيماً و الداعي صادقاً، و جب الرضا بحكمه و التسليم لأمره فعل الخليل و الذبيح عليهما السلام. قال الله تعالى يصف حالهما: «فلما أسلما

و تلَّه للجبين» (2) لَمَّا حصل التسليم ظهر التعظيم بالتداء من أستار الغيب فوق أثقال المحن بتصديق الرؤيا و ظهور الفداء و تمام البشارات بأنواع الكرامات، و هو تحقَّق قول السلف رحمة الله عليهم: من رضي بالقضاء نال أفضل المنى.

و أجلِّ ممَّا قالوا قول المصطفى عليه صلوات ربِّ السَّماء: من سعادة ابن آدم استخارة الله، و من سعادة المرء رضاه بما قضى الله. (3)

و الرضا علي وجه:

منها الرضا بالله واحدا معبودا و سيِّدا مقصودا و إليها قريبا و ملكا باقيا، و هو أجلّ

ص: 309

1- التَّحَلُّ: 90.

2- الصَّافَات: 103.

3- كنز العمال: 7/814 و راجع تحف العقول: 55 و مسند أحمد: 1/168.

مراتب الرضا، وقد عدل قوم عنه مثل المعطلة وزنادقة الدهرية و الثنوية الجائرة و سفهاء المنجمة و ضلال المتفلسفة و أصحاب الطباع، فاستوجبوا اللعنة و الحرمان و استحقوا العقوبة و الخسران.

و منها الرضا بملائكته سفارة و أمانة، و قد مال أرجاس اليهود عن الأمين جبرئيل عليه السلامو أظهروا العداوة معه. قال الله تعالى: «قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله علي قلبك بإذن الله»(1) فالعداوة مع المنزل لا مع المنزل، فإن الأمين لم ينزل إلا بأمر ربه و إذن خالقه و منشئه.

و منها الرضا بالرسل صلوات الله عليهم مبلّغين أمناء، مترجمين سفراء، مُصطفين أنبياء، فقد أنكر قوم من الهنود أصل النبوات و لم يستحسنوا بعثة الرسل من البريات

و رضوا بعقولهم و اكتفوا بأرائهم جهلاً منهم بمنازل الأكرمين و مقامات الأطهرين أمناء رب العالمين.

و منها الرضا برسالة سيّد الأنبياء نهاية و ختما، مقدّما علي الرسل مفضلاً علي البشر مسوداً علي الملائكة، فقد عدل عنه المجوس الأرجاس و اليهود الأنجاس و النصاري الأدناس و سفهاء العرب و جهال العجم بغيا و حسدا و جهلاً و شكاً و كفراً و اعتداءً.

و منها الرضا بشريعته مثلاً و منهاجا، فقد خالفه قوم باختيار الرسوم و العادات عدولاً عن الحقّ و اتّباعا للباطل.

و منها الرضا بالقرآن إماما و حجّة، فقد آثر أقوام [عليه] و استحقوا(2) به حيرة و ضلالة.

ص: 310

1- البقرة: 97.

2- أو: واستخفوا.

و منها الرضا بالكعبة قبله و وجهة فقد آثر أقوام عليها و ما لوا عنها إنكارا و معاندة.

و منها الرضا بسيد الأوصياء إماما و خليفة، فقد ناصبه أقوام بغضا و نفاقا و حقدا و شقاقا و جهلاً و عنادا و كبرا و فسادا.

و منها الرضا بعتره المصطفى سادة و أئمة و قادة و أئمة، فقد استبدل بهم أقوام و اختار عليهم طائفة نصبا و إزجاءً و ظلما و اعتداءً.

و منها الرضا بالمؤمنين إخوانا و أعوانا و أولياء و أحبباء ألفة و شفقة و رحمة و رافة، فقد عاداهم جهال و نابذهم ردال جهلاً و سفهاً.

و منها الرضا بالجنة دارا و منزلاً و ملكا و نعمة، فقد رضي بالدنيا أناس حرصا و رغبة و ميلاً و شهوة.

و فيما يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه و آله: من رضي بالله رباً و بالإسلام ديناً و بمحمد نبياً، دخل الجنة. (1)

و ما رتبته في وجوه الرضا فهو قول عامة المسلمين و كافة المؤمنين: رضيت بالله رباً، و بالإسلام ديناً، و بمحمد نبياً، و بعلي، ولياً، و بالقرآن إماماً، و بالكعبة قبله، و بالمؤمنين إخواناً، و بالجنة منزلاً (2) و هذه كلمات مأثورة عن الرسول صلى الله عليه و آله و الأئمة سلام الله علي ذكرهم، و صالح السلف رحمة الله عليهم، و علي هذا إجماع الأمة العادلة.

و أصل الرضا هو السكون عند ورود الحكم، و التسليم عند نزول القضاء. و ضده السخط، و هو كره النفس عند واردات الحكم، و الفرار من التسليم لأحكام المشيئة،

ص: 311

1- صحيح مسلم: 6/37 و سنن النسائي: 6/19 و سنن البيهقي 9/158.

2- راجع تهذيب الأحكام: 2/109 و الإقبال لابن طاوس: 2/138.

و مكابرة المقذور و الاختيار عليه بالعمي و الحيرة، و هذا سبيل من جهل العدل في القضية و عدل عن اختيار خالق البرية و لم يوقن (1) بسبق العلم و نفاذ المشيئة، و من سلك هذا لم يزل في العمي و البلية.

وقيل: ليس شيئاً روح للبدن من الرضا بالقضاء و الثقة بالقسم.

و قال عبدالواحد بن زيد: (2) الرضا بالقضاء باب الله الأعظم و جنة الدنيا و مستراح العابدين.

و من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في الاستخارة و الرضا بالحكم: اللهم اقض لنا

بالخيرة و ألهمنا معرفة الاختيار و اجعل ذلك ذريعة إلي الرضا بما قضيت و التسليم لما حكمت، و أزح عتاريب أهل الارتباب و أيدنا بيقين المخلصين و لا تسمنا عجز المعرفة عما تخيرت فنغمط (3) قدرك و نكره موضع قضيتك و نجح إلي التي هي أبعد من حسن العاقبة و أقرب من ضد العافية. حبب إلينا ما نكره من قضائك و سهّل علينا ما نستصعب من حكمك و ألهمنا الانقياد لما أوردته علينا من مشيئتك فلا نكره ما أحببت و لا نتخير ما كرهت، و اختم لنا بالتي هي أحمد عاقبة و أكرم مصيراً، إنك تقيد الكريمة و تعطي الجسيمة و تفعل ما تريد. (4)

ص: 312

1- في الأصل: ولم يوقر.

2- عبدالواحد بن زيد الزاهد البصري: شيخ الصوفية بالبصرة، قال ابن حبان: كان ممن غلب عليه العبادة حتى عقل عن الإتيان فكثرت المناكير، توفي سنة 177 للهجرة.

3- الغمط: الاستهانة والاتسحاق.

4- هذا هو الدعاء 33 من الصحيفة السجادية مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، وانظر فتح الأبواب لابن طائوس 197.

ذکر الشکر و الکفران

قال الحافظ:

إِنَّ اللَّهَ نَدِبَ عِبَادَهُ إِلَى الشُّكْرِ وَ دَلَّهَمَ عَلَيْهِ وَ أَمْرَهُمْ بِهِ، فَقَالَ عَزَّ ذِكْرُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».(1)

وقال: «فكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».(2)

و عبّر عن أفضل الأعمال بالشُّكر - وَ هو التَّوْحِيدُ - وَ قال: «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَ لا يَرْضِي لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ».(3)

وَ ذَكَرَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ مَا أَمْرَهُ بِهِ مِنَ الشُّكْرِ، فَقَالَ: «وَ لَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ» يَعْنِي تَرَكَ الشُّكْرَ «فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».(4)

وَ قال - يَذْكَرُ قَوْلَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ السَّرِيرُ - : قال «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ».

ص: 313

1- البقرة: 172.

2- النحل: 114.

3- الزمر: 7.

4- لقمان: 12.

وإنَّ الله أرسل الرِّيح مَبْشَرَاتٍ وَأَذَاقٍ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَجْرِي الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ إِصْلَاحًا لِأَمْرِ الْمَعَاشِ وَاتِّصَالًا إِلَيَّ أَسْبَابَ الْمَعَادِ طَلِبًا لِلشُّكْرِ، فَقَالَ: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مَبْشَرَاتٍ» يَعْنِي بِالْمَطَرِ وَالتَّنَصُّرِ «وَلِيَذِيْقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ» بِإِنزَالِ الْغَيْثِ

وَ تَطْيِيبِ الْهَوَاءِ وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِالتَّنْبَاتِ «وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ» يَعْنِي السَّنْفَنَ

الْمَشْحُونَةَ بِالأَثْقَالِ فِي الْبَحْرِ الرَّآخِرِ عَلَيَّ ظَهَرَ الْمَاءِ «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» يَعْنِي لِتَطْلُبُوا مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعِبَادِ وَ عِمَارَةُ الْبِلَادِ. ثُمَّ بَيَّنَّ الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ وَ خَتَمَ بِهِ قَوْلَهُ:

«وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».(1)

وَقَالَ اللهُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: أَنَا وَالْجَنَّةُ وَالْإِنْسُ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ؛ أَخْلَقْتُ وَيَعْبُدُ غَيْرِي وَأَرْزُقُ وَيَشْكُرُ غَيْرِي!

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْبِيَائِهِ مَعَاتِبًا لِابْنِ آدَمَ: جِنَا أَسْنَانَكَ مِنْ نِعْمَائِي، وَكَلَّ لِسَانَكَ مِنْ شِكْوَائِي.

وَ ذَكَرَ عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَ: التَّعَمُّ وَحَشِيَّةٌ فَاشْكُلُوهَا(2) بِالشُّكْرِ.(3)

وَ قِيلَ: الشُّكْرُ تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ وَ مَكْسَبَةٌ فَاضِلَةٌ، وَ مِفْتَاحٌ لِخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ وَ بَابٌ لِمَزِيدِ كِرَامَتِهِ.

وَ قِيلَ: اسْتَوْثَقُوا مِنْ عُرِي النَّعْمَةِ بِالشُّكْرِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّعْمِ حَارِسًا وَ لِلْحَقِّ مُؤَدِّيًا وَ لِلْمَزِيدِ سَبَبًا.

وَ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ:

فَذَكَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: الشُّكْرُ هُوَ الطَّاعَةُ بِجَمِيعِ الْجَوَارِحِ لِرَبِّ الْخَلَائِقِ فِي السِّرِّ وَ الْعِلَانِيَةِ.

ص: 314

1- الرُّوم: 46.

2- شَكَلَ الدَّابَّةَ بِالشُّكَالِ: شَدَّ قَوَائِمَهَا بِهِ. وَ الشُّكَالُ حَبْلٌ تَشَدُّ بِهِ قَوَائِمُ الدَّابَّةِ.

3- رَاجِعْ تَحْفَ الْعُقُولِ: 448 وَ شَرَحْ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: 20/312.

وقيل: الشكر ثلاثة أقسام: رؤية القلب و حمد اللسان و إنصاف البدن.

وقيل: الشكر هو استقامة العبد علي طاعة الله بالوفاء و الصدق علي منهاج الحجّة و سبيل القرآن و اتّباع الرّسول.

وقيل: شكر النّعم ذكرها يعني ابتداءً من الله دون الأسباب التي أنعم الله بها علي

الخلق مثل الأفلاك و الكواكب و العناصر و الأوقات و الرّسل. قال الله تعالى: (يعرفون نعمة الله ثمّ ينكرونها و أكثرهم الكافرون) (1) و إنكارهم إيّاها إضافتهم إلي الأسباب دون مسببها.

وقيل: الشكر معرفة و أبلغ الشكر غلبة (2) الاعتراف بالعجز علي قضاء الحقّ.

وقيل: الشكر إجابة الدّعوة و حصن النّعمة و ثمن الزّيادة.

و أصل الشكر الزّيادة في الخدمة حسب المزيد في النّعمة.

و الشّكور من أسماء الله الذي يزيد قليل العبادة لعبده فيجعل الحسنه الواحدة بعشر أمثالها. قال الله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» (3) في الكرامة.

و منه قول العرب: ناقة شكور: إذا كانت كثيرة اللبن. و منه شكير الشّجر، و هو ما نبت في أصله من القضببان الصّغار. و قولهم: دابة شكور: إذا كانت كثيرة العلف.

و الشّكر علي وجهين: شكر النّعمة و شكر المنعم و هو أولي و أحقّ؛ لأنّه سبب النّعم و مبدؤها، و منه الإكمال و عليه الإتمام.

و ضدّ الشّكر الكفر، و هو علي وجهين: كفر بالنّعمة و كفر بالمنعم، و كفر النّعمة كتمانها بالبطر فيها و إظهار المعاصي بفوتها (4)، و كفر المنعم كتمان حقوقه بالتّضييع

ص: 315

1- النّحل: 83.

2- في الأصل: عليه.

3- إبراهيم: 7.

4- ولعلّها: بقوتها.

و كتمان أدلته بالشبه الشيطانية.

وأصل الكفر التغطية، وهو قولهم: كفرت القدر والبذر: إذا ستره وغطاه. ومنه سمي الكافر [كافرا] لأنه ستر ما أنعم الله عليه بما أظهر من الطغيان. وقولهم: ليلة كافرة، أي ساترة بظلمتها كل شيء وقولهم: رجل مكفر في السلاح، أي مقتنع فيه. ويسمي القرية كفرا لأن فيها تستر الحقوق، أي تكتم بالتضييع، وهو قول المصطفى صلي الله عليه وآله: لا تسانوا الكفور فإن ساكن الكفور كساكن القبور. (1)

وقيل: كفر النعمة إجابة العدو وسبب الزوال وحرمان الزيادة.

واللغة تفرق بين الحمد والشكر، فذكر القتيبي أن الحمد هو الشاء، والشكر هو الشاء عليه بنعمته وإحسانه.

وقيل: الشكر ذكرك أحدا بإحسان أولا كه، والحمد ذكرك لأحد بمنقبة فيه.

وأتفق العقلاء علي إيجاب شكر المنعم، ويعبر عن الحمد بالشكر لأن الحمد أحد فروعها. ألا تري ابن عباس رضي الله عنه قال في معني قوله «الحمد لله»: هو الشكر لله بأن صنع إلي خلقه.

وقيل: الشكر فريضة، والحمد نافلة.

و ضد الحمد الذم، وهو الشكوي عند مقاساة البلاء.

وقيل: المعرفة شكر، والحمد زيادة.

وقيل: تمام شكر الشاكر دوام ذكر الذاكر، و الشاكر يزرع النعم، و الكافر يزرع النقم.

وقيل: من شكر المنعم الكريم [أن] لا تستخفوا (2) بالآلاء و النعم.

وقال أبو يزيد البسطامي: ما أتاني نعمة من الله إلا وشكرت فضله الأول في سابق

ص: 316

1- راجع الأدب المفرد للبخاري: 127 و الجامع الصغير: 2/737.

2- في الأصل: لا يستحقوا.

علمه قبل أن خلقتني، و ما حضرتني نية عمل إلا و قلت: عسي يوافق عملي وقت عمل الأبرار فينظر الله إليه بالرحمة فيلحقني بركته.

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: أما إن ربك يحب الحمد، فأكثر الحمد لله.

وقال بأبي و أمي عليه السلام: أفضل الذكر لا إله إلا الله، و أفضل الدعاء الحمد لله.

و بلغنا - و الله أعلم - أن داود صلي الله عليه قال ذات يوم: اللهم لك الحمد كما

تحب أن تحمد. فأوحى الله إليه: أتعبت الكرام الكاتبين.

و الله المحمود و له الحمد علي العبد ما دار فلك و سبح ملك أو تضرع منيب أو تفكر لبيب، قال الله تعالي: «فلله الحمد رب السموات و رب الأرض رب العالمين و له الكبرياء» يعني الشرف «في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم». (1)

ص: 317

1- الجاثية: 27.

قال الحافظ:

القناعة سبب الحرمة، وهي أكبر الغني وأطيب العيش وألذ الأحوال وأوطأ المراكب وأجلّ المراتب. قال الله تعالى: «من عمل صالحاً» يعني خالصاً «من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة» قيل: القناعة في الرزق والحلاوة في العبادة «ولنجزيّنهم» يعني المؤمنين المخلصين المقنعين «أجرهم» يعني ثوابهم (بأحسن ما كانوا يعملون). (1)

وحدّ القناعة علي لسان العامّ: الاكتفاء بالموجود. وله مراتب:

فأولّها: الاكتفاء بالقوت، وهو حدّ العلماء والعبياد وأرباب الصّدياع والغلات والتّجار والصّناع، وقوت كلّ طبقة إلي وقت حصول منتظرهم الذي يعتمدونه في أبواب الأقوات.

والثّانية: الاكتفاء بالبلغة، وهي ما تبلغك إلي أداء ما أمرت به ويعينك علي القيام

بما كلّفته، وهو حدّ الرّهّاد.

والثّالثة: الاكتفاء بالكفاف، وهو ما يكفي في الوقت ويسدّ خلل الحال، وهو حدّ الصّدّيقين والأولياء.

ص: 318

و الزبابة: الاكتفاء بالله و التلذذ بذكره، و هو مقام العرفاء المحببين و منازل الأصفياء الأطهرين و درجات الأنبياء و المرسلين، و هو أعلي مراتب القناعة.

و لا يقنع العبد إلا بعد رؤية العدل النظر(1) في القسمة و الرضا بالحكم و التسليم للأمر و صدق التوكل و التفويض إلى الله و السكون معه بالقلب و الاستيناس به.

وقيل: القناعة تورث الحرّية، و الحرص يورث العبودية.

وقال: [علي بن] عبدة الطفي(2): القناعة نعمة جسيمة و رزق واسع و حصن حصين و ألفة دائمة و راحة عظيمة و عيش صاف و دعة البدن و عزّ النفس و صيانة للعرض و حياة طيبة و سلامة و عافية. فإن وفق صاحبها للصواب في التمييز و اختيار ما يستحقّ به الاصطفاء، صفا من درن الشكوك و عصمه الله، و الله لا يحبّ كلّ مختال

فخور.(3)

وقيل: أروح الروح القناعة، و هي أقصى رتبة الفقير كما أنّ أقصى رتبة الغني الشكر.

و لا يسلم العبد من آفات الدنيا إلا بإيثار القناعة و التمسك بحبل اليقين و الاستضاءة بنور العلم و التّقّع بجلباب الحياء و الاستتار بثوب الصبر، فقد قيل: من استغني بالدنيا عن الدنيا كان كمطفئ النار بالتبن.

وفيما يؤثر عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: طوبى لمن هدي إلى الإسلام، و كان عيشه كفافا و قنع.(4)

و ضدّ القناعة الحرص، و هو فضول الشهوات و اشتطاط الأمانى و أدني المطامع

ص: 319

1- كذا.

2- في الأصل: اللطغي، و هو تصحيف.

3- نقله الجاحظ في كتاب الأمل و المأمول [باب القناعة] وعزاه إلى علي بن عبدة.

4- راجع الكافي: 2/140 و مستدرک الوسائل: 15/231 و مسند أحمد: 6/19.

و مهانة النفس و سخر في الرأى و شك في المقدور و جهد دائم و عقل هائم و غم لازم و فقر حاضر و تعب ظاهر و بحر عميق و طريق مظلم و مفازة مهلكة و مركب جموح.

وقد ذم الله الحرص و نهى عنه، فقال لنبى عليه السلام: كن متزهدا(1) في دار الفناء «و لا تمدن عينيك إلي ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه» يعني لنختبرهم فيه بالقلّة و الكثرة و الضيق و السعة، ثم دلّه علي القناعة التي هي سبب

الراحة، فقال: «ورزق ربك» يعني القوت من الحلال «خير و أبقى». (2)

و معني الحرص هو شق الأرض بأقدام الجهد و إتعاب البدن في طلب الفضول و إرادة الكثرة مع لزوم الطمع، يقال: حرص القصار الثوب: إذا شقه.

وقيل: أبعث الناس من الغفلة من دبر أمر الدنيا بالقناعة و التسوية، و أمر الآخرة بالحرص و التعجيل، و أمر الدين بالعلم و الاجتهاد، و الخلق بالتصحية و المداراة.

وقال علي بن عبيدة(3): يا نفس، لا تسلكني سبل الاستكثار من المال فإن جمعه حسرة و وبال، و اعتري بالقناعة فإنها أشرف قدرا و أرفع ذكرا و خطرا و أقرب إلي منزلة السعداء و أكسب للشكر و أزلف عند الخالق من الاستكثار من الفتنة الدائمة و احتمال أوزار المكاسب و لهث(4) الحرمان، فإن هذه شرائع من حرم القناعة مع لوم الطمع و ثبات حجة المقمت و لزوم سمة البخل.

وقال: القناعة من أخلاق الصالحين و آثار الصديقين، و بها قطعوا المفاوز و البحار و سلكوا سبيل الأبرار و نجوا من كدورة الاختيار و سلموا من نوائب الأدهار و تطهروا

ص: 320

1- في الأصل: مزهدا.

2- طه: 131.

3- ممرّسمة، وهو من عرفاء القرن الثالث.

4- كذا، و لعلّ الصحيح: لهف.

من دنس الأوزار واطّلعوا علي حقائق الأنوار و أبصروا معاني الأقدار و استسلموا للملك الجبّار.

ص: 321

قال الحافظ:

الصبر جنة المؤمن وسريرة الموقن وعزيمة المتوكل، وهو سبب درك النجاح ومفتاح الظفر وباب الفرح وقيد التعبد وسبيل الأبرار ومطية الأخيار، والله مع الصابرين ويحبهم ويوفي أجورهم. قال الله تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»⁽¹⁾

وختم أحوال الطاهرين ومناقب الصديقين بالصبر، وقرن به عظيم الثواب، فقال: «و جزاهم بما صبروا جنة و حريراً»⁽²⁾

والصبر من أخلاق المرسلين يدل عليه قوله لخاتم النبيين عليه السلام: «فاصبر كما صبر

أولو العزم من الرسل»⁽³⁾.

أعلم أن الصبر سيرة نوح الشكور وداب الخليل إبراهيم و خلق الكليم موسى ومذهب المسيح عيسى عليهم السلام [وأمر محمد صلي الله عليه وآله] بجميل الصبر، وهو الذي لا جزع معه ولا ضجر فيه، فقال تعالى ذكره: «فاصبر صبراً جميلاً»⁽⁴⁾.

ص: 322

1- الزمر: 10.

2- الإنسان: 12.

3- الأحقاف: 35.

4- المعارج: 5.

و الصبر علي وجوه:

صبر مع الله، وهو الصبر مع الأولياء والأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

وصبر علي الله، وهو الصبر علي المحن الواردة والمصائب النازلة من عنده.

وصبر في الله، وهو الصبر في طاعته وإقامة حدوده.

وصبر عن الله، وهو صبر من حجب عن كرامته وعزل عن ولايته و طرد عن بابه و وسم بسمة القطع و سقي بكأس الفرقة.

و الصبر علي مراتب أخر:

صبر عامة المؤمنين علي أداء ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه.

وصبر العلماء علي حفظ سنن الرسول و لزوم أدائه و احتمال محن العامة و أثقالهم.

وصبر العباد علي إدمان الذكر وإخلاص العمل و مراعاة الأوقات.

وصبر الزهاد علي ترك الشهوات و مخالفة الهوي و بذل المجهود و احتمال المكاره و مقاساة المحن.

وصبر العارفين المحبين علي صفاء الهمة و صحة الإرادة و صدق المعاملة.

وصبر الأولياء الصديقين علي حفظ الأمانة و نشر العلوم و تأديب الأمة و ترتيب (1) الرعية.

وصبر الأنبياء و الرسل عليهم السلام علي قبول الوحي و تبليغ الرسالة و أداء الأمانة و رياضة النفوس و مقاساة البلاء و بذل المهج و

النصيحة للخلق و الشفقة عليهم و تعليم البشر و الدلالة علي الحق و الدعوة إلي الله في السرّ و العلانية.

و لا يحتمل هذه المكاره و لا يصبر عليها إلا من شاهد الملكوت و أطلع علي

ص: 323

1- كذا، ولعلّ الصحيح: تربية.

السَّرائِرَ وأبصر الغيب بعين اليقين واستقام بكلمة الحقِّ وغسل بماء الصِّفاء وسقي بكأس التأييد. فهذا مراتب الصِّبر و منازل الصَّابرين.

وفيما يؤثر عن ابن عبَّاس عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: الصِّبر ثلاثة: صبر علي المصيبة وصبر علي الطَّاعة، وصبر عن المعصية. أمَّا الصِّبر علي المصيبة كتب الله له ثلاثمائة

درجة ما بين الدَّرجة إلي الدَّرجة ما بين السَّماء والأرض. وأمَّا الصِّبر علي الطَّاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدَّرجة إلي الدَّرجة كما بين تخوم الأرض إلي منتهي

العرش مرَّة. وأمَّا الصِّبر عن المعصية كتب الله له سبعمائة درجة، ما بين الدَّرجة إلي

الدَّرجة كما بين تخوم الأرض إلي منتهي العرش مرَّتين. (1)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: اصبر [صبر] الأحرار وإلا سلوت سُلوِّ الاغمار (2)

و كان يقول: إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت موزور. (3)

وأصل الصِّبر: الحبس، وسمِّي شهر الصَّوم شهر الصِّبر لأنَّ فيه حبس النَّفس عمَّا أبيع في غيره.

ونهي رسول الله صلي الله عليه وآله عن الشَّاة المصبورة، وهي التي تحبس فترمي.

ومن قولهم: قتل فلان صبرا، يعني حبس لتلك الحالة. والصَّابر: الحابس.

و حدَّ الصِّبر علي لسان العامِّ: حبس النَّفس عند نزول البلاء، ومن دخل ميدان الصِّبر مع إرادة الخروج من المحنة فمقامه علي خلاف الحقِّ.

و حدَّ الجزع: اضطراب القلب في المحنة واستعجال الخروج منها، وفيه بطلان الأجر وفوت الدَّخر.

ص: 324

1- راجع الكافي: 2/91.

2- في غرر الحكم: إن صبرت صبر الأحرار والخ.

3- انظر معجم ألفاظ غرر الحكم: 148 و 577.

وقيل: جزعك من مصيبة أخيك أحمد من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحمد من جزعك.

واعلم أن بالصبر توجد الدنيا وتدرك العقبي وتم الأعمال وتصلح الأحوال وتستقيم الأسباب وتفتح الأبواب ويكشف الغطاء ويدفع البلاء، ولن يبلغ العبد غاية المجد ومنتهي الشرف ودرجة العز ورتبة الفضل إلا بكمال الصبر.

وقيل: الدنيا العافية والشباب الصحة والمرّة الصبر علي أذي الرجال.

فالزم الصبر وتمسك به، تدرك الظفر وفضيلة الحرّية. ولا تسلك سبيل الجزع، تقع في بحر المحن وتغرق في أمواج البلايا وتبقي علي ساحل الحرّية وتقوتك سفن النّجاة وراحة السّعداء وكرامة الأولياء ودرجة الأصفياء، وتدرّك حسرة المقصّرين وندامة المفرطين وأحزان المتحيرين وحريرة المحزونين. وفّقنا الله وإياك

للسّبر الجميل وأعانك عليه، إنه خير موفّق و معين.

ص: 325

قال الحافظ:

الاستقامة علي وجهين: ظاهرة وباطنة.

أمّا الظاهرة فهي الثبات علي أداء المأمور به و اجتناب المنهبي عنه في الأوقات بشرائطها المتعلقة بها.

و أمّا الباطنة فهي الثبات علي اعتقاد التوحيد و النبوت و ما دعا إليه الرّسل و دلّ

عليه الكتب و أوجه العقل من الأذكار و الإرادات.

قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ» يعني بحركات القلوب مشاهدة الحقّ «ثمّ استقاموا» مع الله بشرط الوفاء من آداب العبوديّة «تتنزّل عليهم الملائكة» عند فراق الأهل و الحماية بإطباق النور و الهداية «ألاّ تخافوا» عزل الولاية «و لا تحزنوا» علي فوت الرعاية «و أبشروا بالجنة» و معها صدق العناية «التي كنتم توعدون» في

البرابة(1) «نحن أولياؤكم» يا أهل المعاني «في الحياة الدنيا» بالتولي «و في الآخرة» بالبرّ و التجلّي «و لكم فيها ما تشتهي أنفسكم» [من] أنواع المني في دار الصّفاء «و لكم فيها ما تدعون» حصول المقصود في دار البقاء «نزلاً من غفور رحيم»(2) يعني

ص: 326

1- كذا.

2- فصلت: 30.

إنزالاً من الملك الأعلي أهل الوفاء. و النزل ما يقام للضعيف.

وفي المأثور عن أنس عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: ليس للمؤمن المستقيم غم الموت ولا وحشة القبر ولا فزع يوم القيامة. ثم تلا هذه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» (1).

وقيل: الاستقامة علي سبعة أوجه:

أولها: علي التوحيد و ما تعلق به من ردّ الأديان الباطلة و الملل المختلفة.

و الثانية: علي أحكام المصطفي صلي الله عليه وآله من شرائعه و سننه (2).

و الثالثة: علي إخلاص الأعمال و رياضة النفوس و صدق الإرادات.

و الرابعة: علي ذكر الحجج في الإباحات.

و الخامسة: علي الزهد في الدنيا و رفض أسبابها و طلب العقبي و موافقة طلابها.

و السادسة: علي الأخلاق الحميدة و المناقب الرضية من مخالفة الهوي و إماتة الشهوات و ذكر المنن و حفظ الخواطر و تصفية العقائد.

و السابعة علي احتمال المكاره في قبول الولايات و مقاساة المحن عند ظهور العنايات و رفض الأوهام مع رؤية الكرامات، و هو أعلي درجات المستقيمين.

وقيل: طبقات المستقيمين سبعة:

أولهم: الرسل، استقاموا علي قبول الوحي و أداء الأمانة و تبليغ الرسالة (3).

و بالاستقامة تدرك الرغائب و تسلم من التوائب، و بدونها تفوت المنى و تحلّ البلاء. و بالاستقامة تعمر الدنيا و تطلب العقبي و تحصل الآخرة و الأولي.

و لهذا المعني أمر الله نبيّه بها و حثّه عليها، قال: «فاستقم كما أمرت و من تاب

ص: 327

1- فصلت: 30.

2- في الأصل: سنته.

3- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

وقد كان رسولاً لله صلي الله عليه وآله رأس المستقيمين، لكنّه أمر بالاستقامة علي الاستقامة. [فإنّ] فيها الكمال و الجمال و التّوال و الجلال، و بها البهاء و البقاء، و بها الصّلاح و الفلاح، و بها الوصول و القبول، و فيها شرف الدارين و فضيلة الحالين و دول الأحرار و عزّ الأبرار و ملك الأخيار في دار القرار و جوار المختار عند الملك الجبّار.

ص: 328

قال الحافظ:

أصل التوبة: الرجوع، وشرائطها: التدم بالقلب و الاستغفار باللسان و الإقلاع بالجوارح و الإضممار أن لا يرجع إلي الذنوب أبدا.

وقول العرب: تاب و آب و أناب و رجع بمعنى واحد، و المآب: المرجع. قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا توبوا الي الله توبة نصوحا». (1) ذكر عن ابن عباس: يعني صادقا من قلوبكم.

وقيل: صدق التوبة دوام الجهد و إدمان الذكر و مفارقة الأوطان و هجرة الخلآن و مخالفة الأصحاب و تبديل الأحباب و سدّ الأبواب و إظهار النحيب و الأانس بالقرب و إصلاح الأحوال و قصر الآمال و ذكر الآجال و لزوم الفطام إلي يوم الحمام و إرخاء الستور و زيارة القبور و مجالسة العلماء و مؤانسة الحكماء و صحبة الزهّاد و طلب العبّاد و بكاء المحيّين و لوعة المشتاقين و إخلاص المريدين و صفوة الصّدّيقين و خشية المتّقين و توكلّ المنيبين و صبر المستقيمين و سرور الذّاكرين و أمن الموقنين، و أشباه ذلك من علامات التائبين الصّادقين.

و عن الحسن في معني النّصوح، قال: أن تبغض الذّنّب كما أحببته، و أن لا تعود

ص: 329

إلي الذنب كما لا يعود اللبن إلي الضرع.

وعن عكرمة قال: يعني ناصحا لأنفسكم.

وعن جنيد قال: الندم الصادق والحياء المحقق وترك العقد.

وعن الشبلي قال: الإقبال علي أمر الله وإيثار محابب الله وشدة الحياء من الله.

والتصوح مأخوذ من: نصح الرفأ، وهو إصلاح ما يخرق من الثوب. وبالتوبة يصلح العبد ما أفسد من عمره وضيّع من أيامه؛ فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: بقية عمر

المؤمن لا ثمن لها. قيل: ولم ذاك؟ قال: لآته يدرك بها ما فات ويحيي بها ما قد أمات. (1)

وفيما يؤثر عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: التائب يستبين عليه أثر التوبة، وليس هو بتائب حتى يرضي خصماءه ويعيد صلاته الفاتية [و] ينهي نفسه عن الشهوات [و] يتواضع لجميع الخلق [و] يهزل رقبته بقيام الليل، ويخمص بطنه بقلة الأكل، ويذيب عظامه شوقا إلي الجنة، ويقوس ظهره (2) مخافة من النار فهذا التائب هو الناصح لنفسه. (3)

و ضدّ التوبة الإصرار، وهو إرادة المعصية في مستقبل العمر حسب ما كان يفعل في ماضي العمر. قال الله تعالى: «و الذين إذا فعلوا فاحشة» قيل: هي الزنا «أو ظلموا أنفسهم» بمقدّماته «ذكروا الله» يعني وعده و وعيده و اطلاعه علي العبد «فاستغفروا لذنوبهم» و هو إرادة المغفرة منه بالتوبة التصوح «و من يغفر الذنوب إلا الله و لم يصروا» معطوف علي قوله: «فاستغفروا لذنوبهم» يعني لم يقيموا علي مثل ما فعلوا «و هم يعلمون» أنهم يصرون «أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم» يعني ستر

ص: 330

1- راجع الدعوات للراوندي: 122 و روضة الواعظين: 394.

2- في الأصل: نفسه.

3- جامع الأخبار: 226.

و تجاوز «و جنّات تجري من تحتها الأنهار» يعني بساتين النّعمة و معادن الكرامة، تجري تحت شجرها و سررها أنهار الماء و اللبن و الخمر و العسل من ينابيع القدرة و عيون القدس «خالدين فيها» يعني مقيمين دائمين في النّعمة، لا يعزلون عنها و لا يحجبون. و قيل: لا يموتون فيها و لا يخرجون منها «و نعم أجر العاملين» (1) يعني ثواب المستغفرين التّاديين.

و فيما يؤثّر عن رسول الله صلي الله عليه و آله قال: المستغفر من الذّنوب و المصّرّ عليه كالمستهزئ برّبّه (2)

و قال عليه السلام: ما أصرّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرّة (3)

و قال بأبي و أمّي: إنّه ليغان علي قلبي فأستغفر. (4) والإغانة: غيم خفيف و لا ظلمة له. فاختلفوا فيه، فمنهم من قال: هو ثقل مطالبة الحقّ علي قلب النبي صلي الله عليه و آله عند حضور ما أمر به، يدلّ عليه قوله لبلال إذا حضر وقت الصلاة: أرحنا يا بلال، أرحنا يا

بلال (5)

و قد يوجد في أسرار المؤمنين ثقلاً علي قلوبهم عند حضور الأوامر تعظيماً لها و إجلالاً للأمر بها، فكان يستغفر تعبداً لا من زلل تقدّمت. و إلي هذا ذهب (6)

[و قيل: استغفاره لأمتّه] علي ما تحدث في أمتّه من الفتن و البلايا، فكان يستغفر لهم، و إلي هذا ذهب أبو بكر بن أبيطاهر الأبهري (7).

ص: 331

1- آل عمران: 135.

2- راجع الكافي: 2/504 و 435 و الجامع الصّغير: 1/520.

3- جامع الأخبار: 147 و مستدرك الوسائل: 12/122 و 138.

4- راجع المجازات التّبويّة: 390 و صحيح مسلم: 8/72.

5- راجع بحار الأنوار: 83/16 و المعجم الكبير: 6/277.

6- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

7- في الأعلام 6/225: محمّد بن عبد الله بن محمّد بن صالح، أبو بكر التّميمي الأبهريّ. شيخ المالكية في العراق، سكن بغداد، له تصانيف، مات سنة 375هـ.

و الإغانة: خواطر تخطر علي قلب العبد، و كان خواطر النبي صلي الله عليه و آله [إلهيًا] و استغفاره و دعاؤه لإظهار الحاجة و خضوع العبودية.

و في المأثور عنه عليه السلام أنه كان يقول: اللهم اغفر لي خطاياي و عمدي و هزلي و جدّي و كلّ ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدّمت و ما أخّرت و ما أسررت و ما أعلنت، إنك أنت المقدم و أنت المؤخّر و أنت علي كلّ شيء قدير. ربّ أعنيّ و لا تعن عليّ، و انصرني و لا تنصر عليّ، و امكر لي و لا- تمكر عليّ، و اهدني و يسّر الهدي لي، و انصرني علي من بغي عليّ. ربّ اجعلني شكّارا لك ذكّارا لك راهبا لك مطواعا لك محبّبا إليك أوّاهها منييا ربّ تقبّل توبتي و اغسل حوبتي و استر عورتني و أقلّ عثرتني و أجب دعوتي و اقض حاجتي و ثبت حجّتي و اهد قلبي و سدّد لساني و اسلل سخيمة قلبي و أصلح نيتي يا أرحم الرّاحمين(1)

كلّ ذلك منه صلّي الله عليه و آله دلالة علي الافتقار إلي الله و التّضرّع إليه و التّذلّ

في مقام الخدمة و الاعتراف بالعجز عن قضاء الحقّ و القيام بالأدب علي إقدام الحياء في بساط الخدمة معتذرا بلسان الخجل من تقصير الشّكر.

و قيل: الاعتراف يهدم الاقتراف، و التّوبة تغسل الحوبة.

و قيل: التائب تبكيه خطيئته، و الزّاهد تبكيه غربته، و العارف يبكيه خوف زوال الإيمان.

و قيل: التائب يرتع في مرج الحكماء، و الزّاهد يرتع في مرج العلماء، و المرید يرتع في بستان العرفاء، و العارف يرتع في ميدان الأولياء(2) قال من كسر الشّباب علي نفسه و كسر الدّنيا علي رأس الشّيطان و لزم الفطام حتّي أتاه الحمام.

ص: 332

1- راجع مسند أحمد: 227 و سنن ابن ماجة 2/1259 و سنن الترمذي: 5/214.

2- هنا سقط من الأصل سطر واحد.

وينبغي للعبد أن يجدد التوبة كل ساعة ولا يسوّفها لحظة، فإنّ الخطر عظيم والأمر قريب والفوت آت لا محالة، فهناك لا إقالة من عثرة و لا رجعة لتوبة. طويت الصّحف وجّقت الأقلام وأغلق الباب وختم الكتاب وكشف الحجاب ورفع العتاب وتقطّعت الأسباب وبرد الجنان وخرس اللسان وانتقطع البيان وظهرت الحقائق وبطلت الدقائق و لا ينفع الاعتذار من عظيم الأوزار والويل لأهل الإصرار، فطوبى لمن ندم علي ذنبه قبل منيته واعتذر من خطيئته قبل قضيتها وقدم من صالح الأعمال ولم يركن إلي أحسن الأحوال. فقد قيل: الدّنيا خمر الشيطان؛ من سكر منها لم يبق إلا في عسكر الموتى نادما بين الخاسرين.

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في التوبة: اللهم صيّرنا إلي محبوبك من التوبة وأزلنا عن مكروهك من الإصرار. اللهم ومتي ما وقفنا بين نقصين في دين و دنيا فأوقع النقص بأسرعهما فناءً واجعل التوبة في أطولهما بقاءً، وإذا هممنا بهمين يرضيك أحدهما عنّا ويسخطك الآخر علينا، فمل بنا إلي ما يرضيك عنّا وأوهن قوتنا عمّا يسخطك علينا، ولا تخلّ في ذلك بين نفوسنا واختيارنا فإنّها مختارة للباطل إلاّ ما

عصمت، أمارة بالسوء إلاّ ما وقيت. اللهم إنك من الضّعف خلقتنا وعلي الوهن بنيتنا

ومن ماء مهين ابتدأتنا و لا- حول لنا إلاّ [بقوتك]. ولا قوّة لنا إلاّ بعونك فأيدنا بتوفيقك وسدّدنا بتسديدك، وأعم أبصار [قلوبنا عمّا خالف محبّتك و لا تجعل لشيء من جوارحنا نفوذاً في معاصيك اللهم اجعل همسات قلوبنا ولمحات أعيننا وحركات أعضائنا ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك حتّي لا تقوتنا حسنة نستحقّ بها جزاءك و لا تبقي (1) لنا سيّئة نستوجب بها عقابك (2).

ص: 333

1- في الأصل: تنفذ.

2- هذا هو الدّعاء التاسع من الصّحيفة السّجّادية مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ.

قال الحافظ:

الورع كَفَّ النَّفْسَ عَنِ الشَّبَهَاتِ، وَهُوَ غَايَةُ التَّحَرُّجِ. يُقَالُ: وَرَعْتَهُ، أَي كَفَفْتَهُ. وَرَجُلٌ وَرَعٌ، أَي كَافٌّ. وَفِي الْحَدِيثِ (1): وَرَعَ اللَّصَّ وَلَا تَرَاعَهُ، أَي أَكْفَفَهُ بِمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ.

والتَّقْوَى هُوَ الْحَذَرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ بِذِكْرِ عِظْمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ، وَالتَّنَزُّهُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ خَوْفَ الْعِقَابِ وَرَجَاءِ الثَّوَابِ.

وَقَالَ صَاحِبُ الْمِيزَانِ (2): الْوَرَعُ سِتْرٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشَّبَهَاتِ، وَالتَّقْوَى سِتْرٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْحَرَامِ، وَلَا يَقَعُ الْعَبْدُ فِي الْحَرَامِ مَا دَامَ تَقِيًّا، وَلَا فِي الشَّبَهَةِ مَا دَامَ وَرِعًا، وَوَجَدْتُ مَخْرَجَهُمَا مِنَ الْخَوْفِ إِذَا كَانَ الْخَوْفُ بِمَكَانٍ تَوَلَّدَ مِنْهُ التَّقْوَى وَالْوَرَعُ، وَعَلَامَتُهُ فِي الظَّاهِرِ تَرْكُ الْحَرَامِ وَالشَّبَهَةِ.

وَسُئِلَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ (3) عَنِ التَّقْوَى، فَقَالَ: عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلِيٌّ نُورٌ مِنَ اللَّهِ رَجَاءُ ثَوَابِ اللَّهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَلِيٌّ نُورٌ مِنَ اللَّهِ مَخَافَةَ عِقَابِ اللَّهِ.

ص: 334

1- انظر لسان العرب: 15/273.

2- لم نعرف هذا الكتاب و مؤلفه.

3- ذكره القشيري في الرسالة القشيرية: 190 ونقل عنه: التقوي عمل بطاعة الله علي نور من الله مخافة عقاب الله.

وقيل: التقوي طهارة وبراءة من الشّرك الخفيّ و الجليّ و المتّقي المنتفي(1) من الشّرك الخفيّ و الجليّ، و هو المتّقي الحقيقيّ و هو أولي بالإمامة قوله تعالى: «و جعلنا للمتّقين إماما»(2) و الأتقياء هم الأولياء إن أولياءه إلا المتّعون(3).

ص: 335

1- المنتقي.

2- الفرقان: 74.

3- هنا سقط من الأصل سطر واحد أو أكثر.

ذکر العبرة و التفكير

قال الحافظ:

العبرة وزن الأشياء بميزان العقل ليظهر الرجحان و التقصان، و هي النظر في الموجودات بعين الفناء، و أجلّ المواعظ العبر، و أعظم العبر الموت. قال الله تعالى:

«فاعتبروا يا أولي الأبصار»⁽¹⁾

وقيل: من عبر الدنيا يكفيك الموت، و من شغل الدنيا يكفيك الطاعات، و أفضل العلم معرفة الله، و أصل المعصية حبّ الدنيا.

وقيل: اتعظ بما تسمع و اعتبر بما تري قبل أن تصير عبرة للناظرين و عظة للسامعين.

و قال الحسن رحمة الله عليه: رحم الله عبدا [نظر فتفكر، و] تفكر فاعتبر، و اعتبر فأبصر و أبصر فصبر، فو الله لقد أبصر أقوام فما أصابوا ما أرادوا و لا استطاعوا الرجعة⁽²⁾

وقيل: إن التفكير و الاعتبار يخرجان من قلب المؤمن عجائب المنطق في الحكمة فيسمع له أقوال يخضع لها العلماء و يعجب منها الفقهاء و يعظمها الحكماء و يتعظ

ص: 336

1- الحشر: 2.

2- راجع نهج البلاغة: الخطبة 203 و شرح ابن أبي الحديد: 5/148.

بها الأتقياء و يسرع اليها الأدباء و يستضيء بها البصراء.

و أصل التفكّر ذكر ما مضى بالتّدم و ذكر الحال بالإتمام و ذكر العواقب بالانتظار.

و هو عندي تردّد القلب في المملكة بالنظر العقلي في محكم الصّنع و متقن الحجّة و مركّب الطّبع إذ الفكرة ستحتلّ (1) في مالكيها، و أجلّ الأفكار مطالعة الأسرار بعين الأنوار.

و التفكّر علي وجوه:

منها التّفكر في النّفس و ما فيها من العجائب، فإنّها أقرب الأشياء إلي الإنسان و أولاها بالتّفكّر.

و منها التّفكّر في (2) و مراتبهم و تفاوت أطباعهم و تباعد ما بينهم في المذاهب و الهمم و الإرادات.

و منها التّفكّر في الأحوال و هي علي أربعة أوجه: طاعة و معصية و نعمة و شدة.

و منها التّفكّر في الأمر و النّهي فيعظهما للائتمار و الانتهاء.

و منها التّفكّر في الوعد و الوعيد فيذكرهما للرّغبة و الرّهبة.

و منها التّفكّر في العواقب و النّهايات للتّأهب و الاستعداد.

و منها التّفكّر في المجازاة و المكافاة للجهد و الطّلب.

و منها التّفكّر في الثّواب و العقاب للخوف و الرّجاء.

و قيل: ما جليت القلوب بمثل الأحزان، و لا استنارت بمثل التّفكّر.

و فيما يؤثر عن المصطفى صلي الله عليه و آله قال: التّفكّر نصف العبادة، و قلة الطعام هي العبادة (3).

ص: 337

1- في الأصل: يستحل.

2- هنا كلمه لاتقرأ.

3- راجع غرر الحكم: 147 و جامع السّعادات: 2/5.

وقال: تفكّر ساعة خير من عبادة سنة(1)

وسئل الفيلسوف بم يتّضح الرّأي و تتمّ البصيرة؟ قال: بإدامة الفكرة في العواقب و إدمان مجالس الحكماء.

وسئل بعضهم عن العبرة و الفكرة، قال: العبرة الاطلاع علي غائب ما لم يظهر.

وقيل: التفكّر أفضل أعمال الحكماء و أشرف أحوال العلماء، به يبصر العبد العواقب و يميّز بين الأشكال و الأضداد و يطّلع علي الحقائق و يغوص بحر الفطن و يستخرج لثالي الحكمة[و] يكشف شبه المتحيرين و يسهّل السبيل علي المرتادين، و قد مدح الله المتفكرين و جعله أفضل نعوت المخلصين و أعلي درجات المستبصرين، فقال عزّ ذكره: «إنّ في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما و قعودا و علي جنوبهم» ثمّ ختم أحوالهم

بأفضل أعمالهم فقال «و يتفكّرون في خلق السموات و الأرض»(2) فيستدلّون علي

خالقها و(3).

ص: 338

1- راجع تفسير العيّاشي: 2/208 و فقه الرضا عليه السلام: 380 و مصباح الشريعة: 171.

2- آل عمران: 190.

3- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

...[منها إرضاع الأمّ ولدها حولين كاملين] قال الله تعالى: «والوالدات يرضعن

أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة».(1)

وفي المأثور عن رسول الله صلي الله عليه وآله قال: رحم الله والد أغان ولده علي بّره(2) وعنه عليه السلامقال: إنّ من حقّ الولد علي الوالد أن يحسن اسمه إذا ولد، ويؤجّه إذا أدرك، ويعلمه الكتاب إذا عقل(3)

وقال بأبي وأمّي عليه السلام: سمّوا أولادكم بأسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله و عبد الرحمن، وأصدقها همام و حارث، وأقبحها حرب و مرّة.

وقال النبي صلي الله عليه وآله وأهل الأّمّهات: لا تغذّب(4) أولادكّن بالدغر. وهو الوجع الذي يجده الصّبي عند إدخال الإصبع فيه.(5)

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إذا بلغ الصبيان سبع سنين أمرو بالصلاة، فإذا بلغوا تسع سنين ضربوا عليها، فإذا بلغوا عشر سنين فرّق بين الجوّاري والغلمان في

ص: 339

1- البقرة: 233.

2- الكافي 6/50. عنه الوسائل 21/481 وانصر أيضا الكافي 6/48.

3- راجع الجامع الصّغير: 1/578 وروضة الواعظين: 369 و مكارم الأخلاق: 220.

4- في الأصل: لا تغذّين.

5- الفائق: 1/370.

المضاجع، فإذا بلغوا إثنى عشرة سنة كتب لهم الحسنات، ولم يكتب عليهم السيئات فإذا بلغوا خمس عشرة سنة جرت عليهم الأقاليم. (1)

و حدّ التّربية التّخيّر للتّطف و العقّد بالشرّعة و البناء بالسنّة و الصّحبة بالعلم

و الوطنى بالأدب و تفرّغ الخواطر عن الشّبه و الإنفاق من الحلال الطّيب و صيانة النّفس في وقت الحمل و الصّدقة في حين الوضع و الشّكر علي الصّحة و الإرضاع بالرّفق و العقيقة مع التّطهير يوم السّابع و تحسين الاسم و حلق الشّعر و التّصدّق بوزنه ذهباً أو فضّة أو ما كان، و تمهيد بالسنّة و تحريكه باللطف و تنظيفه عن الأذى

و تلقينه الألفاظ الجميلة أيّام الرّضاع و ستره عن أبصار الحسد و إتمام رضاعه إلي الحولين إن كان ذكراً، و إن كان أنثى خار إلي الحول و نصفه، و منع ألبان الفاسدات عنه و تسليمه إلي المكتب وقت النّطق و تأديبه بالشفقة و توفير الأجرة علي مؤدّبه و تعليمه القرآن ابتداءً.

ثمّ من الأداب ما يستعين به علي العلم الدّيني و حمّله إلي مجالس العلماء الرّاشدين ليقتبس من علومهم و تعليمه الشّرائع و الأحكام و حمّله علي إقامتها قبل البلوغ و زجره عن الملاهي و أسباب اللعب، و إسماعه ألفاظ الحكماء و تلقينه سير الأدياء و حفظه علي سنن الأنبياء و إحضاره المشايخ و الكبراء و تكليفه آداب الملوك العادلة، و تواضع السّوقة المنصفة و تبعيده عن تيه الأغنياء و مذلّة الفقراء و أمره بالبرّ و التّقّي و نهيّه عن الفحش و الخنا و إرشاده إلي أسباب المعاش، و عرض شرائط الدّين عليه كلّ وقت و تعليمه الخطّ و السّباحة و الفروسية و الرّمي و الحيل المطلقة للعباد، و هي الحرف التي جعلت سبباً للمعاش، و تزهيده في دار الفناء

ص: 340

1- راجع الكافي: 3/409 و 6/46 و الفقيه: 1/280 و مسند أحمد: 3/404.

و ترغيبه في دار البقاء و تمييز الفرش(1) بعضها من بعض و ترك ذكر الطّيبات بين يديه و منعه عن مجالس الخلوة و توقير أهل الفضل بحضرته ذكرا و معاملة، و تكليفه الأعمال الشّاقّة عسي هو يحتاج إليها يوما أمكنه، و لبسه الثياب الجميلة حين يعرف مقدارها، و ترك الانبساط مع الرّجال و النّساء كيلا يقتدي به المولود، و ضربه علي سوء الأدب و تعظيم المناهي في عينه و تصحيح الأنساب له و تحذيره ركوب الشّهوات و اللذات و تنبّهه عن غفلة الصّبيان و شطارة الشّبّان و تعيين(2) رأس مال له

ليقبل عليه إذا احتاج إليه، و تزويجه من الأكفاء كيلا يقع في الحرام إذا بلغ .

و هذه الآداب لابدّ منها لكلّ ذكر و أنثي، فإنّ الأدب أولي بالمرء من النّسب، و هو أعدل شاهد علي الحسب.

وقيل: من الأدب(3).

ص: 341

1- في الأصل.

2- في الأصل: تبين.

3- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

[قال الحافظ:]

[عن أمير المؤمنين عليه السلام] أنه قال: الدنيا دار عناء وفناء وغيبرٍ وعبيرٍ، فمن عنائها أن المرء يجمع ما لا يأكل ويبيني ما لا يسكن، ومن فنائها أنك ترى الدهر موتراً قوسه مفرّقا نبله يصيب الصّحيح بالسهّ قمّ والسهّ قميم بالموت و من غيرها أنك ترى المغبوط مرحوما والمرحوم مغبوطا ليس بينهما إلا نعيم زلّ أو بؤس نزل(1)، و من غيرها أنك ترى المرء يشرف عليّ أمله فيخطفه دنوّ أجله(2)

وسمّيت الدنيا لدنوّها من الخلق، و الآخرة لتأخرها عنهم. قال الله تعالى: «إذ أنتم بالعدوة الدنيا» و هي أقرب طرف الوادي «و هم بالعدوة القصوي»(3) و هي أبعد طرفها.

وقال أبو يزيد البسطامي: وجدت الناس عليّ أربع في حديث الدنيا: طالب فاجر، و طالب صالح، و زاهد تارك، و صديق محبّ. فالفاجر يحدثك عن الجهل و الفجور، و الصّالح يحدثك عن الورع و أبواب البرّ، و الزاهد يحدثك عن إظهار عيوبها و إثارة

ص: 342

1- في الأصل: ذلّ أو بؤس ترك، وفي التّهج: زلّ ونزل، وفي التّحف: زال ونزل.

2- نهج البلاغة الخطبة 110. تحف العقول: 218 مع الاختلاف الذي يدلّ عليّ اختصاصه بمصدر آخر غير نهج البلاغة. وراجع مصادر نهج البلاغة 2/252.

3- الأنفال: 42.

الآخرة عليها، و الصديق نَبَلَ عقله و كرمت نفسه عن أن يحدثك بدار الخراب.

وقيل: الدنيا غفلة و شهوة؛ فالغفلة حجاب الطاعة، و الشهوة حجاب المعرفة.

وقيل: الدنيا خطوة تحت قدم العارف، و ذرة عند الموحد.

و بعد، فأنا أصفها بأدني ما عندي دون الاستقصاء، فأقول مستعينا بالله: الدنيا تُخلق الأبدان و تجدد الآمال و تقرب المنيّة و تفرّق الأحبة، أعمارها قصيرة و أخطارها حقيرة، محنها مقبلة و نعمها مدبرة، بناؤها للخراب و صاحبها للتّراب، غناؤها بلاء و بنيانها منهدم و شجرها منهشم، إمّا نعمة زائلة و إمّا مصيبة جارية و إمّا

منيّة قاضية، لا يفرح بها إلاّ الجهّال و لا يفخر بها [إلاّ] الرذال، من رغب فيها استعبده و من مال إليها صرعه و من حرص عليها فضحته و من أحبّها قتلتته و من استعان بها خذلتته، طالبا متعوب و جامعها مكروب و صاحبها محجوب، مثلها الحكماء بالعروس المحلّية تشوّقت لخطابها و فتنت بغرورها، فالعيون إليها ناظرة و القلوب عليها والهة و النفوس لها عاشقة، و هي لأزواجها قاتلة. ما أشبهها بالمرأة المسافحة؛ متزوّجها مذموم نادم و مطلّقها محمود سالم، زرعها محصود و جمعها مكدود و يومها مفقود و عزّها مردود، تاركها في راحةٍ و سرور و جامعها في تعب و غرور، أولها خيال و أوسطها ضلال و آخرها وبال، أمسها موعظة و يومها غنيمة و غدها لا يدري من صاحبه؟ من تفكّر فيها أبصر و من اعتبر فيها صبر و من صبر فيها ظفر، نيلها ويل و وصلها فصل و ملكها هلك. فطوبى لمن أصبح فيها راضياً بتربة أرض تقلّه و سماء تظله، كسرة تكفيه و خرقة تواريه، زاده التّقوي و همّته (1) سيرته الوفاء و زينته الحياء، لباسه الصّبر و مركبه الشّكر سبيله الحقّ و طريقه الصّدق، رفض الدّنيا إلى أربابها و لم يركن إليها مع طالبها و لم يتمتّع بأسبابها، ينتظر الموت و يتهيأ له

ص: 343

1- هنا كلمة لا تقرأ.

كالمسجون في السّجن يترقّب كلّ ساعة رسول السّلمطان، لا يسكن من روعته و لا يطمئنّ من اضطرابه حتّى يعبر فنطرة الهلاك أو النّجاة.
العالم بأسباب الدّنيا، العارف

بفنائها، المنتظر لزوالها، الزّاهد في شهواتها، التّارك للذّاتها، لا يزال ينتظر رسول

الموت، ينجو من فتن الدّنيا و يقبل إلى نعيم الأبد لأنّه في جهد العبادة و طلب النّجاة

و تجرّع الغصص و ترك الشّهوات و احتمال(1)

[هذا آخر ما وجدناه من هذا الكتاب القيم، و الحمد لله ربّ العالمين].

ص: 344

1- هنا سقطت من الأصل صفحتان أو أكثر.

فهرس مصادر التحقيق والتخريج

إلزام النَّاصب للحائري البار فروشي

إحقاق الحقِّ وملحقاته للقاضي نورالله و آية الله المرعشي

معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام

الأمالي للشَّجري

غريب الحديث لابن سلام

غريب الحديث لابن قتيبة

الخلاف للشَّيخ الطَّوسي

المعجم الكبير للطَّبراني

تفسير الصَّنعاني

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر

تفسير أبي الفتوح الرَّازي

التَّبيان للشَّيخ الطَّوسي

تفسير القرطبي

فيض القدير شرح الجامع الصَّغير للمناوي

الصَّراط المستقيم للبياضي

الإيضاح لابن شاذان

مسند الشَّاميِّين

الغدير للعلامة الأمني

مصباح المتهجِّد للشَّيخ الطَّوسي

تذكرة الموضوعات للمولي علي القاري

عيون أخبار الرضا عليه السلام ملصّدوق

مشكاة الأنوار للطّبرسي

بحر الجواهر في اللغة

عدّه الدّاعي لابن فهد الحلّي

عيون الحكم والمواعظ لابن شرفيّة

زاد المسير لابن الجوزي تنبيه الخواطر أو مجموعة ورام

ص: 345

الفائق للزّمخشري

تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ

معاني الأخبار للصدوق

البدايه النّهاية لابن كثير

فتح الأبواب لابن طاووس

جامع السّعادات للنراقي

نهج البلاغه للشّريف الرّضي

روضه الواعظين للفتّال التّيشابوري

تاريخ بغداد للخطيب

الكامل لابن عدي

التّوحيد للصدوق

الصّحيفة الجامعة للسّيد الموحّد الأبطحي

جامع الأخبار للسبزواري

الصحيح لابن خزيمة

المصنّف لعبد الرّزاق

نفحات الأزهار في خلاصة عبقّات الأنوار

الخصال للصدوق

الكشّاف للزّمخشري

حليه لأولياء لأبي نعيم الإصفهاني

علل الشّرائع للصدوق

أمالي الشّيخ الطّوسي

الأعلام للزركلي

كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق

وسائل الشيعة للشيخ الحرّ العاملي

الأختصاص المنسوب إلي الشيخ المفيد

المحاضرات للراغب

تاريخ يعقوبي

مصادر نهج البلاغة للسيد عبدالزّهراء الخطيب

الدّر المنثور للسيوطي

المصنّف لابن أبي شيبة

المؤمن للأهوازي

التهاية لابن الأثير

المختصر للحسن بن سليمان الحلّي

المعجم الأوسط للطبراني

مسند الشّهاب

المجازات النبوية للشّريف الرّضي

لسان الميزان لابن الحجر

ص: 346

الرسالة القشيرية للقشيري

اللباب لابن الأثير

عوارف المعارف للسهروردي

صدات الشيعة للصدوق

مجمع البيان للطبرسي

تحف العقول لابن شعبة

ثواب الأعمال للصدوق

المستدرک للحکم النيشابوري

مستدرک الوسائل للتوري

جوامع الجامع للطبرسي

أسد الغابه بن الأثير

ميزان الاعتدال للذهبي

مسند أحمد

لاحتجاج للطبرسي

البرهان للبحراني

تفسير الثعلبي = الكشف والبيان

غاية المرام للبحراني

قرب الإسناد للحميري

تفسير العياشي

بحار الأنوار للعلامة المجلسي

المناقب لابن شهر آشوب

رجال التّجاشي

الخزائج للراوندي

جامع البيان للطّبري = تفسير الطّبري

إحياء العلوم للغزالي

فقه الرضا عليه السلام

بشارة المصطفى للطّبري

عوالي اللئالي للأحسائي

مجمع الرّوائد للهيثمي

الأمالى للصّدوق

سنن التّرمذي

لسان العرب لابن منظور

سنن البيهقي

تفسير فرات الكوفي

مكارم الاخلاق للطّبرسي

سنن ابن ماجة

صحيح مسلم

الدّعوات للراوندي

الجامع الصّغير للسّيوطي

صحيح البخاري

سنن التّساني

سنن أبي داود

جامع الأصول لابن الأثير

الصّحيفة السّجّادية

نهج السّعادة للمحمودي

بصائر الدّرجات اللصّفار

نور الثّقيلين للحويزي

كنز العمّال للمتمّقي الهندي

الأشاد للشّيخ المفيد

البيان والتّبيين للجاحظ

التّمحيص للإسكافي

شواده التّنزيل للحسكاني

مناقب الخوارزمي

سنن الدّارمي

اطّرائف لابن طاوس

معجم ألفاظ غرر الحكم

المحاسن للبرقي

التّهذيب للشّيخ الطّوسي

تأويل مختلف الحديث لابن فتيبة

فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

قصص الأنبياء للراوندي

الجعفریات

الإقبال لابن طاوس

الأدب المفرد للبخاري

مصباح الشريعة

الأمالى للشيخ المفيد

ص: 348

مقدمة المحقق: *** 11

مقدمة الأستاذ واعظ زاده الخراساني حفظه الله *** 19

[ذكر حسن الخلق] *** 26

ذكر حسن الجوار *** 27

ذكر الأخوة *** 30

ذكر التصوف *** 37

ذكر معاملات فاضلة تجري بين العباد لا بدّ من حفظها *** 41

و الوقوف عليها *** 41

ذكر الحسب والتسبب *** 45

[ذكر السخاء] *** 48

ذكر المروّة والفتوة *** 54

[في ذكر الإسلام] *** 57

ذكر الإحسان *** 60

ذكر الإقرار *** 65

[في ذكر الشهادة] *** 68

ص: 349

- 71 *** ذكر التصديق
- 73 *** ذكر الصدق
- 76 *** ذكر الدين و معناه
- 81 *** ذكر الملة
- 84 *** ذكر الفطرة
- 86 *** ذكر الطاعة
- 92 *** ذكر العبادة
- 96 *** ذكر البر
- 100 *** ذكر التوحيد
- 104 *** ذكر معان سنينة
- 107 *** ذكر العلم
- 110 *** ذكر بيان العلم
- 112 *** [في ذكر أنواع العلم]
- 117 *** ذكر الأدب
- 119 *** ذكر العقل
- 124 *** ذكر الحكمة
- 128 *** [في ذكر المعرفة]
- 135 *** [في ذكر اليقين]
- 138 *** ذكر الهدى
- 142 *** [في ذكر الإلهام]
- 145 *** [في ذكر الحجّة]

[ذكر اللطف و التّوفيق و الحرمان و العصمة و الخذلان] *** 149

و التّأييد و التّسديد و التّقريب و التّبعيد] *** 149

[و أمّا الغضب و السّخط و البغض و الرّحمة و الرّضا] *** 152

و الحبّ و الأسف و الضّحك و الصّبر و الحياء و الملالاة من الله] *** 152

ذكر أوصاف نطق به القرآن في صفة القديم مثل التّمس *** 155

و الدّات و العين و الوجه و اليد و الجنب و السّاق *** 155

و السّعة و القوّة و المجرى و الإتيان و الجدّ *** 155

[ذكر القضاء و القدر] *** 163

[ذكر العرش و الكرسيّ] *** 167

ذكر اللوح و القلم *** 173

ذكر الأفلاك و الكواكب *** 175

ذكر العالم *** 182

[ذكر التّمس الأتارة و اللّوامة و المطمئنّة] *** 188

[ذكر التّمس و الروح و القلب] *** 189

ذكر الطّبّ و طبائع الإنسان *** 193

ذكر الأمراض و أجر المريض *** 205

ذكر الخزائن *** 208

ذكر الغيب *** 214

ذكر دعوة الحقّ *** 217

ذكر الكتب المنزلة *** 219

[في ذكر الرحمة و الرّأفة] *** 225

ذكر نعم الله *** 227

ذكر التواضع والكبر *** 229

ذكر إرادات شريفة لا بدّ للعبد من حفظها واجتناب أضدادها *** 234

ذكر أقسام الذكر وأنواعه *** 241

ذكر الفقر والغناء *** 244

ذكر منازل المؤمنين *** 248

[في ذكر النعمة] *** 257

ذكر فضل الله *** 259

ذكر العفو *** 264

ذكر الفضل والعدل *** 267

ذكر السعادة والشقاوة *** 271

ذكر الحقّ ومعناه *** 275

ذكر الأولياء والأعداء *** 280

ذكر دار المحنة *** 284

ذكر المحنة *** 288

ذكر الدّولة *** 295

ذكر الرّزق وسببه *** 298

ذكر التّوكّل والتّقويض والتّسليم *** 303

ذكر الإخلاص *** 307

ذكر الرّهد والرّغبة وصفة الرّاهد والرّاغب *** 315

ذكر الرّضا والسّخط *** 319

ذكر الشُّكر و الكفران *** 323

ذكر القناعة *** 328

ذكر الصَّبْر و معناه *** 332

ذكر الاستقامة *** 336

ذكر التَّوْبَة و شرائطها *** 339

ذكر الورع و التَّقْوِي *** 344

ذكر العبرة و التفكّر *** 346

[حقّ الأولاد] *** 349

[ذكر الدُّنْيَا] *** 352

فهرس مصادر التحقيق و التخریج *** 355

ص: 353

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباه اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩